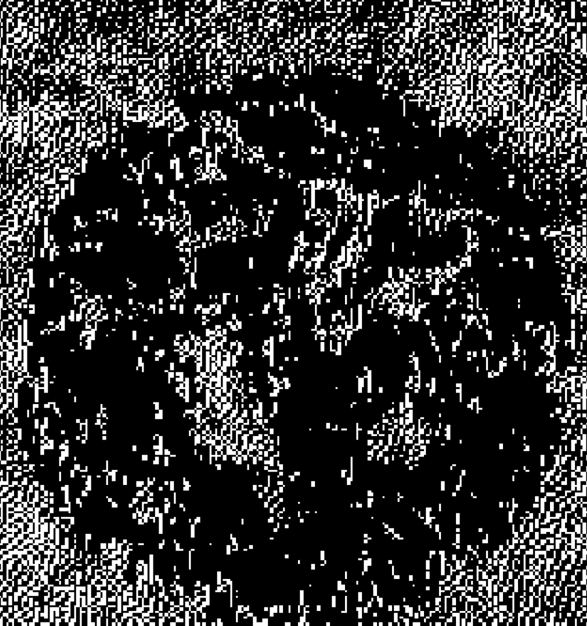
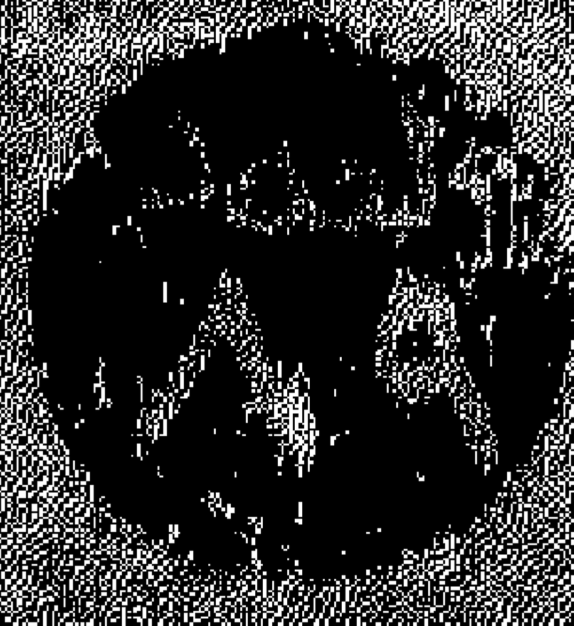
كتاب الهلال

ابليس

بقلم
عباس محمود العقاد



سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير: طاهر الطناحي

العدد ٨٩ - محرم ١٣٧٨ - أغسطس ١٩٥٨

No. 89 — Août 1958

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال - بوستة مصر العمومية - مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) - مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ - سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا أو لبنانيا - السعودية والعراق والاردن وليبيا ١٣٠ قرشا صاغا - الامريكتان ٥ر٥ دولارات - فى سائر أنحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

إبليس

عدو أبد الآبدين قائم

بقلم

عباس محمود العقاد



فاتحة خير

يوم عرف الانسان الشيطان كانت فاتحة خير

وهي كلمة رائقة معجبة ، تروع المسامع وتستحق في بعض الاذواق أن تقال ولو تسامح القائلون والسامعون في بعض الحقيقة طلبا لبلاغة المجاز

ولكنها في الواقع هي الحقيقة في بساطتها الصادقة التي لا مجاز في لفظها ولا في معناها ، ولا تسامح في مدلولها عند سامع ولا قائل ، بل هي من قبيل الحقائق الرياضية التي تثبت بكل برهان ، وتقوم الشواهد عليها في كل مكان

فقد كانت معرفة الشيطان فاتحة التمييز بين الخير والشر ، ولم يكن بين الخير والشر من تمييز قبل أن يعرف الشيطان بصفاته وأعماله وضروب قدرته وخفايا مقاصده ونياته

كان ظلام لا تمييز فيه بين طيب وخبيث ، ولا بين حسن وقبيح ، فلما ميز الانسان النور عرف الظلام ، ولما استطاع ادراك الصباح استطاع أن يعارضه بالليل ، وبالمساء

كانت الدنيا أهلا لكل عمل يصدر منها، ولم يكن بين أعمالها الحسان وأعمالها القباح من فارق الا أن هذا يسر وهذا يسوء ، والا أن هذا يؤمن وهذا يخاف . أما أن هذا جائز وهذا غير جائز في ميزان الاخلاق فلم يكن له مدلول في الكلام ، ولم يكن

له ــ من باب أولى ــ مدلول فى الذهن والوجدان

وكانت القدرة هى كل شىء

فلما عرف الانسان كيف يذم القدرة ويعيبها عرف القدرة التى تجمل بالرب المعبود ، والقدرة التى لاتنسب اليه ولكنها تنسب الى ضده ونقيضه

وهو الشيطان

وكانت فاتحة خير لا شك فيه

كانت فاتحة خير بغير مجاز وبغير تسامح فى التعبير

وكانت للانسان عين يعرف بها الظلام ، لانها عرفت النور وخرجت من غيابة الظلمات التى كانت مطبقة عليه

فتاريخ الانسان فى أخلاقه الحيـــة لا ينفصـــل من تاريخ الشيطان

وأوله هذا التمييز بين الخير والشر

ولكنه الاول فى طريق طويل لم يبلغ نهاية مطافه

فبعد التمييز بين الخير والشر خطوة أخـــرى ألزم من تلك الخطوة الاولى فى تاريخ الاخلاق الحية

وتلك هى معرفة الخير فى الصميم

فقد كان على الانسان أن يعرف حقيقة الخير ليعمله على علم وبصيرة

فليس الخير خلوا من الشر وكفى

وليس الخير ابتعادا من الشر وكفى

وليس الخير عجزا عن الشر وكفى

وليس الخير مخالفة للشر وكفى

كلا . بل الخير شىء قائم بذاته وليس قصاراه انه امتناع من شىء سواه

الخير هو القدرة على الحسن مع القدرة على القبيح ، وهو الاختيار المطلوب بعد التمييز بين القدرتين

ولهذا عرفنا من تاريخ الشيطان انه سقط لانه أنف من تفضيل آدم عليه وعلى الجان والملائكة أجمعين

وانما فضل آدم عليه لانه عرضة للخيروالشر ، ولانه مطالب بالخيرات وهو ممتحن بالشرور

فضل على الملائكة الذين لا يصنعون الشر لانهم بمنجاة من غوايته ، وفضل على الجان الذين لا يختارون بين نقيضين

ومن تلك الآونة عرفت وظيفة الشيطان فى هذا العالم وعرفت معها فضيلة الانسان

فانما وظيفة الشيطان أن يثبت عجز الانسان أمام الغواية والفتنة ، وأن يمتحن مشيئته وهو يتردد بين الخير والشر والمباح والحرام

وانما فضيلة الانسان أن يصنع خيرا وللشر عنده غوايةوله فى نفسه فتنة ، ولولا ذلك لما كان له فضل على الملائكة ولا على الجان

لا جرم كان تاريخ الشيطان تاريخا للاخلاق الحية فىوجدان آدم وبنيه



وتمتحن الاخلاق الحية بمحنة المعرفة والجهل كما تمتحن بمحنة الخير والشر والفضيلة والرذيلة

فمهما نتخيل من مخلوق قابل لان يعرف بعد جهل ويدرك بعد قصور فليس — غير الانسان — مصداق لذلك المخلوق

ليست الملائكة ولا الجان فى صورتها الحية مخلوقات نامية فى معرفتها ، عالمة ما تعلمه بعد جهله ، متقدمة من الطفولة

الى الرشد الى غاية المدى المقدور لكل مخلوق

ولكنها فى صورتها تعلم ما تعلمه كأنه من خصائص معدنها التى لا تفارقها ، فلا اجتهاد لها فيما تعلم ولا فوات على اجتهادها فيما تجهل ، وكل ما أوتيته من علم فلا حيلة لها ولا حول فيه، كلمعان النور ووهجان النار ، ولألاء الجوهر الصافى وجريان الماء وخفقان الهواء

ولا كذلك سليل التراب . انه ليعلم حتى لتعجب كيف علم، وانه ليجهل حتى لتعجب كيف جهل ، ومن كان قابلا لان يأتى بالعجب فى علمه وجهله فهو مسئول عن هذا وذاك

« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم ما لا تعلمون

« وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين

« قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم

« قال يا آدم انبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون

« واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين »

فليست القداسة أن تكون نورا وأنت نور ، وليس الفخار أن تكون نارا وأنت نار

وانما القداسة والفخار أن تكون نورا ونارا وأنت تراب ، وأن تسبح وتقدس وأنت قادر على الفساد والعدوان

وكلما ذكرت الاخلاق الحية فقد ذكر تاريخ الشيطان فى ثوب الحياة ، وقد ذكر تاريخ الغواية والحرية فيالمطاوعةوالاعتصام، وتلك هى الاخلاق الحية كما تعيش فى اللحم والدم وفى القيم والمزايا • فأما الاخلاق فى صفحات الورق وفى مصطلحات الباحثين فهى كلمات وحروف وأصداء

ولم يوجد النوع البشرى بصفاته وأخلاقه ليكتبها سطورا على صفحات ، ويجمعها أطروحة فى قاعة درس أو سفرا على الرف الى جانب أسفار

ولكنه وجد بصفاته وأخلاقه ليحياها ويعيش بين حقائقها ويعطيها الاسماء التى تدله على تلك الحقائق كما يستقبلها بحسه وشعوره ويواجهها برجائه وخوفه ، وباقباله ونفوره ، وينادى بالاسم من هذه الاسماء فلا يفهمه كما تفهم الكلمة عند المراجعة فى القواميس ، بل يفهمها حبا وبغضا ، وغبطة وندما ، ورضوانا وسخطا ، وحركة تنبض بها العروق ، وسرا يختلج فى الاعماق

وهكذا ينطبع الحى على صفاته وأخلاقه ، وهكذا تتعارف عليها الامم وهى تحيا وتعتلج بالحياة ، وهكذا تضطرب بين الاكوانالتى لا تحصرها الاوراق ولاتحدها الحروف ولا تحتويها العقول ، بل تجىء العقول طارئا عليها وضيفا فى رحابها ، وقد مضى عليها فى مكانها أدهار بعد أدهار ، وأسماء بعد أسماء ، ولغات بعد لغات

الشيطان !

أى مجموعة من الاسفار تؤدى للضمير ما تؤديه هذه الكلمة بقارعة واحدة تنفذ من الآذان الى الاعماق

والى اليوم يكتب الباحثون ألف مذهب ومذهب ، ويلحقون

بها ألف « لوجى ولوجى » على غرار السيكولوجى والبيولوجى والميثولوجى وغيرها من اللواحق فى الاواخر على اختلاف الصيغ واللغات

الى اليوم يفرقون بين الصفات والاخلاق بهذه المصطلحات فلا يبلغون بها فى الحس ولا فى الذهن ما بلغه المتكلمون بلغة الحياة ولغة الفطرة ولغة « الهيروغليفية » التى تسبق كل كتابة وتلحق بكل كتابة الى آخر الزمان

وقد سمعنا عن الصفات الالهية ، والصفات الملكية، والصفات الشيطانية ، والصفات الانسانية ، والصفات البهيمية ، والصفات السبعية ، فمن لم يفهم هذه العناوين بمدلولاتها الحية فما هو بفاهم شيئا من فوارق الاخلاق يشرحها له ألف عالم ويسجلها له ألف كتاب

ولمن شاء أن يرفع هذه الكلمات ويضع فى مواضعها كلمات الاصطلاح اللغوى أو الفلسفى من قبيل الاخلاق المثالية والاخلاق الاجتماعية والاخلاق النفعية وأخلاق التقدميين وأخلاق المحافظين، وما أشبه هذه الكلمات والمصطلحات ، فانه لا يحس منها الا أنها بطاقات معلقة على وجهات أو شواخص لانبض فيها ولا دم ولا حراك

ولكنه لأول وهلة يسمع الصفات الالهية فيفهم انها أعلى الصفات ويحس أنه يرتفع بالاتجاه اليها والرجاء فيها الى أعلى عليين ، ويستشرف لها بقلبه ويتفتح لها بمغاليق سريرته ، ويعرفها حقيقة حية ولا يكون قصاراه من معرفتها انها مادة فى معجم أو عنوان على مذهب أو اشارة مرور الى حيث يسير أو لا يسير

ولاول وهلة يسمع الصفات الملكية أو صفات الملائكة فيفهم

أنها الطيبة والطهارة والحب والسلامة ، ويقابلها فى الوقت نفسه بالحنين اليها لسلامتها ووداعتها والعطف عليهـا لخفاء الشر عليها واحتجاب أساليب الكيد والخداع عنها

ولاول وهلة يسمع الصفات الانسانية فيعرف منها ما يناقض البهيمية والسبعية ويقابل الالهية والملكية ، ويعرف فى الوقت نفسه ان الانسان قابل للطموح الى ما يعلو عليه والهبوط الى ما ينحدر دونه من صفات الكائنات جمعاء

ولاول وهلة يسمع الصفات الشيطانية فيفهم انه فى موقف احتراس وحذر وان لم يخل من تطلع فى أحيان ومن اعجاب فى أحيان أخرى ، ولا يضطر الى مراجعة اللغة أو مراجعة الحكمة ليفهم ما يحذره من الشيطان وما يستقبله منه بالفكر أو الوجدان ، فان هذه الكلمة تقع فى موقعها عنده كأنها نقلت اليه الشيء نفسه محسوسا ملموسا معقولا مدروسا، ولم تنقله منه باشارة أو عنوان

وقس على ذلك ما يفهمه من كلمات الصفات البهيميـة أو الصفات السبعية ، فانها كذلك تنقل اليه أشياء وأحياء ولا تنقل اليه حروفا وكلمات

ان خالق الكون لم يرد باعطاء النـاس حياتهم أن يعطيهم قاموسا أو موسوعة من العناوين والمصطلحات ، ففى وسعهم هم أن يعطوا أنفسهم هذه القواميس ، وقد أعطوا أنفسهم هذه القواميس فعلا فاذا هى أكثر الاشياء اختلافا بين قبيل وقبيل وبين أمة وأمة ، واذا هى برج بابل يمتد على كرة الارض ولا يزال أبدا فى حاجة الى ترجمان

ولو كانت هذه المدلولات فى اللغات هى الحقائق المقصودة لما كان للمدلول الواحد ألف كلمة فى كل لسان

ولكن هذا النوع الانسانى تلقى وجوده من خالقه حيـــاة تجيش فى ضمائره وفيما حوله بالحقائق الحية كائنا ما كانت أصداؤها فى عالم الحروف والرموز والاشـــــارات والكلمات والطلاسم أو فى « الهيروغليفية الكونية » على الاجمال

ومن شاء فليبادل ان كانت له الجرأة !

من شاء واستطاع فليعد بالانسان الى أولهلينتزعمنذاكرته ووجدانه كل ما أحسه وتعلمه من كلمة الشـــيطان أو كلمة الملك أو كلمة الخطيئة أو كلمة العصيان ، وليضع فى مكانهـا ما يقترحه فى تصريف اللغة ومصطلحاتها مفسرة ميسرةمحكمة مقسمة ، ولينظر ماذا صنع بالانسان فيما مضى وما يصنع به فيما بعد ، فانه قاتله وملقيه فى مقبرة من قاموسه الجليل

من كانت له الجرأة ، وكانت لديه القدرة ، فليبادل ولينظر فـــرق ما بين كلماته ومصـــطلحاته ومدلولاته وبين هـــذه « الهيروغليفية » الكونية التى هى الـكلام وهى متكلموه وهى المحسون به وفاهموه

وليقف خاشعا مستعيذا « بالشيطان » من الغرور

وليرجع فى أمان هذه « المعوذة » الى تاريخ الشيطان ليعلم منه تاريخ الاخلاق الحية وتاريخ الانسانية الخالدة

فاذا كان لا يدرك تاريخ الاخلاق الانسانية حقا وصدقا الا من تاريخ الشيطان فلا ينكرن هـذا الاسم ولا ينكرن وجوده من باب أولى

انه وجود أرسخ من وجود الانسان

ومن لم يكن فى وسعه أن يدرك ما وراء هذه الحقيقة فأحرى به ألا يتطفل على الوجود والعدم ، والحيــاة والموت ، والحق والباطل ، والعلانية والخفاء ، والظواهر والاسرار ، فكل أولئك

له معناه الذى لا يدركه ولا يدريه

وسنكتب فيما يلى تاريخ الشيطان لنستخرج منـــه تاريخ الاخلاق الانسانية كما تشخصت فى ثنية الحياة ، ونركب عليها بعد ذلك ما يوافقها أو يلافقها من مصطلحات القاموس !



الفصل الأول

* قبل الشيطان
* أنواع ودرجات فى الحرام والمحظور
* أنواع الشيطنة

قبل الشيطان

قبل شيوع صورة الشيطان كانت بديهة الانســـان تملأ العالم بأشتات لا تحصى من الارواح والاطياف

وكان من هذه الارواح والاطياف ما يخفى ولا يظهر لأحد ، ومنها ما يخفى على أناس ويظهر لآخرين بالرقى والعـــزائم ، ومنها ما يتلبس أحيانا بالاجسام ويظهر لكل من لقيه فى مأواه

ولم يكن الانسان يقسم هذه الارواح الى ذات خـــير وذات شر ، لانه لم يميز بين الخير والشر الا بعد معرفتـــه بصورة الشيطان كما تقدم

وانما كانت هذه الارواح تنقسم عنده الى أرواح مصادقةأو أرواح معادية ، والى أرواح نافعة أو أرواح ضارة ، والى أرواح سهلة أو أرواح عصية ، فلا فارق بينها عنده غير درجة الصلح والعداوة أو درجة الفائدة والأذى ، وأما طبيعة الخير وطبيعة الشر فقد جاءت بعد مراحل كثيرة فى طريق الايمان بالارواح

والاختلاف بين الشر والضرر بعيد

فالشر لا يصدر منه خير بارادته ، ولكن الضرر قد يصيب أناسا ولا يصيب آخرين ، وقد يأتى من عمل ولا يأتى من عمل غيره ، وقد يكون الضار بهذا نافعا لذاك ، فليست هناك طبيعة تســـوقه الى الشر فى جميع الاحوال بل هنـــاك احوال

متعددة وأعمال منوعة ، وشأن الارواح فى ذلك شأن الناس من حوله بين قوم من قبيلة وقوم من أعدائها ، أو بين قوم من خاصته فى القبيلة وقوم ينفر منهم وينفرون منه لاسباب عارضة أو باقية لا ترجع الى أصالة فى الطباع

وقد يصح تشبيه عالم الارواح عنده بعالم الغـــاب أو عالم السباع والحيوان

فالغاب فيها النمر والثعبان ، وفيها البلبل والعصفور ،ومن حيوانها ما يأمنه ولا يخشاه ، وقد يتألفه ويســـــتخدمه فى مصالحه ويشركه فى مسكنه ، وقد يكون عنده الكلب الانيس وفى الخلاء الكلب المستوحش العقور ، وقد يكون عنده الحصان الداجن وفى الخلاء الحصان الجامح الذى لا نفع منه ولا ضرر ، وجملة الفوارق بينها مسألة أحوال وأحيان أو أحوال رياضة واستعصاء

وهكذا كان عالم الارواح فى الهمجية الاولى : كان عالم فائدة وضرر ، أو عالم هوادة واستعصاء ، أو عالم صداقة وعداوة ، فأما عالم الخير الاصيل أو عالم الشر الاصيل فلا تتمثل له صورة فى بديهة الانســـــان قبل انقسام الطبائع وتباين الاقيســـــة والموازين بين الاعمال والاخلاق

ويدل على أصالة الايمان بالارواح فى بديهة الانسان انهـــا وجدت فى كل سلالة بشرية من الســــلالات التى نشأت فى القارات المتقاربة فتعلم بعضها من بعض فى مسائل الدنيـــا والدين ، أو من السلالات التى وجدت فى الامريكتين منعزلة منذ أدهار لا تعرف لها بداءة ، فهى لم تتعلم تلك العقائد من غيرها ولم ترجع بها الى مصدر معروف فى العالم القديم

ووجدت هذه العقيدة على أكثرها فى الجزر الاســـــترالية

المتباعدة ، كما وجدت عند حوض الامازون فيأمريكا الجنوبية، أو وجدت في أفريقية الجنوبية أو الشرقية التي يقال انها مهد الجنس البشرى قبل سائر القارات ، ويقال مع ذلك انها تلقت أفواج المهاجرين من الجنس القفقازى قبل فجر التاريخ

والمهم في هذا الشيوع أنه أصيل في البداهة الانسانيةوانه لم يكن من تدجيل الكهان والسحرة كما يخطر لمن يسهل عليهم أن يفسروا كل شيء بالدجل والخداع

ويكاد الشبه بين الارواح في القارات المتبـــاعدة أن يكون أقرب من الشبه بين الآدميين أنفسهم في تلك القارات ،فالكائن الروحي في الجزر الاسترالية أشبه بالكائن الروحي في أمريكا الجنوبية من الامريكيين الاصلاء والاستراليين الاصلاء ، وليس بين روح وروح في الاقطار المتنائية ذلك الاختلاف الذىيعترى الالوان والاشكال من فعل الجو والتربة والماء والهواء ، فانك قد تنقل الاسترالى من الجزر الى أمريكا الجنوبية فيشعر فيهـــا بالغربة ويريبه من قومها ما يريبـــه من الغرباء ، ولكنك اذا نقلت روحا من هناك الى هنا أو من هنا الى هناك لم تجده على غرابة في عالم الارواح ولم تكن بينه وبين العالم الذى انتقل اليه فجوة من الجنس واللون واللغة أبعد من الفجوة التى بينه وبين سائر الارواح في وطنه الاصيل ، وانها لظاهرة جديرة بالتنبه لها والتوقف عندها فى علم المقارنة بين الاديان ، لانها قد تفضى بنا الى الوقوف على سليقة دينية شديدة التقارب بين الاجناس والاقوام ، وليس مصدرها من الخيال وحـــده لان مخلوقات الخيالوحده بعيدة الفوارق بينأساطير الامم فيالاقليم الواحد فضلا عن شتى الاقاليم

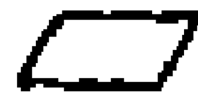
وقد كتب الرحالون والبحاثون عن القبـــائل الفطرية التى

وجدوها فى القارات الخمس خلال رحلاتهم اليها منذ أوائل القرن الثامن عشر الذى نشأت فيه علوم المقابلة بين العقائد والسلالات ، فاذا قدرنا انها تغيرت مع الزمن منذ النشأة الاولى قبل عشرات الالوف من السنين ، ورأينا بعد هذا التغيير مقدار التشابه بينها فى العصر الحاضر كان هذا التشابه حقا أجدر شيء من الباحثين بالالتفات اليه ، لانه دليل على أن وحدة السليقة الدينية أقرب جدا من وحدة القريحة والخيال ، اذ ليست أساطير الفنون على درجة من التشابه تقارب ذلك التشابه بين الارواح والاطياف فى الاديان والمعتقدات

ان الدين أعمق فى كيان الانسان من الخيال الذى يولد الاساطير ويخلق أشباح الفنون ، وقد يكون التقارب بين الاصلاء من الافريقيين والامريكيين والاوربيين والاستراليين ملحوظا فى تقارب الاوصاف بين الارواح والاطياف حيث لا يلحظ التقارب بين المصنوعات اليدوية نفسها من الادوات وآنية الفخار ، وهى المصنوعات التى تقاس بها طبقات العصور ويحسبها الكثيرون على مثال واحد فى كل عصر من العصور الحجرية أو عصور المرعى أو العصور النحاسية ، ولكنها على كونها محسوسة يحكمها النظر واللمس وتوحى بها المنفعة والحاجة المتكررة لم تبلغ من التقارب والتشابه ما قد بلغته ملامح الارواح والاطياف

وقد تخصص لكل أقليم من أقاليم القارات رحالون مستقلون فى دراساتهم للاحياء وتنقيبهم عن الآثار ، فيكتب عن الجزر الاسترالية أناس غير الذين يكتبون عن القارة الافريقية، ويكتب عن سهوب آسيا الشمالية طائفة غير هؤلاء ، فهم لا ينقلون بعضهم من بعض ولا يرجع بعضهم الى بعض فى تسجيل المشاهدات واثبات الكشوف التاريخية ، ولكنهم يعرفون

المشابهة بين العقائد حين يرجعون الى المقــارنة والمقــابلة ويستخلصون منها مايستخلصون من وحدة الاصول



ولهــذه المشابهــات يقرأ القارىء عن «أرواح» اقليم من الاقاليم فلا يضيره كثيرا أن يخطىء فيحسبها أرواح اقليم آخر، لانها بمثابة النبات الذى يصح زرعه على طول السنة فى جميع الارضين ، فيزرع فى هذا الموسم أو ذاك ، وفى هذه البقعة أو تلك ، بغير اختلاف كبير فى طريقة الفلاحة والحصاد

يقول بارندر « Parrinder » فى كتابه عن النحل التقليدية فى أفريقية : « ان الارواح يمكن أن تتخذ مساكنها فى كل شىء من أشياء الطبيعة : على كل قمة وفى ظل كل شجرة خضراء ، وان التلال والصخور البارزة أحرى أن تكون مأوى للارواح القوية »

الى أن يقول : « وفى الآجام المتشــابكة العميقــة تســكن الارواح والاطياف ذوات الخطر والاذى ••• وحيوانات الغاب ـ أو سكان الارض ـ كثير منها حرام على هذه القبيلة أو تلك••• فاذا قتل أحدها وجبت الترضية له أو يظل فى مطاردة القاتل طيفا لا يفر منه »

ويقول شارل واجلى « Wagley » فى كتابه عن « بلدة الامازون » من أمريكا الجنوبية : « ان بعض القردة تخاف فى أعماق الغاب وتحسب قردة الجريبه « Guariba » آفة سحرية وبيلة ، وبعضها له قدرة على اختلاس ظل الانسان•••وأشهر أطياف الغاب وأرواحهــا الكاروبيرا التى تشبه انســانا قزما ويقال ان أقدامها ملتفتة الى ورائها ، وهى تعيش فى أعمــاق الغاب ومنها تسمع صرخاتها الطويلة المزعجة،ويقال انها مغرمة

بشراب الروم والتدخين ...

ثم يقول : وطيف آخر من الاطياف الخطرة يدعى «ماتن تابريرا» يظهر في المدن ولا يظهر كالاطياف الاخرى فى الغابات والانهار .. وأصل الاعتقاد فيه على ما يظهر منقول من الديار الاوربية

ويتكلم مالنوسكى « Malinowsky » علامة الدراسات الانسانية عن الجزر الاسترالية فيروى قصة الروح التى تسمى عندهم «بلوما» وتذهب بعد مفارقة الجسد الى جزيرة أخرى كأنها العالم الآخر . وهم يعتقدون ان الاشياء لها أرواح تنتقل منها الى حيث تسكن أرواح الموتى ، فيزينون جسد الميت بكل ما كان يزدان به فى الحياة ليجرد منه روحه ويبقى بقيته المحسوسة ، وقد يظهر للميت طيف يسمى «كوسى» يخاف لقاؤه ولكنه يداعب الناس ولا يبالغ فى ايذائهم ، وحيثما سمع صياحه وجبت له الترضية والمبالاة ، وقد يخشى القوم هناك أطيافا أخرى لها علاقة بأرواح الموتى يتخيلونها دائما في صورة العجائز القباح وقد يشيرون الى عجوز حية معروفة فيقولون عنها أنها قد أصبحت واحدة من تلك الاطياف ذات العلاقة بالموتى، وانها تعاشرهم بقوة السحر وحيل التعاويذ

وأفضل المراجع التى يعتمد عليها فى فهم العقائد البدائية تلك الرحلات التى يكتبها طائفة من العلماء عاشوا بين القبائل واختلطوا بها فى جميع أطوار معيشتها فعرفوا عاداتها بالمعاشرة على فطرتها ولم يعرفوها بالسؤال والتحقيق على منوال الرحالين الذين يذهبون اليها لدراسة علم الاجناس أو تطبيقه عليها

ومن هؤلاء العلماء الذين عاشوا زمنا بين القبائل فى أفريقية الوسطى الطبيب المشهور «البرت شويتزر» صاحب جائزة نوبل

منذ خمس سنوات ، ويؤخذ من مذكراته أن أخوف المحظورات عندها هى التى ترتبط بأهم المراحل فى حياة الانسان ، وهى الولادة والمراهقة والموت ، فقبل الولادة تطيف الارواح بالأب وتلقنه في الرؤيا أو الايحاء أسماء الاشياء التى ينبغى للوليد أن يتجنبها فى حياته والا أصابه الاذى من الارواح المطيفة بالمكان ، وعند المراهقة يحاط الصبية بالمراسم والعبادات التى تفرضها كل بيئة على حسبها • وأشق ماعاناه الطبيب من عادات القوم حذرهم من مقاربة أجساد الموتى وهو محتاج فى مستشفاه على الدوام الى حمل هذه الاجساد ومواراتها

ويؤخذ من مشاهدات هذا الطبيب فى جواره أن المحظورات خاصة وعامة ، فمنها ما يحرم على انسان واحد ولا يحرم على غيره حسبما جاءه الوحى من أبيه أو كاهنه ، ومنها ما يعم القبيلة جميعا ولا يستثنى فيه أحد منها ، ويقول الطبيب أن بعض المنذورين لهذه المحرمات قد تأتى شفاؤهم من الوهم الذى غلب عليهم بعد انذارهم بتحريم بعض المطاعم واجتناب بعض الادوات فاجترأوا على مخالفة المحظور وسلموا من العاقبة ولكنهم تخلصوا من عقيدة بعيدة ورسخ فى اخلادهم أن الروح الذى أطلقهم من عقال المحظور أقوى من الروح الذى حظره عليهم ، فهو لايستطيع أن يتعقبهم بالاذى وان خالفوه جهرة ، لأنهم دخلوا فى حماية روح آخر أقوى وأعظم وأحرى بالمبالاة والاتباع

وقد دخلت هذه الارواح والمحظورات فى حساب السياسة كما دخلت فى حساب العلم ، فقررت اللجنة البرلمانية التى أوفدتها الحكومة الى أفريقية الشرقية لتحقيق أسباب الثورة فيها ان « دراسة النفسية » التى تنطوى عليها عبادات جماعة

الماو ماو ضرورية لاستقصاء أسباب السخط وعوامل الثورة ، وعقب الاستاذ ماكس جلكمان « Gluckman » على هذا التقرير بفصل مجمل عن أصول العقيدة بين القبائل ، فروى عنها انها تؤمن باله عظيم خلق العالم ثم تنحى عنه ، وأنه سمع من أناس في قبيلة الباوروتس « Barotse » على نهر الزمبيزى الاعلى أن الاله تخلى عن الارض ولاذ بالسماء حيرة من كيد الناس وشطارتهم وأفانين احتيالهم ، ولم يبق لهذا الاله الآن من عمل يستطيعه مع البشر غير مجرد العلم بأخبارهم ، فهم يقولون كلما سألتهم عن مكان بعيد أن الاله نيامبى « Nyambe » أعلم وأدرى ، ويدعى زعماء القبيلة أنهم ينتمون الى هذا الاله من ذريته التى ولدتها له بنته قبل أحد عشر جيلا فملكت على القوم فى مكانه ، وهذا سر من أسرار الطاعة للزعماء والثورة على الاجانب والمستعمرين



ويرى جلكمان أن المراسم والشعائر حلت بين القبائل لافريقية محل الصلوات المكتوبة والفرائض المسجلة ، لانعدام لكتابة فى تلك القبائل ، فكل علاقة لها شعائرها ومراسمها كل حركة تتحركها القبيلة كلها أو بعض أفرادها طلبا للصيد و انتجاعا للمرعى أو زحفا للغارة على عدوها تتطلب منها لزلفى الى بعض الارواح والحذر من بعض الارواح الاخرى تلجئها الى اتخاذ المراسم والشعائر المتوارثة فى أجدادها

وكل ما يصيب الانسان فهو من كيد روح أودسيسة ساحر من عالم « وراء الطبيعة » على الاجمال • فاذا وطىء فيل سانا فقتله فالافريقى يفهم أن قوة الفيل أكبر من قوة الانسان لهذا استطاع قتله ، ولكنه يسأل بعد ذلك : لماذا كان هذا

الانسان هو المقتول ولم يكن انسانا غيره ؟ أليس هناك سر يرجع الى تدبير ساحر أو نقمة روح غاضب او مشيئة كائن مما وراء الطبيعة ؟· وهكذا تلتقى الاسباب الطبيعية المعروفة بالاسباب المجهولة مما وراء الطبيعة ، ولا يحس الانسان السلامة من الكائنات المحجوبة بحال من الاحوال

وقد تزول العقائد بانقضاء الزمن عليها ولا يزول السحر وأساليبه الموافقة والمضادة التى تلجىء الافريقى من ساحر الى ساحر ليبطل رقيته ويفسد مكيدته ، فلا ملاذ عندهم من السحر الا الى سحر مثله أو أشد منه ، ولاتعليل عندهم لمصيبة يبتلون بها الا أن تكون من كراهية عدو يستعين بالسحرة ويستمد قدرته على النكاية من الارواح (١)



وقد حاول الرحالون والباحثون فى الاجناس البشرية أن يرجعوا بالاعتقاد فى الارواح الى مصدر مفهوم فلم يتفقوا على مصدر واحد ولم يصلوا الى قول متفق عليه يصلح لتفسير كل حالة وتعليل كل عقيدة

فمنهم من يرجع بعقيدة الارواح الى الاطياف التى يراها الهمجى فى منامه ، والى الاحلام التى يرى فيها أنه انتقل الى مكان بعيد وهو لم يبرح مرقده فى بيته ، فيخيل اليه أن الاطياف تتحرك فى الظلام وتترك الاجساد اذا هدأت حركتها لتجول هنا وهناك حيث تشاء ، وأن الذى يحدث فى حالة النوم يحدث فى حالة الموت فيسكن الجسد ويبلى ويتحرك الروح الذى فارقه بفراق الحياة

---

(١) من فصل فى مجلة Listener اللندنية الصادر فى ٢٩ ابريل سنة ١٩٥٤

ومنهم من يرجع بهذه العقيدة الى طبيعة الاستحياء أى الى الطبيعة التى تخيل الى الهمجى أن الاشياء ذات حياة مثله فيعاملها كما يعامل الاحياء ويرضى عنها أو يغضب عليها كالطفل الذى يضرب الارض اذا صدمته حين يسقط عليها ، أو يشعر بالراحة حين نضرب الارض أمامه ونعاقبها بجريرة سقوطه عليها واصابته من صدمتها

وتتمكن هذه العقيدة فى خيال الهمجى مع نقص اللغة وخلطه بين الحقيقة والمجاز فى تعبيراتها ، فاذا سمع أن الارض ولدت عيون الماء وأن أباها انحدر من سحاب السماء لم تزل هذه الصورة تتجسم مع الزمن حتى تنشأ منها أسرة لها أب وأم وأبناء ، ولها مشيئة يلقاها بالتوسل والرجاء أو بالسخط والاعراض

ومنهم من يرجع بعقيدة الارواح الى عبادة الاسلاف بعد الموت ، وقد يحدث أن يسمى السلف باسم حيوان كالاسد أو النمر أو الثعلب أو النسر أو الصقر فيحسب أبناؤه مع طول الزمن انهم تحدروا من ذلك الحيوان ويجعلون له قداسة مرعية توجب عليهم أن يحرموا قتله وأن يتوقعوا الضرر والسقم اذا قتله أحد منهم أو من غيرهم ولم يأخذوا بثأره

ويكاد علماء الاجناس والعادات البشرية ان يجمعوا على ايمان القبائل الفطرية باله واحد أكبر من هذه الارواح المتعددة وأخفى منها فى ظواهر الطبيعة

وقد تقدم من كلام جلكمان أن القبائل فى افريقية الشرقية تؤمن بالاله نيامبى الذى ارتقى الى السماء حيرة من كيد الناس وشطارتهم وأفانين احتيالهم ، وهذه العقيدة على الارجح من بقايا عبادة الاسلاف التى يختلط فيها التاريخ بالخرافة ،

وأصلها على هذا الظن متصل بوحدة القبائل فى جدها الاعلى ، فهو ربها جميعاحيثما اختلفتأربابها وتعددت الارواح المسيطرة عليها ، وقد جردوه من القدرة وتركوا له صفة العلم والدراية كأنه الاب الشيخ الذى اعتزل العمل والقتالفلا طاقة له بمنع العداوة بين ذريته من القبائل المختلفة

ولم ينفرد جلكمان بقصة هذا الاله الواحـد الذى تشترك فيه القبائل المختلفة فى افريقية الشرقية ، فان الرحالينجميعا متفقون على ايمان القبائل الاسترالية برب فوقالارباب يسمى «نانا» أو يسمى بأبى الجميع « All father » على مثال نيامبى فى القبائل الافريقية

ويتفق الرحالون كـذلك على ايمان الاقزام الافريقيين برب فوق الارباب تشترك فيه القبائل وانتعذر عليها الوفاق فيما بينها ، ولم يجد علماء الاجناس قبيلة فطرية بلغت من ارتقاء الادراك أن تؤمن بالتوحيد على صورته المثلى ، ولكنهـا تقترب من هذه الصورة كلما ارتقت من فوضى العقيدة الى مرتبة أعلى وأجمع من مراتب النظام



وليس الهمجى جبانا فان الجبن بين الاخطار المحدقة به أضر به من الشجاعة ، وقد عودته مواجهـة السباع والحيـــاة أن يواجهها علانية وأن يصارعها وينصب لها الاحابيل ويستخدم السلاح المستطاعفيما يعييه أن يتغلب عليه بالمصارعة ، ولكنه بين الارواح والاطياف أمام خطر مستور لا يدرى منأين يأتيه ولا تكون الغلبة عليه بقوة البدن والسلاح ، ولعله لا يريد أن يتغلب عليـه لأنه عنـده فى حـكم الاب أو الرئيس المطاع ، ورياضته بالحيلة أولى من التصدى له بالاسلحة والفخاخ

ولا بد من مواجهة تلك الارواح والاطياف بما يكف غضبها ويدفع أذاها ويستجلب رضاها

ولا بد مما ليس منه بد في النهاية ، فأما السكوت عنها فلا يطاق ، وأما الصراع معها فلا يجدي فيه البأس ولا تصلح له الشجاعة ، فكانت حيلة السحر هي الحيلة التي انتهى اليها ولم يكن له بد منها بحال

وتخصص السحرة لرياضة هذه القوى التي لاترضى بالايدى والهراوات أو الحراب

وظهرت البداهة الانسانية في هذا التخصص كماتظهر عند الاضطرار اليها فى توزيع جمع الاعمال

فلم يكن السحرة المتخصصون لرياضة الارواح والاطياف أناسا ممتلئين بالحياة صالحين للكر والفروالصيد واقتناء النسوة وانجاب الاولاد ، بل كانوا على نقيض ذلك أمساخا عزلتهم الحياة أو انعزلوا بعد اليأس من مجاراتها فى مطالبها ، ولاح بينهم وبين عالم الخفاء شبه مناسب يعقد بينهما العلاقات الغامضة ويقرب لهما وسائل التفاهم ، ويوقع فى النفوس أثرا واحدا من التوجس والتساؤل والريب فيما وراء الظواهر والمألوفات

وقد شهد الدكتور شويتزر « Schweitzer » ترشيح بعض السحرة وقال فى مذكراته الأفريقية : « ان الدميم السيىء لا مطمع له فى الحصول على امرأة يتزوجها ، فان كبراءه لايشترون له امرأة لنفورهم منه ، ويكون أبوه قد مات فيمتلىء بالمرارة ويتحول الى السحر للانتقام من قومه »

وقالت الدكتورة روث فلتون بنديكت « Benedict » أن بعض قبائل كليفورنيا من الهنود الحمر يتطلبون علم الغيب ممن

يصابون بالصرع ويتعرضون للغيبوبة فى بعض نوباته ، وانهم يفضلون النسوة المصروعات ولكنهم لايقصرون الكهانة عليهن، وقد يكون الرجل المختار متأنثا بطبعه لايصلح للزواج ويلبس لباس النساء مدى الحياة (١)

ووصف الاب هنرى كلوى « Callawey » برنامج اعداد الساحر لوظيفته فقال انه قد يبدو فى أول الامر قويا سليما ولكنه يهزل شيئا فشيئا ويصبح فى عرف القوم « ناعما » ويعنون بذلك أنه يصبح عرضة للانفعال والتأثر ويصوم عن بعض الاطعمة ويتأذى ببعضها وتطرقه الارواح والاطياف فى منامه ويهدده بعضها بالموت ، ويقول العرافون أنه يوشك أن يملكه روح تتصرف به على حكم الارواح ، وفى هـــذه الحالة يصاب أهل القرية بالارق ويتساءلون عما أصابهم لأن وصول الساحر الى منزلة « الانيانجا » أى الملهم المكشوف عنه الحجاب حالة لا تمر فى المكان بسلام (٢)

ولا تنفصل وظيفة الكاهن ووظيفة الساحر فى مبدأ الامر، فالكاهن الذى يقوم بمراسم العبادة ، هو الساحر الذى يدفع أذى الارواح والاطياف ويستجلب رضاها ويسخرها فى المآرب التى يختارها ، ثم ينفصلان شيئا فشيئا فيصبح عمل الكاهن غير عمل الساحر أو يجمع الرجل الواحد بين الوظيفتين ولكنهم يقصدونه لكهانته فى أغراض معلومة ويقصدونه لسحره فى غير تلك الاغراض

---

(١) كتاب الوان من الثقافة « Patterns of Culture »

(٢) ديانات الامازولو « Religious Systems of the Amasulu »

والغالب أن السحر يراد لمصلحة خاصة أو لالحاق الضرر ببعض الاعداء ويعمد فيه الساحر الى الوسائل الخبيثة ولا يكون عاما شامل النفع فى جميع الاحوال ، وتستخدم فيه أرواح منقطعة للأذى والضرر تعودت أن تتآمر على النكاية والنقمة وأن تستجيب لمن يؤدى لها الاجر ويتقدم لها بمراسم الشعوذة والاعمال الخفية

ويلاحظ أن الكاهن قد يكون رئيسا للقوم وكاهنا يؤمهم فى الصلاة والعبادة فى وقت واحد ، ولكن الساحر لا يصل الى هذه المكانة الا أن يكون السحر عملا مضافا الىالكهانة أو فرعا من فروعها التى لا ترتقى الى مرتبة الصدارة

ويلاحظ كذلك أن السحرة مشوهون أو مصابون بالآفات ، وأن أدوار النساء العجائز بينهم شائعة غيرمهملة ، وكلهم بين رجال ونساء غير أهل لحياة القوة والصلابة والمتعة والظهور ، وكأنما السحر لديهم عوض عن نصيب مفقود

وليست الكهانة على الجملة من هذا القبيل ، فان الكاهن قد يكون من أقدر الناس على الجد والوجاهة والمتعة بالرغد والملذات

ويسبق الى الظن أن السحر والكهانة كلها خداع فى خداع من تلفيق السحرة والكهان ، ولكنه ظن خاطىء غير معقول ، لأن السحرة والكهان على اتصافهم بالذكاء والدهاء قد نشأوا بين أقوام توارثوا العقائد واحتفظوا بكثير من العادات التى توهموا أنها كانت نافعة لمن قبلهم وأنها تنفعهم اليوم اذا أحاطوا بعلمها وحذقوا تجاربها ، وربما لام الساحر نفسه اذا قصر فى بلوغ ما يطلبونه منه واجتهد فى علاج ذلك القصور بتكرار التجربة أو سؤال الاقدمين الذين سبقوه فى الصناعة،

وهو بطبيعة عمله لا يستغنى عن الخداع والتلبيس فى معاملة قومه ، ولكنه لم يكن قط خادعا فى كل شيء ولا يزال خادعا مخدوعا فى جوهر السحر كله ، وهو الايمان بفعل الطلاسم وقوة الارواح

وكلما انفرجت المسافة بين وظيفة الدين ووظيفة السحر ترقى الانسان الفطرى من فوضى الارواح والارباب ونبذ التسوية بينها وتعود التفرقة بينها فيما يطلبه منها ، فمنها مايقصده للنفع كما يقصده جميع أبناء القبيلة ، ومنها مايقصده ليتواطأ معه على الاجرام والنكاية كأنه بعض الشطار الذين يعيشون اليوم بتأجير أنفسهم للنكاية والعدوان

ويحدث فى هذا الطور من التمييز بين الارواح والاطياف أن تعرف بأسماء وتوسم بملامح وتتلبس « بشخصيات » وتتخصص كل « شخصية » منها لرسالة تتجرد لها وتقدر عليها حيث لا يقدر سواها

وفى هذا الطور ، أو هذه المرحلة ، يتهيأ الذهن للتمييز بين عمل الاله وعمل الشيطان

أنواع ودرجات
فى الحرام والمحظور

تكاد المحرمات فى القبائل البدائية أن تربى على المباحات والمحللات. لان المحرمات تشمل القداسة والنجاسة والعصيان والاحتقار والاستقذار . فهناك أمور محرمة لانهاعظيمة مبجلة، وأمور محرمة لانها نجسة أو مشؤومة ، وأمور محرمة لان اتيانها عصيان لرب معبود أو روح قدير ، وأمور محرمة لانها تحتقر وتعاف

وعدد هذه المحرمات فى جملتها كثير يكاد يشمل كل عمل يزاوله الانسان الفطرى ، بل ربما كان المباح نفسه داخلا فى التحريم على وجه من الوجوه ، لانه لا يباح الا بصلوات وشعائر يعرفها الخبراء ولا تعم معرفتها كل أحد ، كالصيد والزرع والحصاد وما شابهها من أعمال الجماعة أو الفرد ، فان الخوف من الاقدام عليها بغير صلواتها ورسومها يجعلها فى حساب المحظورات

وقد ترقى الانسان وترقت معه اللغة ولم تزل فى تعبيراته آثار للتقابل بين القداسة والنجاسة فى الممنوعات ، فكلمةالحرمة فى اللغة العربية تدل على الشىء العزيز العظيم الذى يصان ويحمى بالارواح والاموال ، وقد يشمل الحرام كل اثم يعاب أو يعاف

وكلمة المنيع أو الممنوع تدل على القوة والرعاية كما تدل على

الرذيلة التى يجب على المرء أن يمتنع عنها ولا يقترب منها

وكلمة القديسين والقديسات كانت تطلق عند البابليين والكنعانيين على الذكور والاناث الذين ينصبون أنفسهم للبغاءفى حرم الربة «عشتروت» أوالسارية ، وقد ترجمت هذهالكلمة فى كتب العهد القديم بكلمة المأبونين والزانيات ، وهى فى الاصل من القديش أو المقدس ، ويقال عن الربة نفسها أنها كانت خليلة الارباب ولدت منهم سبعين الها « ايليم »

وفى القبائل البدائية ثلاثة انواع من المحرمات المقدسة وهى « الطوطم » والوثن أو التعويذة ، والتابو أو الحرام الممنوع

فالطوطم « Totem » هو الحيوان الذى تحرم القبيلة قتاله وصيده لاعتقادها أنها تناسلت منه أو لانها ترمز به الىمعبودها واصل وجودها

والوثن أو التعويذة ــ وهو الذى اصطلح علماء الاجناسعلى تسميته بالفتيش « Fetish » ــ شيء جامد مصنوع أو طبيعى يحمل فى أطوائه روحا لها حق الرعاية والتوقير ، ومنها يستمد المرء حماية ومنعة مادام على شرعتها فى المباحات والمحظورات ، وقد يكون الوثن صورة او حجرا أو حصاة أو قطعة من جذع شجرة أو ألفافا من الشعر وعروق الشجر وما اليها ، يصنعها السحرة أو يصنعها الكبار للصغار

والمحظور التابى اقل درجة من الطواطم والاوثان ، لانه قد يتفرق ويتخصص فيكون حراماعندبعض الناسحلالا لغيرهمفى البيئة الواحدة ، بلقديكون مستحبا مطلوبا لمئات من الناسولا تحريم فيهعلى غير آحاد معدودين . وقد روى الدكتورشويتزر ضروبا من هذه المحظورات لا مرجع لها غير التحكم من بعض الارواح المزعومة التى تكشف عن ارادتها قبل وضع الجنين ،

فتخبر أباه فى الرؤيا باسم « التابو » الممنوع على الوليد ، فمن هذه المحظورات أكل بعض الطلح أو البذور ، ومنها ضرب الوليد على ظهره ، ومنها حمل المكنسة أو بعض الآنية ، ولا تكذب النبوءات فى شأن « التابو » بل يصدقها القوم كل التصديق حتى لتقبل عقولهم أن الوليد يولد ذكرا ثم يتحول الى أنثى اذا خولفت نبوءة أو علامة مرصودة ، ويفعل الوهم هنا فعله القاتل الذى لا تجدى فيه النصيحة ولا الاقناع ، ففى ناحية « سمكينا » رأى الطبيب صبيا فى مدرسة البعثة أنبأه رفاقه أنه أكل من أناء طبخ فيه الطلح قبل ذلك ولم يغسل ، وكان الطلح محظورا على الصبى بنبوءة آبائه ، فلم يكد الصبى يسمع الخبر حتى تشنجت عضلاته ولزمه التشنج الى أن مات بعد ساعات

وتحيط هذه التابوات كثيرا بعلاقات الجنسين وبلوغ سن المراهقة فى الذكور والاناث ، فيندر بين قبائل الارض البدائية أن ترى قبيلة خلت من مراسم المراهقة ومحظوراتها الكثيرة ، فتعزل الفتاة ولا تكلم أحدا غير أمها أو لا تكلمها الا بصوت خفيض ، ويؤخذ الصبى بعيدا من بيته ليغسل فى العيون المقدسة من روائح الانوثة التى لصقت به من مصاحبة أمه ، ويجرى له الكهان أو كبراء السن شعائر الفطام ، ومنها فى بعض قبائل الهنود الحمر أن يفارق أمه زمنا أو يدخل الكوخ وهى مستلقية على بابه فيطأ على بطنها علامة الانفصال فى موضع حمله حيث اختلط بجوف الانثى وهو جنين

وتدل الشعائر الموروثة منذ القدم على جهل مطبق بأسرار الجنس والولادة ، وربما تبين من تلك الشعائر أنهم ينوطون نسبة الابن الى أبيه بالمراسم والشعائر ولا يعتقدون أن مجرد

الاتصال بين ذكر وأنثى يحقق الولادة والنسبة الى الآباء ،ففى بعض القبائل يفرض العرف على الرجل أن يقدم زوجته لضيفه الغريب ولا يمنعه ذلك أن ينسب أبناءها جميعا اليه ، لانه هو الذى جرت بينه وبينها مراسم الزواج

ولا يعجبن أبناء هذا العصر من تلك الخرافات التى تحيط بالجنس ومراسم النسبة بين الابناء والآباء ، ففى عصرنا هذا من يعتقد أن الولد من نسل الشيطان اذا ولد من غير زواج مشروع ، وقد صدرت المنشورات من رجال الدولة ورجال الدين بعد كشف أمريكا الجنوبية وشيوع الامراض الزهرية فى العائدين منها ، فكان فحواها جميعا أنها عقوبة على خطايا الشيطان ، ولما انتشرت عدواه بين المتزوجين والمتزوجات فى أواخر القرن الخامس عشر أصدر الامبراطور مكسميليان منشورا ندد فيه بالحضارة وأنذرهم بالتوبة أو تدوم هذه الضربة السماوية عقوبة لهم على العصيان (١)



وتتفق جميع المحرمات البدائية على تفنيد مذهب المؤرخين الذين يقولون عن الديانات ومحرماتها ومباحاتها أنها حيطة اجتماعية تهتدى اليهابديهة المجتمع لمنع الجرائم ومعاقبة المجرمين وحماية الابرياء من عدوان المجرم والاجرام ، فكل هذه المحرمات انما ترجع الى شيء واحد وهو اغضاب رب أو روح وتخطى الحدود التى تمنعها الارباب أو الارواح ، ولها كلها علاقة بعالم الخفايا والاسرار وما نسميه اليوم بعالم ما وراء المادة لانه لا ينحصر فى المحسوسات المادية • وأما الجرائم وعقوباتها فهى

(١) كتاب الشياطين والعقاقير والاطباء لمؤلفه هوارد هجارد
« Devils, Drugs and Doctors », by Haggard

أعمال مفهومة مقصودة ترجع الى الاسباب الطبيعية التى يحيط بها علم الانسان كما تحيط بها ارادته ، وهى تعالج بالقصاص المقدر وبالثأر والانتقام وأداء الغرامة والدية ، بل يستمد الثأر قوته أحيانا من عالم الروح ، كما يقال عن روح القتيل فى قبائل الجاهلية العربية أنها لا تزال هائمة مقيدة بجانب القتيل تنادى العابرين بها : « اسقونى أسقونى » حتى يؤخذ بالثأر فتشعر بالرى وتستريح ، فليست المحرمات الدينية هى التى تتوقف على مطالب القصاص وقوانين الجزاء بل هذه المطالب هى التى تتوقف أحيانا على عالم الاسرار والارواح

وقد ثبت من أطوار المحرمات فى القبائل عامة أنها تتقدم مع تقدم الانسان فى ثلاثة أدوار متشابهة

فالطور الاول أن تترقى من الحدود المحلية الى حدود عالمية أو كونية تشمل السماوات والارضين ، فبعد الرب الذى يسيطر على ينبوع ماء أو شجرة فى غابة أو بقعة فى جهة من جهات الاقليم يترقى الانسان الى فهم الرب الذى يسيطر على السحب والانهار وأفلاك السماء ، وكلما أدرك القوانين التى تربط الطبيعة بنظام واحد ترقى ادراكه لقدرة الرب الذى يملك زمامها ويصلى له المصلون لاجرائها فى مجراها المطلوب وتحويلها عن المجرى الذى يحذرون عقباه

ويقترن بهذا الطور ، أو يأتى بعده ، طور التمييز الواضح بين عمل الدين والعبادة وعمل السحر والطلاسم السحرية ، فلا يستطيع الساحر ما يستطيعه الكاهن ، ولا يقصد الكهان عامة فيما يقصد فيه السحرة عامة ، وربما تولى الوظيفتين رجل واحد ولكنه وهو كاهن انما يتوسل الى الآلهة ويتحرى رضاها بالصلوات التى يحسنها دون غيره ، أما وهو ساحر

فهو يسخر الارواح أو يعاملها على أساس التواطؤ والتعاون على العمل الكريه الذى ينفر منه المشتركون فيه ولا يجهرون بسره عن رضى واختيار

وكلما اتضح التمييز بين العبادة والسحر اقترب الانسان من الطور الآخر الذى يستقل فيه بمشيئته بين الوظيفتين

ففى الحياة البدائية يظل الانســان رهينا بمشيئة الارواح التى تنفع وتضر وتنطوى على الصداقة أو على العداء ، وكلها فى رأيه تعمل ما يحلو لها ولا يحق لأحد أن يحاسبها عليه، ولكنه كلما ترقى فى التمييز بينها ملك الميزان الذى يزن به أعمالهــا وأقدارها ، فيدين بعضها ويحمد بعضها ، ويعرف منها مرؤوسين ورؤساء يحق لهم أن يشرفوا عليها ويحاسبوها على أعمالها ، وأحس فى طويته أن يطيع بعضها ضرورة وغصبا، ويطيع بعضها حبا واختيارا لانه أهل للطاعة والرجاء

ومن هنا تصبح الارواح نفسها مطيعة أو عاصية ، وماضية على السنن القويم أو منحرفة عن هذا السنن الى الخطة العوجاء التى ينكرها كبار الارباب

ومتى أتيح للانسان مقيــاس يقيس به الارواح والارباب ويقيس به أعمالها وحقوقها فهو اذن أهل للمشـــيئة والتبعة وأهل للتمييز بين الخير والشر وبين سلطان الاله وســـلطان الشيطان

أنواع الشيطنة

ما هى أنواع الشيطنة فى العالم ؟

سؤال غريب ، ولكنه يبدو طبيعيا ، بل ضروريا ، اذا وضع فى صيغة أخرى ، فسألنا : ما هو موقف الشر بالنسبة الى القوة الكونية الكبرى ؟

وهنا أيضا نتبين أن فكرة الشيطان أعمق جدا مما يخطر للمتعجل الذى يحسب أنه يحل كل مشكلة بكلمة الوهم أو التلفيق،أو يحل كل مشكلة باحالتها الى جهل الاقدمين وضلالهم فى الحس والتفكير

فهناك صور للشيطنة بمقدار مافى الذهن البشرى من فكرة عن الشر فى هذا الكون : هل الشر قوة أصيلة؟هل هوقوة ايجابية عاملة ؟ هل هو قوة سلبية ؟ هل هو عدم الخير ؟ هل هو نقص الخير ؟ هل هو عقبة فى طريق الخير ؟ هل هو عقبة تريد وتعمل ماتريد ؟ هل هو عقبة لا ارادة لها ولكنها تضاعف جهود الخير وتستدعيه الى مزيد من الحركة والثبات ؟

كل فكرة عن الشر يمكن ان تخطر على الذهن البشرى قد تمثلت فى صورة من صور الشيطان ، وهذا سبب من الاسباب الكثيرة التى تدعو المفكر الذى يحترم عقله ان يفهم الصور الدينية على حقيقتها ، وحقيقتها انها لغة حية تصور الوجود الحقيقى تصويرا صادقا على أسلوبها الذى يستحق الفهم والتعمق والنظر الى

كان الشر أرواحا ضارة متفرقة فى اعتقاد الانسان على الفطرة الهمجية ، فلما أصبح مسألة كونية عامة تمثلت صورته فى حدودها الكونية على شكل معقول ، وسبقت المذاهب الفلسفية بمراحل بعيدة فى هذا المضمار

كان الشر فى تقدير الديانة المجوسية القديمة قوة فعالة معادلة لقوة الخير : كان فى الوجود خير وشر كما فيه نهار وليل ، وكان الليل حقيقة قائمة بذاتها ولم يكن مجرد غياب النهار

كان الليل ضد النهار كما كان النهار ضد الليل ، فاذا غاب النهار فهناك ليل ، واذا غاب الليل فهناك نهار

كان للنور دولة وللظلام دولة، وكان لهذه جنود ولتلك جنود، فهما قوتان متقابلتان متعادلتان أو كالمتعادلتين ، ولكل منهما وجود قائم قابل لان ينفرد بنفسه فى معزل من القوة الاخرى ، فلا يتوقف وجود الشر على وجود الخير ولا يتوقف وجود الخير على وجود الشر ، بل كلاهما موجود بحقه وبقدرته وبعمله كما يوجد الضدان الصالحان للحياة وللبقاء

كان الظلام يصنع مخلوقاته كما كان للنور مخلوقاته التى يصنعها ، وكل منها حسن فى نظر نفسه ، محمود بمقياسه لايبالى مقياس غيره ولا يتمناه

ثم تراجحت الكفتان فرجحت كفة النور على كفة الظلام ، وظل المعسكران متقابلين ولكن الى حين ينتهى آخر الامر بهزيمة الظلام وغلبة النور، ثم يبقى الظلام شيئا يلوذ به أنصاره فيختفون فيه ولا يظهرون للابصار ، وانما هزيمتهم اختفاء وليست بالفناء ولا بالزوال

وعظم التفاوت بين القوتين شيئا فشيئا حتى اصبحت قوة

الشر كقوة الامير التابع مع السلطان المتبوع ، فهو يستطيع شيئا الى جانب سلطانه ولكنه لايستطيع جميع الاشياء ، ولا طاقة له على طول المدى أن يجاريه فى كل شيء

ومن الهين متعادلين تحول الخير والشر الى اله كبير واله صغير ، وقد تظل الحرب بينهما سجالا فينتصر الاله الصغير وينهزم الاله الكبير ، وقد يؤول الامر بينهما الى معركة حاسمة أو يظل العراك بينهما سجالا الى أن تزول الارض والسماء

ثم آمن الناس باله واحد هو الخالق المبدع القائم بذاته ، لا وجود معه للشر الا بمشيئته وتقديره ، فلا يقوم الشر فى هذه الدنيا بذاته مستقلا عن الله

وفى هذه الصورة ظهر الشيطان فى ديانات الامم الكبرى ، ثم ظهر فى الديانات الكتابية بمختلف الاسماء، وكلها تدل على التعطيل والتشويه والافساد ، ولا تدل على الخلق والتكوين .... كلها قوة سالبة ناقصة وليست بقوة موجبة كاملة تبتدىء بمشيئتها عملا من الاعمال

هذه القوة الشيطانية تحول الخير عن موضعه ، أو تملى للنقص فى عيوبه ، أو تقف فى طريق الكمال عقبة تصد الساعين اليه ، أو تزيف «العملة» الالهية فتجعل الزائف منها كالصحيح فى رأى المضلل المخدوع

ولكنها فى جميع أحوالها قوة سالبة وليست بالقوة الموجبة الموجدة بأية حال

وقد يتمرد الشر على الخير ويعصيه

وقد يخرج الشيطان على أمر الله، وقد يشوه الخلق وينتقصه ويستر محاسنه ويبدى عوراته ويحول دون رضوان الله على مخلوقاته ولكنه يعمل تابعا ولا يعمل مستقلا فى كون من الاكوان

غير الكون الذى خلقه الله

وفى هذه المراحل جميعا يدل اسم الشيطان على موقفه من القوة الكونية الكبرى . فهو المتمرد أو هو «الضد» أو هو الواشى النمام أو هو الساعى بالفتنة والمغرى بالفساد والموغر للصدور

وما من اسم للشيطان بين هذه الاسماء الا وهو يحمل فى دلالته معنى الافساد والمنع والتشويه ، فليست له قدرة على الخلق والانشاء الى جانب قدرة الله



ولما تقررت المقاييس الالهية فى الاخلاق والاعمال تقررت المقاييس الشيطانية تبعا لها وبالنسبة اليها ، فكان الجديد فيها انها معالم شخصية ذات ملامح معلومة لا ترتسم اعتباطا فى الواقع أو فى الخيال

وقد عالج الشراح الدينيون أن يلخصوا «الشيطنة» فى صفة واحدة تجمع عنصرها ويقوم به كيانها فذكروا الكبرياء وذكروا العصيان وذكروا الحسد وذكروا الكراهية وذكروا الباطل والخداع ، وكلها صفات لاتحسب من لوازم الشيطان الا بعد علم بوجود الاله المتصرف فى المقادير والاكوان

فالكبرياء افتئات على مقام الاله ، والعصيان خروج على شريعته ، والحسد انكار لنعمته واعتراض على تقديره ، والكراهية صفة قد يتصف بها الابرار حينا بعد حين اذا كانت كراهية لهذا العمل البغيض أو لذلك المخلوق الذميم ، ولكنها اذا كانت قوام الطبيعة كلها فهى صفة هادمة غاشمة تناقض الصفة الالهية فى الصميم وهى الحب ولوازمه من البر والانعام . أما الباطل والخداع فهما نقيض الحق ونقيض الاستقامة ونقيض الخلق على الصدق والسواء

على أن الارواح الاولى فى جاهلية الانسان قد تطورت فى اتجاه آخر مع هذا الاتجاه فى مجال الخير والشر وعالم النفس الانسانية بما يعرض له من صلاح و فساد

ذلك الاتجاه الآخر هو تطورها فيما يتعلق بقوى الطبيعة وظواهر السماوات والارضين

فهنا أرواح من الجان الخفى لها عمل غير صلاح النفس الانسانية و فسادها، ولها قدرة خاضعة لسلطان الاله ومن يصطفيه من عباده ، وينسب اليها كل مجهود عظيم تقصر عنه طاقة الانسان

وليست قدرتها هذه لأنها تعلمت مالم يتعلمه الانسان، ولا لأنها ذات عقول أكبر من عقله وأصلح منه للفهم والتفكير

ولكنها قدرة تأتيها من عالم الاسرار الذى تعيش فيه ، فهى تسخر القوى الطبيعية لانها تعيش بين أسرارها وتحسب منها او فى حكمها، واذا فطنت للمعنى الدقيق الذى لم يفطن له الانسان فانما تأتى فطنتها كذلك من اطلاعها على الدقائق والخفايا ونفاذها الى العالم الذى يطرقه حس الانسان ولا يتسلل اليه عقله

وهذه هى شياطين الفنون والصناعات، تبنى الصروح وترفع الصخور وتنهض بالاتقال التى تعيا بها كواهل الانس وتنوء تحتها ادواته وصناعاته ، وتدخل فى ثنايا الخفاء فتلهم الشاعر مايدق عن سائر بنى آدم من غير الشعراء ، ولا جرم يكون لهؤلاء الشعراء وأمثالهم من أصحاب الفنون حال كمس الجان وغيبوبة المخبولين لانهم يخاطبون الجان ويفقهون عنها ويلحنون منها أسرار لغاها واشارات وحيها

وتلك هى انواع الشيطنة من جانبيها فى اتجاه الضمير وفى اتجاه الذهن والقريحة

فى اتجاه الضمير ترتبط «الشيطنة» بالصلاح والفساد والخير والشر ومساعى الانسان نحو الكمال والرشاد

وفى اتجاه الذهن والقريحة ترتبط «الشيطنـــــة» بالاسرار والبواطن وبالوحى الخفى وغرائب العبارة ، سواء كانت عبارة لغة أو عبارة شكل واشارة

وسيكون لكل نوع من هذه الانواع نصيبه فيما يلى من الصفحات



الفصل الثانى

* ❋ أسماء الشيطان الأكبر
* ❋ الشيطان فى الحضارة المصرية
* ❋ الشيطان فى الحضارة الهندية
* ❋ الشيطان بين النهرين
* ❋ الشيطان فى حضارة اليونان

أسماء الشيطان الاكبر

تمثلت قوة الشر « العالمية » في شخصيات مرسومة الملامح معروفة الاسماء ، اشتهرت بها فى كل لغة من لغات الحضارة الكبرى التى سبقت ظهور الديانات الكتابية ، وسنذكر هــذه الشخصيات بملامحهـــا وأسمائها عند الكلام عــلى أهم تلك الحضارات التي لها علاقة بصورة الشـــيطان كما تخلفت فى الاعصر الحديثة ، ولكننا نتقدم قبل ذلك بخلاصة عاجلة لاسماء الشيطان الاكبر التى بقيت الى اليــوم لورودها فى الديانات الكتابية ولانها قد أصـــبحت ذات مدلول لغـــوى الى جانب مدلولها الدينى ، فان حضور هذه الاســـماء فى الذهن يبرز معالم الطريق الى الوجهة التى انتهت اليها سوابق التـــاريخ ومقدراته ، منذ ظهرت « شـــخصيات » الشيطان الاكبر فى الحضارات الغابرة الى أن ظهرت شخصيات هذا الشيطان فى كل ديانة من الديانات الكتابية التى أسلفنا ان اسم الشيطان فيها قد أصبحت له دلالته اللغوية الى جانب دلالته الدينية

واسم « الشيطان » بالألف واللام هو أشهر هذه الاسماء ، لانه ورد فى كتب الديانات الثلاث ، ودخل فى تعبيرات اللغات الاوربية المتداولة بلفظه المنقول عن اللغات السامية ، فيتحدث الغربيون اليوم عن الفكرة الشيطانية أو عن العمل الشيطانى ويفهمون من عباراتهم معنى لا يلتبس على القائل ولا على المتكلم ، ومعنى الصفة الشيطانية عندهم مرادف للصفة الجهنميــة التى

تنطوى على الخبث والبراعة وحب الأذى والتمتع بالايذاء كأنه منفس لطبيعة صاحبها يفرج عنه ويسره أن يلمح آثاره وهو مستتر وراءه

والرأى الغالب ان كلمة « الشيطان » هذه عبرية بمعنى الضد أو العدو ، ومن أسباب الظن باستعارتها من اللغة العبرية انها لغة اليهود وان ديانة موسى عليه السلام سابقة للمسيحية وللاسلام ، ولكنه ظن يصدق فى حالة واحدة :وهى أن يكون اليهود أصلاء فى الكلام عن الشيطان لم يسبقهم أحد من المشارقة اليه ، الا انها حالة لم تثبت · وقد يكون الثابت خلافها ونقيضها ، فان اليهود قد وصفوا الشيطان بعدهجرتهم الى بابل ، وليست طريق بابل موصدة دون الامم السامية غير اليهود

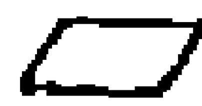
والارجح عندنا أن الكلمة أصيلة فى اللغة العربية قديمة فيها ، لا يبعد أن تكون أقدم من نظائرها فى اللغة البابلية،لان اللغة العربية قد اشتملت على كل جذر يمكن أن يتفرع منه لفظ الشيطان ، على أى احتمال وعلى كل تقدير

ففيها مادة شط وشاط وشوط وشطن · وفى هذه المواد معانى البعد والضلال والتلهب والاحتراق،وهى تستوعب أصول المعانى التى تفهم من كلمة الشيطان جميعها

فالشطط من الغلو الذى يدخل فى أخص عناصر «الشيطنة» والشط بمعنى الجانب المقابل قد تلحظ فى مقابلة الخير بالشر من جانب الشيطان

وشاط بمعنى احترق وتلف ، وأشاطه بمعنى أهلكه وأتلفه، وانطلق شوطا أى ابتعد واندفع فى مجراه ، وشطن أى ابتعد فهو شيطان على صيغة فيعال

وقد كان العرب يسمون الثعبان الكبير بالشيطان ، ويقال فى بعض التفسيرات ان هذا المعنى هو المقصود من « طلعها كأنه رءوس الشياطين » ، وذكر الشراح اليهود المتأخرون أن الشيطان تمثل لآدم فى صورة الحية حين أغراه بأكل الثمرة المحرمة ، ولم تنقطع العلاقة بين الحية والشيطان ، ويؤخذ من سفر أيوب عليه السلام - وهو عربى باتفاق المؤرخين - أن الشيطان كان معروفا بين العرب من ذلك العهد الذى كان سابقا لعهد خروج بنى اسرائيل من مصر ، ويؤخذ من تاريخ الادب العربى فى الجاهلية ان العرب قد عرفوا الشيطان فى أدواره الفنية والادبية مع السحرة والشعراء ، فليس هو مجرد اسم معرب نقلوه من لغة أخرى ولم يزيدوا على وضعه فى موضعه من المأثورات العبرية



وأشهر أسماء الشيطان الاكبر فى اللغة العربية هو اسم « ابليس » الذى يختلف اللغويون فى أصله كما يختلفون فى نسبة كلمة شيطان الى احدى اللغات السامية

والمتكلم العربى يفهم من وصف انسان من الناس بأنه « ابليس » كل ما يريده القائل من هذه الصفة ، فهى دالة فى كلام الخاصة والعامة على الدس والفتنة والدهاء والسعى بالفساد ، ولم تحمل كلمة واحدة من دلالتها اللغوية أكثر مما حملته هذه الكلمة مستعارا من صفات ابليس فى العقيدة الاسلامية

ويرى بعض الغربيين ان الكلمة فى أصلها يونانية من كلمة ديابلوس « Diabolos » التى تفيد معنى الاعتراض والدخول بين شيئين كما تفيد معنى الوقيعة، وأصلها فى اليونانية من ديا

« Dia » بمعنى أثناء ، وبالين « Ballein » بمعنى يقذف أو يلقى، ومعنى الكلمتين معا قريب من معنى الاعتراض والدخول بين الشيئين أو قريب من ثم الى معنى الوقيعة

وعندنا أن هذا التركيب أضعف من قول القائلين ان كلمة ديفل « Devil » أى الشيطان فى اللغات السكسونية مأخوذة من فعل الشر « Do-evil » أى من كلمة « دو » بمعنى يفعل وكلمة « ايفل » بمعنى الشر ، وقد أجمع اللغويون والدينيون على نبذ هذا التركيب مع أنه أقرب الى صفةالشيطان من الصفة التى توحى بها الكلمتان اليونانيتان ، بعد التمحل والاعتساف

ولسنا على يقين من انقطاع الصلة بين الكلمة اليونانيـــة والكلمة العربية ، ولكننـــا على يقين أن « شـخصية » ابليس تحتاج ، بل تتوقف على الدلالة التى تستفيدها من مادة « الابلاس » أى فقد الرجاء . فان ضياع الأمل ألزم صفات ابليس على ألسنة الخاصة والعامة ، وليس أشهر من المثـــل الذى يضرب بأمل ابليس فى الجنة مرادفا لمعنى الامل الضائع كل الضياع ، وقد فرق هذا المعنى بين كلمة ابليس وكلمة الشـــيطان فى ملامح الشخصية ، فهذا قد ضيع الحق وهذا قد ضيع الرجاء، وكذلك قد فرقت بينهما شروح الفقهاء وفرقت بينهما الدلالة الملموحة بين الشيطنة والابلاس

والغربيون اليوم يستخدمون الكلمة اليونانيـــة فى صيغة النعت وقلما يستخدمونها فى صيغة العلم . فاذا قالوا عن شىء انه « ديابولى » أو ابليسى فالمفهوم منه انه عمل من أعمال التمرد والجبروت لا يلزم انه سيىء كل السوء وانما يلزم انه خلا من الصفات الالهية أو الصفات « الرحمانية » عـــلى الخصوص ، وكذلك توصف الثورات الجائحة التى تدمر الظلم وتنسف معالم

الطغيان ، فهى من الجبروت بحيث توصف « بالديابوليــــة » ولكنها من العنف بحيث تخالف الاعمال « الرحمانيــــة » فى الرفق والرضوان .



ومن أسماء الشيطان التى دخلت فى الدلالات اللغوية اسم لوسيفر « Lucifer » أو حامل النور ، وهو فى أصله اللاتينى اسم الزهرة حين تكون « كوكب صباح » ولم تكن له من مبدأ الامر دلالة سيئة ولكنه جاء فى كلام النبى أشيعا فى معرض التبكيت لملك بابل الذى سمى نفسه بكوكب الصباح ، وفهم الحواريون من كلام السيد المسيح « انه رأى الشيطان كنجم سقط من السماء » ان المقصود هو الزهرة وانه كناية عن الخيلاء التى تقود صاحبها الى السقوط . على أن سفر الرؤيا يذكر على لسان السيد المسيح انه تحدث عن نفسه فقال : « أنا كوكب الصبح المنير »

واذا وصف انسان اليوم بأنه شبيه « لوســـــيفر » فالمفهوم من هذا الوصف انه يلمع ويتخايل باللمعان ويبلغ من العجب به حد السماجة والصفاقة ، فهو الخطيئة الســاطعة أو الخيلاء المتبجحة ، ومن كان كذلك فسقوطه أمل يود الناس أن يتحقق، ولا يشعرون له بالرثاء الذى يصاحب المجد المنهار

ويذكر الاوربيون بعلزبوب وبعلزبول فى مقـــــام المتهكم بالرئاسة الشيطانية ، وأصل بعلزبوب انه اله معبود فى عقرون يقال عنه انه رب الطب وانه يشفى المرضى لانه سيد الشياطين وكانت الامراض العصبية كالجنون والشلل والفالج والصرع والهزال تنسب الى تلبس الشيطان بجسم المريض

ومعنى بعل زبوب رب الذباب ، فحـوله العبريون الى بعل

زبول أى رب الزبالة سـخرية منه وتحقيرا لأمره ودعواه ، لانهم كانوا ينكرون عبادة البعل ويدعون الى عبادة « يهوا » أو الايل • وقد قالوا حين سمعوا بمعجزات السـيد المسيح فى شفاء المرضى انه يشفيهم بمعونة رب الشياطين بعلزبول

والدلالة اللغوية التى يفيدها وصف «بعلزبول» فيأساليب العصر الحاضر هى الاقرار بالقدرة على قمع الشر لانها مستمدة من الشر نفسه • فهى الشيطنة التى تقمع الشياطين لزيادتها عليها فى الشيطنة ، لا لانها تصلح أو تبتغى الاصلاح ، وهيالى ذلك لا ترتفع فى قدرتها عن قدر الزبالة والذباب



وهناك شيطنة خاصة تدل عليها كلمة مفستوفليس ،ويقال انها مأخودة من كلمة يونانية مركبة تفيد معنى كراهة النور ، ويرجحون أنها من « مى » بمعنى لا ، و « فوس » بمعنى نور و « فيلوس » بمعنى يحب • ولكن أصلها القديم متفق عليه ، فهى مستمدة من السحر البابلى الذى سرى الى الغرب على أيدى اليهود واليونان ، وتمثل روحا من أرواح النحس التى تتسلط على بعض الكواكب ويستعان بها على النكاية وخدمة الشهوات السوداء

وشيطنة مفستوفليس « ذهنية » موسـومة بعيوب الذهن فى أسوأ حالاته من السخرية والاستخفاف والزراية بالمثـل العليا واستباحة كل شىء بالحيلة والمكر والدهان ، فهو ذهن يصنع الشر لانه لا يبالى الشر والخير على السواء ، واذا طاب له الخير فعله غير مغتبط بفعله ، كما أنه يفعل الشر ولا يلوم نفسه عليه ، ويسر صاحبه أن يرى خيبة الأمل فيالصلاح والفضيلة لانه يثبت بذلك فلسفة السخرية وسخافة المثل الاعلى ،ويدفع

عن نفسه نقد الناقدين واحتقار المحتقرين

وقد كان مفستوفليس فى القرون الوسطى شيطان السحر والمعرفة السوداء ، وكان رجال الدين يتخذونه مثـــلا للعلماء الكفار الذين غرتهم المعرفة الدنيوية فانصرفوا اليها وشغلوا بها عن معارف الدين

ويتردد من حين الى حين اســـم اله الخراب أو اله القفـار « عزازيل »

وهو اسم ورد فى العهد القديم واختلف الشراح فى نسبته الى أصله ، ويرى بعضهم انه من مادة الازالة العربية ، ويقول آخرون أنه كان رئيس الملائكة الذين هبطوا الى الارض فأعجبتهم « بنات الناس » وتزوجوا منهن . ثم انهزم أمام جنـد السماء فلاذ بالصحراء ويقال أيضا أن ابليس كان يسمى عزازيل ثم سقط فزال مكانه من السماء

وقد كان من عادة اليهود أن يقترعوا على ضـــحيتين تذبح احداهما للرب « يهوا » وترسل الثانية محملة بالخطـــايا الى عزازيل رب الارض الخراب ، وشيطنة اليوم فى لغة المجـاز مرادفة لمعنى العظمة التى تحتفظ بحق التضحية لها وحمل القرابين اليها ، ولو كانت تساق الى عرش يستوى على مملكة الخراب

وليس بين أسماء الشيطان الاكبر التى دخلت فى مدلولات اللغة ما هو أشهر ولا أدل من هذه الاسماء : الشيطان وابليس ولوسيفر وبعازبول ومفستوفليس وعزازيل ، فهى اليوم كلمات وأعلام ، وقد اجتمع لها من معانى الشيطنة كل ما نستقصيه فيما يلى متفرقا عن تواريخ الامم والديانات حول « قوة الشر الكبرى » أو قوة الشر العالمية ، فى موقفها امام عوامل الخير والكمال

الشيطان
فى الحضارة المصرية

من أقدم الحضارات التى تمثلت فيها قوة الشر فى صورة شخصية مميزة باسمها وملامحها حضارة مصر القديمة

فمن أقدم عصور المملكة القديمة عرف المصريون حساب الروح بعد الموت وموازين الجزاء على الخير والشر والفضيلة والرذيلة وشروط البقاء التى تستوفيها الروح لتنعم بالحياة الابدية فى العالم الآخر • ولم يكن العالم الآخر عندهم مؤجلا أو منتظرا فى المستقبل بعد خراب هذا العالم الدنيوى ، ولكنه كان امتدادا للعالم الذى هم فيه وهو الديار المصرية ، وهو كارثة طامة لم يكن من اليسير عليهم أن يتخيلوها ويتخيلوا عالما قائما بعدها ، وانما كانوا يتخيلون مصر عالمين دائمين فى كل وقت ، احدهما ظاهر يسكنه أحياؤهم والآخر باطن يسكنه موتاهم ، فاذا حدث الخراب فى الارض فانما هو عارض يجنيه الظلم على الحاكمين والمحكومين ثم يزول العارض وتعود البلاد سيرتها الاولى مع انتظام الحكم على سنن العدل والانصاف ، وتاتى الحياة بعد الموت متصلة بالحياة على وجه الارض مستبقية لمطالبها ومآكلها ومشاربها فى ظل حكومة كحكومتها ، أو هى فى ظل حاكم خالد كان فعلا فى يوم من الايام حاكم الإرض المصرية أثناء حياته الفانية

وفى كل أمة من الامم القديمة الكبرى يتناقل الكهان والشعب

قصة عن نقمة الاله الاكبر على الجنس البشرى وندمه على خلقهم وتفكيره فى ابادتهم عقابا لهم على ذنوبهم ، وتختلف هذه الذنوب باختلاف الامم والكهانات ، فهى تارة مسألة تقصيرفى الضحايا ، وتارة مسألة غيرة «الهية» من المعرفة البشرية،وتارة أخرى مسألة فساد واشتغال باللذات الى غيرذلك مما سجلته قصص الخلق والعقاب فى جميع الاساطير الاولى

أما هذه القصة فى الديانة المصرية فهى قصة حاكم يغضب على المحكومين لانهم ثاروا عليه وهموا بخلعه لانهم استضعفوه وظنوا أنه شاخ وهرم فلم تبق فيه بقية للقدرة علىولاية الامور

وقد كتبت هذه القصة على جدران الحجرة الخاصة فى هيكل سيتى الاول الذى بنى حوالى سنة (١٣٥٠) قبل الميلاد ، وخلاصتها ان الاله الاكبر « رع » علم بتآمر البشر على العصيان فعقد مجلس الآلهة وشاورهم فى أمر هذه الفتنة ، فاستقر الرأى علىإبادة العصاة ، وأرسل الاله الاكبرعينه عليهمفألفاهم قد هجروا الديار ولاذوا بالجبال ، وتعقبهم جنودهفأثخنوا فيهم القتل حتى فاضت الارض بالدماء وبقيت منهم بقايا تتوارىهنا وهناك من زبانيته ، فحزن « رع » لانه أحس حقا بالعجز عن ابادة العصاة أجمعين وطفق بعض الارباب يواسونه ويقولون له : ان مشيئته وقدرته سواء ، فكل ما يشاء فهو قادر عليه

وتتم القصة على صورة أقرب الى الرفقوالمسامحة فيقال فى ختامها ان « رع » سئم الكنود من رعاياه فأجمع نيته على الاعتزال والاقامة فى السماء ، فندم الناس على كنودهم وعصيانهم وتابوا اليه فلم يعدل الاله الاكبر عن نيته ولكنه أمر اله الحكمة « توت » أن يلقن الناس أسرار الحكمة وتعاويذ الوقاية من الآفات ومنها الهوام والثعابين وأن يهدى بها الى

السلامة من هو أهل للهداية

وتروى قصة النقمة من البشر على روايات شتى يكثر فيها التناقض على ما هو مألوف في الاساطير الاولى ، فأشدها وأصرمها هذه القصة التى نقشت على هيكل ملك يهمه أن يبالغ فى بطش الارباب ومصير العصاة ، وأقربها الى الرفق تلك الروايات التى تقول ان الارباب راجعوا الاله الاكبر وراح بعضهم يمزج الجعة بالاصباغ الحمراء ليحكى بها لون الدم ويزعم للارباب الساخطين أنه قد أريق منه ما يكفى للزجر والعقاب

وكانت فكرة المصريين الأقدمين عن قوة الشر أو قوة الاله الشرير موروثة من أقدم العهود تتسم كما يتسم كل شيء فى مصر القديمة بالمحافظة الشديدة واستبقاء الكثير من مخلفات كل عصر سابق وكل عقيدة مهجورة ، فيكثر فيها الاختلاف والتناقض على حسب الحواشى والاضافات التى تلصق بها من كل حقبة مرت بها فى طريقها البعيد

ففى صورة اله الشر بقية من عبادة الاسلاف وبقية من امتزاج السحر بالعبادة وبقية من عبادة الشمس وبقية من تعدد الآلهة بين مصر السفلى ومصر العليا ، وفيها مع ذلك اثارات تدل على انها فى جملتها معلومات تاريخية واقعة عرض لها التشويه وانطوت فى عداد المجهولات التى يستدل عليها بالتخمين والترجيح

ومهما يكن من خلاف فى العقائد المصرية العريقة فالقاعدة المطردة فى تمحيص لبابها أنها مشتملة ولا بد على شيء يتعلق بكيان الأسرة وشيء يتعلق بكيان الدولة وشيء يقوم على الشريعة والعرف الاجتماعى ، أو على ما نسميه اليوم بالنظام

وعلى هذه الصورة تتمثل قوة الشر كما خلصت من الروايات

المتعددة على طول الزمن ، فهو صـورة الاخ الشرير والحـاكم المغتصب والمفسد الذى يعيث فى الارض ويخرج على العرف والعادة ، وهذه هى صورة الاله « ست » اله الظلام فى عقيدة الشعب المصرى على الاقل ، لان عقائد الكهنة كانت تخـالف العقائد الشعبية فى تفصيلاتها ان لم تخالفها أحيانا فى الجملة والتفصيل

وقد مضى زمن كان فيه « ست » معـدودا من آلهة الحق والاستقامة وكان الاله الموسوم بالشر هو « أبيب » الذى كانوا يرسمونه فى صورة حية ملتوية تحمل فى كل طية من جسمها مدية ماضية ، وتكمن للشمس بعد المغيب فلا يزال الهالشمس « رع » فى حرب معها ومع شياطينها السوداء والحمراء الى أن يهزمها قبيل الصباح فيعود الى الشروق ، وقد خصص الجـزء التاسع والثلاثون من كتاب الموتى لوصف القتـال بين الالهين اله الشمس واله الليل ، أو اله النور واله الظلام

وربما كانت القضية كلها فى أوائلها المنسية قضية النزاع على العرش بين أخوين هما أوزيريس وست ، وبقى لكلمنهما حزب يعظمه وينتصر له حتى تغلب الحزب الظافر كل الغلبـة فتضاءلأنصار الفريق المغلوب،وشاعت عنه أنباء الشر والتهمة وانتهى بتمثيله فى صورة « أبيب » اله الظلام وتمثيل أخيـه فى صورة « رع » اله النور

ولا يبعد أنيكون فى الامر خيانةزوجية أو شبهة منقبيلها، لأن أسطورة أوزيريس تروى أن الاله «رع» فاجأ الملكة «نوت» زوجته وهى فى عناق « سب » فلعنها ولعن ذريتها وأقسـم لا تلدن فى يوم من أيام السنة ، فلجأت الى السـاحر الاكبر « توت » الذىكان مشهورا بعلم السماء وتسخيرالارواح العلوية

والسفلية فاخترع أيام النسيء الخمسة لتضاف الى السنة ، واستطاعت نوت أن تلد ولديها التوأمين أوزيريس وست في اليوم الثالث من هذه الايام ، وهى غير محسوبة من أيام السنة التى يطلعها « رع » بعلمه كلما عاد من الظلام ، فخرج الولدان وفى أحدهما ــ أو كليهما ــ طبيعة المظلمة او طبيعة النور المختلس بغير علم من اله النور

أما الرواية التى استقرت عليها قصة أوزيريس وست فهى أن الاخوين تنافسا فخدع « ست » أخاه وصنع له صندوقا أغراه بالنزول فيه ليقيسه على جسده ، ثم قتله ومزقه وألقى أشلاءه فى النيل ، فجمعتها ايزيس ــ زوجة أوزيريس ــ بمعونة الساحر توت ، وبوأته عرش المغرب فهو من ثم رمز للشمس فى حالة الغروب

وهناك رواية أخرى لعلها هى الأرجح والاقدم فى التاريخ، وخلاصتها أن « ست » لم يقتل أوزيريس ولكنه نازع ابنه « حوريس » فتغلب عليه هذا وخصاه ليحرمه ويقطعه عن الملك فى حياته وبعد حياته،ولم يكن للاله المغلوب من مكان يعبد فيه غير أقصى الجنوب فى مكان « كوم امبو » اليوم حيث كان معبد التمساح

ومما يرجح أن القضية فى أوائلها المنسية كانت قضية نزاع على الملك ان اسم « ست » محى من الهياكل بعد زمن ، وأن أتباعه لاذوا بالجنوب حيث يلوذ كل حاكم منهزم فى عاصمة المملكة الشمالية ، وان ملوك الرعاة أعادوا لـ « ست » كرامته حين أرادوا أن يحاربوا السلطان القائم ، فبنوا له هيكلا فى مصر السفلى وأوجبوا عبادته هناك

وقد استعيرت صفات « ست » من صفات أوزيريس على

التناقض والتقابل بين الطرفين ، فكان من صفات أوزيريس « أنه ملك الخلود وسيد الباقيات وأمير الارباب والنـاس واله الآلهة وملك الملوك ، وسيد العالم الذى لا يفنى سلطانه »

أما صفات « ست » فهى نقيض الخلود والسيادة على الارباب والناس ، فلا سيادة له على غير الارواح الخبيثة والاحياء الدنيا، ومن ثم يصورونه برأس حيوان مجهول لا يراد به تمثيل حيوان معين ولكنه يمثل الحيوانية فى صورتها المبهمة ، ويجعلون له أذنين منتفضتين كناية عن الاسراع الى استطلاع الشر ، وذنبا شائلا كناية عن الحران والاشر ، ويعودون عليه باللائمة كلما أصيبت الدولة بالهزيمة أو أغار على البـلاد مغير مغتصب ، لانهم شخصوا فيه عوامل التمرد والانتقاض فربما كان هـذا من أسباب حظوته عند ملوك الرعاة فاعتبروه عونا لهم وخصما للسلطان الزائل الذى أغاروا عليـه ، وأحبوا أن يتقربوا الى عباده فى الجنوب تمهيدا لضم الاقاليم جميعا فى مصر العليا الى دولتهم التى استقرت بمصر السفلى زمنا وتوقفت عنـدها جهودهم قبل اجلائهم آخر المطاف عن الجنوب والشمال

ومن اصالة الصبغة الحكومية أو صبغة الحكم والتحكيم فى أقدم المأثورات المصرية أن الاساطير العريقة فى القدم تروى لنا من أخبار خصـومة ست وأوزيريس أن « ست » اتهم أخاه بالجور عليه فوكلت الارباب قضيتهما الى أمينهـا الخاص الذى يعرف أسرارها ويحفظ حكمتها ويؤتمن على قضاياها ــ وهو الاله توت ــ فتبين له صدق أوزيريس وكذب ست ، وخـرج هذا مدينا بالذنب والشر من زمرة السماء ، فما برح كل مصرى فى الزمن القديم يتقرب الى اله الحكمة عسى أن يتـولى الدفاع عنه بعد الموت وينصفه فى قضـيته كما أنصف أوزيريس من

أخيه المفترى عليه

وقد شغل « ست » وظيفة ضرورية فى عهود الازمات التى تنهزم فيها الدولة وتنضب الثروة ويختل نظام الحكم وتضطرب مرافق المعيشة . فقد كان « ست » يبوء وحده بجريرة ذلك كله ، وكانت عليه وحده تبعة كل آفة لا يستطاع دفعها ، ومن هـــذه الآفات ريح السموم وعوارض الجفاف والقحط وأوبئة المرض وسائر الامراض التى كانت تنسب من قديم الزمن الى الجان والعفاريت ، وقد كانت عليه التبعة أيضا فى بقاء السحر الخبيث لانه كان على علم واسع بفنونه ولم يكن فى وسع الكهان والسحرة أن يعالجوا شروره ويبرئوا المرضى من آفاته بغـــير وسائله وأسراره ، ولهذا كثرت عندهم التمائم والتعاويذ ومنها ما بقى الى اليوم فى صور الجعل والحشرات والاساور والقلائد التى لا تصنع للزينة ولكنها تقرن بالادوية والعقاقير طلبـــا للشفاء ، ويقول الاطباء الذين كانوا يشتغلون بالطب والسحر أن الدواء هو الذى يشفى ويبرىء من المـــرض ولكن التمائم والتعاويذ هى التى تمنع « العكوس » من فعـــل أرواح الشر وأطياف الظلام

وقد كان الفراعنة أنفسهم يلجأون الى السحر لمغالبة الارواح الخفية ، فاستعان رمسيس الثانى بأصحاب التمائم والتعاويذ على مداواة أهل بيته ، ولم يفعل ذلك جهلا منـــه بالطب ولا تعظيما منه لقدر السحر ، ولكنه فعله ايمانا بضرورة اختيـــار الترياق من جنس المرض ، ولكل شىء آفة من جنسه كما قيل من قبل ويقال فى كل زمان

ولدينا من بقايا قصص السحرة نخبة لم يتخيرها جامعو الآثار ، ولكنها اجتمعت لهـــم من حيثمـــا اتفق بين الانقاض

والمحفورات ، وكلها تروى أعمال السحرة فى مجازاة الاشرار كقصة الساحر « أبانير » أى فالق الصخر الذى استخدم سحره فى الاقتصاص من عشيق زوجته فصنع على يديه تمساحا من الشمع أرسله فى البركة التى يغتسل فيها العشيق فالتهمه وذهب ليبلغ الملك نبأ هذه العقوبة كى تحدث فى ملكه بعلمه واقراره ، ومن لم يكن سحره قصاصا من المسيئين اليه والى الفضيلة فهو من قبيل « خفة اليد » التى يستخدمها الساحر لاستخراج النفائس المفقودة كما فعل الساحر « خاتشا منخ » حين سقط الخاتم من أصبع احدى الجوارى المصاحبات للملك « سنفرو » فى زورقه فحسر الساحر الماء وكشف عن أرض البركة حيث استقر الزورق الى جانب الخاتم المفقود ثم تلا الساحر عزائمه فتلاقى الماء من تحت الزورق ورفعه رويدا رويدا حتى استوى على البركة كما كان



يقول صاحب كتاب صناعات السحر فى مصر القديمة :

« ان السحرة المصريين كانوا على علم تام بلزوم الفضيلة والطهارة للساحر الطبيب ، وفى اعتقادهم على الدوام ان الالهة انما يقترب منها كل طاهر القلب سليم النية ، وكانوا ينشأون على الايمان بأن العبث ومطاوعة الشهوات تجور على العقل والبدن وتعوق طالب المعرفة » (١)

ومن أجل هذا كانوا يقسمون علم الاسرار الى أقسام ودرجات ، فمنها العلم الذى يستعان فيه بقدرة اله الخير على الشر وجنوده ، وقوامه الصلوات والرياضات الروحية

ومنها العلم الذى يستعان فيه بقدرة الشيطان الكبير على

---

(١) « The Occult Arts of Ancient Egypt », by Bernard Bromage

الشياطين الصغار ، وقد يدخل فيه السحر الخبيث بحكم الضرورة على غير اختيار

ومنها السحر الخبيث للاغراض الخبيثة ، ولا يليق بالكهان الابرار أن يشتغلوا به وان وجب عليهم أن يتعلموه لاتقاء ضرره والتعوذ من سوء عقباه

ويمكن أن يقال على الجملة أن الشر فى العالم كله انما كان فى عرف الحضارة المصرية «جريمة اجتماعية وطنية» غير مشروعة ولم يكن عنصرا أصيلا فى تركيب الدنيا أو تركيب الانسان، وقد بلغ من تطور هذه العقيدة فى تفكيرهم الدينى أن اخناتون استغنى عن الجحيم ، وأنكر دعوى أوزيريس فى السيطرة على عالم العقاب بعد الموت

ولا نظن أن تاريخ « ست » قد استوفى حتى اليوم دراسته المثلى فى علوم الآثار أو فى علم المقابلة بين الاديان، فان الذى عرف منه الى يومنا هذا يسوغ القول بكثير من الفروض والاحتمالات التى كانت تلوح للنظرة الاولى ضربا من الخيال أو اللعب بالجناس، ولا نعنى تسويغ القول بها أنها ثابتة أو أنها راجحة مقبولة على علاتها ، ولكننا نعنى انها فروض واحتمالات لاترفض ولا يزال من يرفضها محتاجا الى سند وثيق

فالمؤرخ بلوتارك يذكر فى كتابه « ايزيس وأوزيريس » ان «ست» كان يلقب «بيبون» وأن هـــذا اللقب معناه العقبـــة المعترضة فى طريق يفضى الى الخير لتتحول به الى الشر، ويقول فى الفصل الثامن والعشرين أن الاساطير تروى أن اليهود هم أبناء «ست» من أتان ، ويعلق المؤرخ «أوليفيه بير جارد» على ذلك فى كتابه عن الارباب المصرية فيقول أن هذه الاسطورة أصل الخرافة

التى شاعت فى تقديس اليهود فى هيكلهم لراس حمار (١) .. ويقول غيره بين الجد والهزل ان شمشون حاربهم من أجل ذلك بفك حمار ، وانهم لهذا يتبركون بالمخلص الذى يأتى فى آخر الزمان على حمار ابن أتان

وقد تكرر القول بأن كلمة «ست» و «ستان» أو الشيطان العبرية من اصل واحد ، ولا نزاع فى اقتباس اليونان والعبريين من المصريين فى تصوير «الشخصيات» العلوية والسفلية، فليس من الاناة ان نجزم ببطلان التشابه فى اللفظ بين الفرعونية والعبرية مع عبادة الملوك الرعاة للاله الفرعونى كما تقدم ، وليس من الاناة ان نجزم ببطلان التشابه بين مدلول اسم ست عند المصريين ومدلول اسم الشيطان « Diabolos » باليونانية ، وكلاهما يفيد معنى الاعتراض والدخول بين شيئين للتعويق والافساد، وقديما شاعت نحلة ايزيس وأوزيريس وغيرهما من الآلهة المصرية بين بلاد اليونان فى آسيا الصغرى وبين الاثيوبيين واليمانيين فى الجنوب ، وقال ديودور الصقلى انه رأى فى « نيسا » من بلاد العرب عمودا للاله أوزيريس وشيئا من قصته ملخصا على ذلك العمود

وقد ختم الاستاذ بورجارد كتابه الذى اشرنا اليه آنفا عن الارباب المصرية قائلا أن النحلة المصرية نقلها العبريون من مصر الى الشام واليمن ، ونقلها الاغريق الى اليونان ونقلها الفينيقى قدموس الى اليونان والى بلاده ، وان اعظم العقول اليونانية كانت تهاجر الى مصر لتدرس المعرفة المصرية فى طيبة ومنف وعين شمس وسايس، وعد منهم ليكرج « Lycurgos » وصولون وطاليس

(١) صفحة ٢٠٥ من كتاب الارباب المصرية
« Les Divinités Egyptiennes », par Beauregard

وفيثاغورس وأفلاطون وايدوكس ، وعدد بعدهم أمما من تلميذات الثقافة المصرية بين أهل الكتاب وغير أهل الكتاب ، ولاشك فى شيوع عقيدة الثواب والعقاب وعالم الابرار وعالم الاشرار فى الديانة المصرية القديمة ، فليس من الغريب أن تتخلف منها بعض المصطلحات والمسميات ، وليس من الاناة على الاقل ان ينتهى تاريخ «ست» حيث انتهى فى هذا الموضوع ، وقد قيل أن العزى هى ايزيس ، وان مناة هى منوت أوموت ، وان النصوص متقاربة بين بعض المزامير وبعض اناشيد أتون ، وأن أيوب عليه السلام كان يسكن الى جانب مصر ويتحدث عن أهرامها التى تبنى لتخليد الموتى ، ويكافح الشيطان الذى يوسوس له ويغريه بالكفران والعصيان ، واقل من هذه الملابسات حقيق بالتريث عنده وترك الباب مفتوحا بعده لما تأتى به الكشوف وتسفر عنه المقارنات



الشيطان
فى الحضارة الهندية

ترجح فئة من علماء المصريات ان الديانة الهندية القديمة دخلتها مقتبسات كثيرة من ديانة المصريين الاوائل ، ويرى برستيد واليوت سميث ان معظم هذه المقتبسات من كتاب الموتى ، ومن شعائر تقديس الملوك التى يستطاع التحقق من سبق الحضارة المصرية اليها

ويرد ذكر مصر فى كتب البورنا التى جمع فيها الهنود الاقدمون قصص الالهة وبعض الملاحم الكونية المتوارثة عن آبائهم الاولين

ولكن طبيعة الديانة الهندية تقرر الحدود التى بلغتها تلك المقتبسات ولا يمكن أن تذهب بعيدا الى ما وراءها، فهى لاتكون بطبيعة تلك الديانة الا من قبيل الشعائر والمراسم ولا يتأتى أن تتخطاها الى أصول الديانة فى جوهرها ، اذ كانت الديانتان الهندية والمصرية على اختلاف كاختلاف النقيضين أو الطرفين المتقابلين ، ولو أراد أحد أن يضع ديانتين يتوخى فيهما التقابل فى العقائد الاساسية التى تدور عليها كل ملة لما استطاع أن يبلغ فى هذا التقابل ما بلغه أهل مصر وأهل الهند فى العهود المتتابعة على غير قصد بطبيعة الحال

والعقائد الاساسية التى تدور عليها كل ملة تتناول وجود الانسان ونظام المجتمع ووجود العالم كله أو الوجود على اطلاقه، وفى هذه المسائل الثلاث تقف الديانتان العريقتان موقف التقابل من طرف الى طرف ، كأنهما عامدتان الى تصوير سعة الآفاق

التى تحيط بالعقائد فى ضمائر بنى الانسان

فالديانة المصرية تصون جسد الانسان وتستبقيه الى الحياة الابدية ، والديانة الهندية تنكر الجسد وتعلم أتباعها أن الروح تنسخ جسدها مرة بعد مرة ولاتنال الخلاص الا اذا فنى الجسد كل الفناء

والديانة المصرية تعتبر دوام الاسرة آية من آيات النعمة الالهية ولاتعرف دعاء الى خالق الكون أحب الى الداعين من بقاء تراث الآباء والاجداد واتصال العقب الى آخر الزمان ، وعلى نقيض ذلك ديانة الهند التي تعلق النجاة بالافلات من دولاب الحياة والموت والرجوع الى «النرفانا» من طريق «الموكشا» أى اجتناب العلاقة الجنسية ولو فى حالة الزواج

وتؤمن الديانة المصرية القديمة بأن العالم المحسوس حق وخير فتجعله مثالا لعالم الخلود ، وعلى نقيض ذلك ديانه أهل الهند التى تحسبه شرا محضا وباطلا موهوما ومنبعا لجميع الشرور التى تعترض عالم الحقيقة وتشغل الروح بالاعراض والقشور

ويكفى هذا الاختلاف بين الديانتين لامتناع التشابه بينهما على الخصوص فى مسألة الشر وقوة الشر وعلاقة هـــذه القوة بنواميس الكون الخالدة سواء منها مايتمثل فى صورة «الذات» الالهية أو مايتمثل فى الناموس الاعظم أو «الكارما» الذى ليس له ذات

على أن الديانة الهندية تحير علماء المقارنة بين الاديان أشد الحيرة فى أمر «الشخصية» التى تقابل شخصية الشيطان أو قوة الشر العالمية عند أصحاب الديانات الاخرى ، وأسباب هذه الحيرة متعددة لايصادفها العلماء بهذه الكثرة وبهذه الصعوبة

فى غير الديانة البرهمية وما تفرع عليها

من هذه الاسباب أن الهنود الاقدمين قد تعاقبوا على البلاد بعقائد مختلفة يوشك أن تتناقض بين قبيل وقبيل من السابقين واللاحقين ، وربما تعمد القادمون أن يهدموا عقائد من تقدمهم فلا ينجحوا كل النجاح ولا يتركوها سليمة من التضارب والاختلاط ومن ذلك فى هذا الباب عقيدتهم فى العفاريت الخبيثة او العابثة التى يسمونها بالـ «راكشا » وينسبون اليها أعمالا كأعمال الشياطين فى الديانات الاخرى ، فان الباحثين فى اشتقاق الكلمة يقولون تارة انها تفيد معنى الحراسة ويقولون تارة اخرى أنها الاسم الذى كان يطلق على الهمج الاولين الذين سكنوا الهند قبل اغارة الآريين عليها وكانت لهم حراسة على الطرق وعلى ينابيع الماء ، وقد رسخ فى الاذهان من أحاديث القتال بينهم وبين الآريين أنهم أعداء البشر وأنهم يتربصون بالناس كما يتربص الناس بهم فى كل مكان ، فلا ينجو أحدهم من الآخر حيث أصاب الغرة منه ، ثم تطاول الزمن فانقسموا فى أساطير العامة الى أقسام ثلاثة : أحدها يشبه ارواح «الياكشا» البريئة التى تهيم على وجهها ولا تؤذى أحدا الا ان يتعرض لها ، والثانى يشبه العصاة المتمردين من الجن ويعادى الانسان ألد العداء ، والقسم الاخير يلوذ بالمقابر والصوامع ويحالف الموت والخراب ، ويقول من يزعمون رؤيتهم أنهم مشوهون ، بعضهم ذو رأسين وبعضهم ذو ثلاث أرجل ، ومنهم من له عين واحدة فى رأسه ومنهم من له عدة أعين ، وكلهم على خلاف البشر فى التركيب

ولا ينسب الى هؤلاء «الراكشا» عمل من أعمال الاغراء والاغواء ولكنهم قد يغتصبون النساء عنوة ويتلصصون فى الطرق المقفرة ويستبيحون الاذى للكيد او للعبث والدعابة ، ورئيس

هؤلاء «الراكشا» المسمى «رفانا» هو الذى اختطف الحسناء «سيتا» زوجة البطل «رام» كما جاء فى ملاحم «الريجيفيدا» ثم حملها الى جزيرة سرنديب ولم يستطع زوجها أن يهتدى اليها ويخرجها من أسرها الا بمعونة القرد هنومان

فالشياطين فى صورة «الراكشا» هم «الشر» الذى أبغضه الآريون وصوروه لأبنائهم فى الصورة التى تنفرهم منه وتحذرهم من كيده، واتهم عندهم بما يتهم به كل شعب مهزوم يستأصله أعداؤه ويدفعون به الى أقاصى الارض وزوايا المدن ويستثيرونه أحيانا من فرط الظلم فيثور ويهملونه أحيانا فيهيم على وجهه عاجزا عن الاذى قانعا بالسلامة أو متحفزا للانتقام



والى جانب التتابع فى الديانات والاقوام المغيرة على البلاد يقوم السبب الشامل فى جميع العهود ولا سيما العهود الاخيرة التى تطورت فيها فلسفة الهياكل ووجد فيها الكهان المفسرون والمفكرون على أعقاب الكهان المتنسكين أو الدهاة المتحكمين ، ففى هذه العهود الاخيرة تمكن الاعتقاد ببطلان العالم المحسوس وغلبة الشر على طبيعة الوجود كله فلم يكن فى «الوجود» الشرير محل خاص لقوة تفسده وتدحض فيه الحق أو تنقض فيه الخير ، وما فيه من حق ولا خير الا أن يفارقه الصالحون الناجون بأرواحهم الى عالم الفناء

وقد اشتمل الثالوث الابدى فى الديانة البرهمية على ثلاثة أرباب هم «براهما» الاله فى صورة الخالق و «فشنو» الاله فى صورة الحافظ و «شيفا» الاله فى صورة الهادم ، فكان الهدم - من ثم - عملا ربانيا يقوم به الاله فى صورة من صوره وينصف به الحق من هذا الوجود الباطل الذى ينبغى أن يزول ليمهد

سبيل الطهارة والصفاء ، وبهذه المثابة يضيق مجال الشيطان ولا تمس الحاجة اليه فى نظام الوجود

ومن الصعوبات التى تحير علماء المقارنة بين الاديان أن التناسخ أو تعدد الصور للروح الواحد عقيدة عميقة متشعبة فى الديانة البرهمية وفروعها ، فليست هى مقصورة على الانسان فى أدوار حياته المتعاقبة ولا على الحيوان فى أشكاله المتنوعة بل تعم الوجود كله من الارباب العليا الى مادونها من الحيوان والنبات حتى الجماد ، ولهذا يتفق أن تكون للاله صور متعددة تقترن النعمة ببعضها وتقترن النقمة بغيرها ، فيدين أناس للاله «شيفا» على أنه مصدر الخير وقائد الارواح فى طريق الفناء الى حظيرة «الوجود» الأسنى ، ويرهبه أناس آخرون على أنه سلطان الغضب والنكاية فلا رحمة عنده ولا موئل من قصاصه وتقلب أطواره .

وليس تعدد الصور كل ما يواجه العلماء من أسباب الحيرة وتناقض الصفات فى الاله الواحد ، بل هناك سبب آخر يضاعف هذا التعدد ولا يمنع «الشخصية» الربانية الواحدة أن تتولى اعمال العدد العديد من الشخصيات الربانية فى معظم الديانات ، وهذا السبب هو اضافة الـ «شاكتى» أى قرينة الاله الانثوية الى وظيفته فى المسائل الدنيوية

فكل اله له «شاكتى» بمعنى القرينة أو الزوجة ، هى التى تنوب عنه فى «شئون الدار» أو فى الشئون التى يتركها ولا يتفرغ لها ايثارا للعمل فى الآفاق العلوية

وتعود الاقاويل الى «الشاكتى» فتجعل لها طبيعتين : طبيعة بيضاء منها الرفق والرحمة ، وطبيعة سوداء منها العسف والقسوة ، وقد تتسمى الطبيعة الواحدة باسمين فتصبح «الشاكتى» الواحدة ذات أربعة أسماء غير اسمها الاصيل، وعلى

هذا المثال تسمى قرينة سيفا اله الشر باسمها الاصيل «ماهسوارى» ثم تسمى باسم «أوما» واسم «جورى» حين ترجى منها الرحمة والمودةوتسمى باسم «جورى»واسم«كالى» حين تخشىمنها النقمة وسوء النية ، واسمكالى الاخيرهوالاسم الذى يعرفها به عبادها الذين اشتهروا باسم الخناقين واتخذوا شعارهم فى القرابين البشرية قتل الضحايا بغير اراقة الدماء

وقد عاشت جماعة الخناقين زهاء ستة قرون تتعبد للالهة «كالى»بخنق ضحاياها والتقرب بأسلابهم على محاريبها،وتتخيل هذه الالهة على مثال امرأة عابسة تحيط خصرها بنطاق من الجماجم والسكاكين وتحمى كل من يطيمها ويتقرب اليها بتلك القرابين ، وعقيدتهم فى ذلك أن الاله «فشنو» يحافظ على الاحياء فيتكاثر عددهم ويعجز الاله «شيفا» عنملاحقتهفىمهمة الابادة والافناء ، فيستعين «بالشاكتى» كالى على هذه المهمة ويتزلف اليها عبادها بالمعونة على القتل مع اجتناب سفكالدماء لان الدم الذى يراق على الارض تتولد منه الحياة

وجماعة الخناقين هذه طائفة قليلة بين الملايين من الهنود الذين ينكرونعبادتها ويسفهون أحلامها ويحرمون قتلالحيوان، بل قتل الهوام والحشرات ، فضلا عن الانسان ولكنهم لاينكرون ربوبية «كالى» ولا يتركون عبادتها على النحو الذى يرتضونه ويحسبون أنه أقرب الى رضاها ، ومن ذلك أنهم يترهبون أو يكفون عن النسل فيرضونها بغير حاجة الى قتل الابرياء

وتلك الاسباب فى جملتها هى التى تحير علماء الاديان كلما ارادوا أن يحصروا الشر فى «شخصية شيطانية» تنعزل بقوتها عن القوى الالهية فى أقانيمها المتعددة

ولكنهم يثوبون فى النهاية الى عقيدة واحدة مشتركة بين

النحل والمذاهب ولا حيرة فيها عند تصوير الشر فى صـــورته الكونية الشاملة ، وهذه العقيدة هي الايمان بأن العالم المحسوس شر وباطل وان كل مايربط الانسان به شر وباطل مثله، وتشتمل روابط الانسان بالعالم المحسوس على كل مطمع وكل شهوة وكل أمل يفتنه بلذة من لذاته او قنية من مقتنياته ، وتتجمع هذه الفتن قاطبة فى «المرأة» لانها سبيل الروابط الدنيوية التى تقيد الحى بالدورات الابدية فى دولاب الولادة والموت ، وأن لعنة الموت لتلاحق كل من يولد ويلد حتى ينقطع عن النسل ويثوب الى «النرفانا» بغير علاقة ترده الى هذا العالم المحسوس ، ومن ثم يفضى به المطاف فى الآباد المتطاولة الى غاية كل مطاف من الفناء والسلام

ويلاحظ انهم يحيلون الامر على «الانوثة» كلما عرضوا لعمل من أعمال الارباب ينزهون عنه الالهة ويلحقونه بالشـــواغل الدنيوية الارضية

ويلاحظ كذلك انهم يقولون عن العالم المحسوس كله انه «مايا» او وهم وضلالة ، وانهم يصورون هذا «المايا» فى صورة أنثى شديدة الفتنة والغواية ، ويمثلون جمال العالم المحسوس بجمال الانثى التى تستعين بالغريزة الجنسية على خداع المفتونين عن الحقيقة . فيحسبون اللذة نعمة تبتغى وهى شقاء أبدى لايؤدى الى غير شقاء

وليس فى الديانة الهندية وفروعها المتشعبة شخصية واحدة تشبه شخصية الشيطان غير الرب الذى يسمونه «المارا» من الموت ، ويقولون أنه يسيطر على السماء السادسة وما دونها من العوالم الارضية، وكأنهم جمعوا فيه فتنة الحياة الدنيا مشخصة معروفة باسم واحد بدلا من تعميم القول على الفتن التى تساور

النفس ولا تتمثل لها ذات فى الحس أو الخيال

وهذا «المارا» هو الذى قيل فى قصة «بوذا» انه وسوس له وألح فى وسواسه ليشغله عن النسك ويصرفه عن مسلكه من الحكمة وهو مسلك الزهد والاعتدال

فالشر الكونى هو الشر النفسى الذى يخامر الضمير ويزين له ترك الحكمة والاقبال على الاوهام والاباطيل

وديانة الهند على هذا لم تبتدع شيطانا أو ارواحا شيطانية غير الارواح التى يسمونها بالراكشا ويردونها الى الشرآذم المشردة من ابناء البلاد الاصلاء الذين صمدوا للآريين زمنا ثم استكانوا على مضض وتربص أو على هوان واستسلام

أما «الشيطان الكونى» فهو مرادف للفتنة وكل ما يغرى النفس بمطامع الحياة

ويصعب على المتتبع للاعمال التى تنسب الى بعض الآلهة والاعمال الهامة التى تنسب الى الشياطين الهادمة أو المعادية للجنس البشرى أن يفرق بينهما بغير الرجوع الى النيات ، فقد تتشابه فى الهدم ولا تفترق عن القصد والنية ، فما كان هدما للقضاء على مطامع الدنيا وحبائلها فهو خير ، وما كان هدما للتنافس على هذه المطامع والوقوع فى هذه الحبائل فهو من عمل الشيطان كيفما كان الاسم الذى يطلق عليه

الشيطان
بين النهرين

ظفرت «بلاد النهرين» بعناية من المؤرخين الدينيين وعلماء المقارنة بين الاديان لم يظفر بها قطر آخر. لأنها ميدان للبحث لا يضارعه ميدان آخر فى اتساعه وامتداد تاريخه وتعدد أقوامه وتيسر البحث فيه لنوعين من المقارنة يندر جدا أن يتيسر فى رقعة أخرى من الكرة الارضية، وهما مقارنة الاديان ومقارنة الاجناس فى وقت واحد، اذ كان وادى الدجلة والفرات وطنا قديما أقام فيه الآريون والساميون والطورانيون، وسواء صح ان السومريين الذين أقاموا فيه زمنا قد وفدوا اليه من الصين أو لم يصح هذا القول الغالب فقد صح أن « زرادشت» نبى المجوسية عاش بين الطورانيين والمغول حقبة من الزمن ووفق بين عبادتهم وعبادة الثنوية المجوسية بعض التوفيق

وهذا التعدد فى السلالة يصاحبه تعدد آخر فى الاحوال الاجتماعية بين مجتمع المدن ومجتمع الرعاة ومجتمع الزراعة الدائمة ومجتمع الزراعة المتنقلة ، وبين أناس يبنون الهياكل وأناس لايعرفون البناء ، أو اناس يعبدون النار والكواكب وأناس يلصقون عبادتهم بالارض ومعالمها ، وعناصر الطبيعة التى تهيمن على أرزاقهم ومساعيهم

وتتضاعف العناية بالديانات التى نشأت بين النهرين لسبب غير هذه الاسباب يهتم به الاوربيون وأتباع الاديان الكتابية

على العموم ، لان مراجع الاديان الكتابية تبتدىء فى بلاد النهرين منذ عهد ابراهيم الخليل الى عهد الشريعة الموسوية وشريعة حمورابى الى عهد السبى واختلاط بنى اسرائيل بالبابليين والميديين واقتباسهم ما اقتبسوه منهم فى العرف الدينى والشعائر التى لها اتصال بمراسم العبادة ، ثم تأتى عبادة «مترا» وعبادة « المانوية » وقد زاحمتا المسيحية مزاحمة شديدة فى دولة الرومان من شواطىء آسيا الى الجزر البريطانية

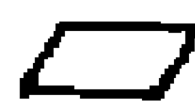
فالعقائد الدينية التى نشأت قديما حول بلاد النهرين لم تزل محور البحث ومرجع المقارنة والاستشهاد فى جميع الديانات الكبرى ، وأولها المسيحية التى يدين بها الاوربيون وهم أول من درس المقارنة بين الديانات على النهج الحديث

ونحن فى هذا الفصل لانقصر الكلام على البلاد التى تحصرها الاوضاع الجغرافية بين النهرين ، ولكننا نمضى معها الى حدود الحضارة التى تأثرت بها أو أثرت فيها من وراء النهرين شرقا الى أرض فارس ، ومن ورائها غربا وجنوبا الى الاقطار العربية أو الاقطار السامية التي كان لها اتصال بالدولة القائمة فى بابل وأشور ، ولا حاجة بنا ــ فى هذا الفصل ــ الى استقصاء العقائد والشعائر فى هذه الرقعة الواسعة من المساكن والسكان ، وانما ننظر الى عقائدها وشعائرها من جانب الصلة بموضوع الكتاب وهو الكلام على « الشيطان » أو قوة الشر العالمية ، وقد كان لحضارة النهرين صلة وثيقة بجميع الامم التى دخلت فى عداد المؤمنين بالاديان الكتابية ، فليست فى حضارات العالم حضارة أحق بالدراسة فى هذا الصدد من الحضارتين البابلية والفارسية ، وكلتاهما تدخل فى العنوان الشامل الذى نطلقه على أقطار « ما بين النهرين » بشىء من

التجوز من الوجهة الجغرافية ، وبغير تجوز من الوجهة الثقافية

فنحن نرجع الى « بابل » لفهم التطور فى معنى « الخطيئة » مميزا من معنى الذنب أو العيب أو الرذيلة أو الجريمة

ونحن نرجع الى « فارس » لفهم التطور فى مذهب «الثنوية» أو النزاع بين سلطان الخير وسلطان الشر فى الاكوان العليا والسفلى ، ومنها الكرة الارضية



اذا كنا نعرف للحضارة المصرية صبغة نلتمسها فى جميع مظاهرها وهى صبغة الحكم والشريعة ونظام الدولة ، فالصبغة التى تغلب على حضارة بابل — على هذا النحو — هى صبغة التنجيم والازياج الفلكية ، وسنرى أن علماء المقارنة بين الاديان لم يلتفتوا الى هذه الناحية فى علاقتها بفهم المقصود من معنى «الخطيئة» مع أنها — على ما نرى — لا تفهم حق فهمها ما لم تبتدىء من هذه البداية

لقد عرف البابليون رصد الكواكب من أقدم الازمنة ، وعلقوا مصائر الناس وأقدارهم بسعودها ونحوسها ، فلا يسعد أحدهم بنعمة السماء ولا يشقى بغضبها الا وهو فى الحالتين عرضة للقضاء المسطور فى أزياج النجوم

وقد نشأ عندهم علم الفلك بحسابه وتقديره مصاحبا لعلم التنجيم بخرافاته وأوهامه، ولم تكن كل هذه الخرافات والاوهام خداعا من الكهان السحرة ، بل كانت عندهم عقيدة يصدقونها ويمزجونها بالقصص والالغاز التى يدركها العامة ولا يدركون ما وراءها

وما من قصة بلغتنا من أرض بابل فى تاريخها القديم الا

وهى قصة من قصص المناظرة بين الارض والنجوم فى شكل من الاشكال التى يفتن فيها الحس والخيال

فربة الارض « تيامات » تتحدى السماء فتستعين بالطوافين على حكم أقطارها وتخلق من جوفها الحيات والحيتان لتوطيد سلطانها ، وبرج بابل يقيمه المتمردون من البشر ليرتفعوا به الى مناجزة الارباب فى سماواتها ، وكل ثورة من ثورات الاساطير المزعومة فانما هى في مدلولها خروج من الارض على ارادة السماء لا تلبث السماء أن تكبحه وتروضه على الطاعة الواجبة ، وعلى التسليم لها بحقوق الصلاة والقربان

فلم يكن للبابلى من هم فى سره وعلانيته الا أن يستطلع إرادة النجوم ويخرج بالاذعان لها وموافقة هواها من عداد « المنحوسين » الى عداد السعداء

ويسأل العارفين بالتنجيم : ماذا تريد النجوم ؟ وماذا كتب لى فى كتابها المرقوم ؟ فما كان رضى للنجوم فهو الفلاح والنجاح ، وما لم يكن رضى لها فهو الخيبة والضياع

لم يكن الامر هنا أمر الحسن والقبيح أو أمر الصلاح والفساد أو أمر الاستقامة والاجرام ، كلا ... وانما هو أمر الرضى من كواكب السماء بما يوافق المسطور المكتوب أو أمر الغضب الذى يحيق بمن يخالف قضاء الكواكب فى مجراه

والفارق بين الامرين انما هو الفارق بين الموفق السعيد والخائب المنحوس ، أو بين من يسلك سبيل السلامة ومن يقترف حماقة الخلاف بغير رجاء



وينبغى أن نفهم هذا الخلاف بالمعنى الذى يميزه من معنى الذنب ومعنى العيب ومعنى الرذيلة ومعنى الجريمة ، فانه

يباينها فى طبيعته ولا يتأتى للانسان ان يعرف موضع التحريم منه الا اذا عرف مشيئة الله فيه ، وليست الذنوب أو العيوب او الرذائل أو الجرائم بهذه الصفة الخاصة بين المحرمات ، لان الانسان قد يعرفها ببداهته أو بتعليم المجتمع الذى يعيش فيه

فالذنب اساءة قد يجنيها الانسان على من هو مثله أو من هو دونه وقد يصاب بها كما يصيب ، فهو مسألة انصاف أو اجحاف فى المعاملة

والعيب نقص يعترى الانسان من عجزه أو جهله ، فهو مسألة كفاية وقصور

والرذيلة اسفاف يتورع عنه صاحب الفضيلة الذى يروض نفسه على الكمال ، فهى مسألة كرامة وابتذال

والجريمة عدوان بغير الحق يتعارف الناس على انكاره ومجازاة فاعله ، فهى مسألة قانون وقضاء

أما الخلاف الذى يسمى « خطيئة » فيكفى فيه أن يعمل الانسان ما لم يرده الاله ولو لم يكن من ورائه ضرر يعلمه ، لأن الخلاف قلة ايمان بالمشيئة الالهية ، فهو مسألة أدب أو سوء أدب مع الله

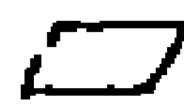
ولفهم الخطيئة على هذا الوجه مشابه فى علم السحر والكهانة تقربه من الاذهان على نحو سائغ فى كل تعليم . فليس من أدب التلميذ الذى يتلقى خفايا السحر والتنجيم أن يجترىء على كشف القناع عن سر يحجبه المعلم الى حين ، وعليه أن يغمض عنه عينيه ثقة منه بما يختاره له معلمه من درجات المعرفة على حسب مواقيتها المقدورة ، فان خالفه يوما متعجلا أو مستريبا فهذا الخلاف سوء أدب أو جهل يخرجه من عداد الصالحين لعلم الاسرار

وهذا رسم الخطيئة بين سائر المحرمات ! رسمها انها تحريم يناط بمشيئة الله ولا يطلب من العباد أن يتجنبوه لسبب غير هذه المشيئة ، وان خفيت عليهم وجوه الحكمة فيها

وقد أورد برتشارد (١) فى كتابه عن شعائر الشرق الادنى الغابرة وعلاقتها بالعهد القديم ، نماذج من الصلوات البابلية المحفوظة يعلن أصحابها التوبة، ويطلبون الغفران لانهم اكلوا طعاما محرما ووطئوا على بقعة محرمة بغير علم ولا اجتراء على مغبة العقاب

وقد نزيد المسألة توضيحا حين نقول ان الاله وحده هو الذى يحق له أن يحرم شيئا ولا يذكر سبب تحريمه، لانه هو وحده الذى يعلم مصلحة الخلق جميعا فيما يبيحه لهم وينهاهم عنه ، فأما غير الاله فالمحرمات التى ينهى عنها لغير سبب لا تدين احدا بالخطيئة وكل مايخشاه من اتيانها أن يتعرض للغضب أو للعقاب

فلا جرم تتقدم البلاد البابلية غيرها من البلاد لانها تقدمتها فى كشف الطوالع ورصد الكواكب وتفسير ماتنبىء عنه من سعود أو نحوس، وتستحيل السعود والنحوس الى مباحات ومحظورات ومحللات ومحرمات حين تستحيل الكواكب اربابا علوية تريد السعد والنحس بحساب وتقدير



أما الحصة التى ساهمت بها عقيدة فارس فى تاريخ الاديان ، وتاريخ قوة الشر على التخصيص ، فهى «الثنوية» أو تنازع النور والظلام على سيادة الوجود

ويظهر أن الثنوية هذه عريقة الاصل عميقة الجذور فى البقاع

---

(١) « Ancient Near Eastern Texts », by Pritchard

الفارسية وماحولها ، فانها بعد تهذيب الاديان الكتابية لها لم تزل متغلغلة فى أفكار بعض الكتابيين ممن ينتمون الى اليهودية او الاسلام ويقيمون فى أطراف البلاد التى كانت تحيط بها حضارة مابين النهرين منذ أربعين قرنا أوتزيد، وقد روى الدكتور يوسف وولف صاحب الرحلة الى بخارى (من سنة ١٨٤٣ الى سنة ١٨٤٥) ان شيخا يهوديا يدعى ناثان زاره ومعه درويش من كشغار فسأله الدرويش ممتحنا : من خلق النار والماء ؟ .. قال الدكتور وولف : فلما أجبته أنه هو الله ، صاح بى قائلا : صه ! لاشيء من ذاك ، لان النار والماء عنصران مهلكان ولا ينبغى لله أن يخلق المهلكات ، وعليك ان تعلم أن الكون يحكمه الهان : أحدهما اله الملأ الأعلى وهو رب الخير الذى خلق نورا لايحرق وخاق الوردة والبلبل ، وقد تصدى له اله العالم الاسفل فحجب عنه خلائق الخير وشنها حربا لاتزال حتى اليوم حامية الاوار ، فمن عمل خيرا من الناس فهم خدام الاله الاعلى ، ومن عمل شرا منهم فهم خدام الاله الاسفل ، وسوف تحتدم الحرب كرة أخرى فيصعد الاله الاسفل الى السماء السابعة تحلق معـــه الوف من جنده وتطير بينها الحيات والثعابين ، فيدور القتال سجالا حتى ينهزم الاله الاسفل ويلقى عصا الطاعة لاله السماء

وأغرب من بقاء هذه العقيدة فى موطن الثنوية أنها بقيت بين الاوربيين الى القرن السابع عشر وكانت لها نحل ومعابد من بلاد البلقان الى العواصم الفرنسية فى الشمال والجنوب، واذا صحت بعض الاخبار ــ مما نشير اليه فى الفصول التالية ــ فقد بقيت شعبة منها الى القرن العشرين تتستر باسم الماسونية، وتستقبل المصلين فى باريس حيث يقربون القرابين الى الشيطان ويكررون التلاوات التى كانت ترتل فى معابد النحل الشيطانية قبل ثلاثة

قرون وتدور خلاصتها على الايمان بسيادة الشيطان على الدنيا واعتبار المادة خلقة شيطانية يتنزه عنها آله السماء ولا تسرى عليها أوامره ونواهيه

وقد تطور الايمان بالثنوية أو هوقد ترقى مع الزمن في القرون الاولى كأنه جـذر عريق لا يقتلع مرة واحدة ولا يزال قابلا للنمو فى منبت بعد منبت من العبادات الخالية

فكان الوجود قسمة متساوية بين النور والظلام كما يتساوى النهار والليل ، ثم ترقى المؤمنون بهذه الثنوية فآمنوا باله واحد يسمونه «زروان» وقالوا بولدين له كانا فى رحم الغيب فوعد أكبرهما بالسيادة على الدنيا فاحتال اله الظلام منهمـا على الخروج أولا لعلمه بمسالك الظلمة فكان له السلطان على الرغم من أبيه انجازا لوعده ، ولم يستطع الاب الا أن يعد ابنه اله النور بالغلبة بعد حين يقدرونه بتسعة آلاف من السنين الكونية

هذان الالهان هما «أورمزد» و «أهرمان» أو الروح الطيب والروح الخبيث

ومن عقائد بعض الثنويه أن الخلائق النافعة من صنع اله النور وان الخلائق الضارة أو التى لانفع فيها من صنع اله الظلام

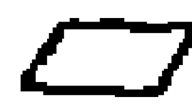
وبعض طوائف الثنوية يعتقدون أن الجسد كله شر ولكن الارواح العلوية أرادت أن تحارب جنود الظلام فأنبأها الاله الاعظم أنها لاتقوى على حربها بغير أجساد كأجسادها ، فان شاءت بقيت على صفائها ، وان شاءت لبست اجسادا من المادة فكافحتها بسلاحها ، وهذه هى الارواح العلويه التى بقى الاكثرون منهم على صفائهم ، وزانت الغواية الجسدية على بعضهم فغلبتهم الفتن والشهوات

ويعتقد فريق من الثنوية أن آدم من خلقة الشيطان ولكن

الارواح العلوية تعالج أن تصلحه وتقوم أوده وتستخلصه من وهدة الطين بقبس من النور تدسه له فى وجدانه فيأنف الحياة الارضية ويتطلع ببصيرته الى السماء

وجاءت المانوية فانتشرت فى بقاع الدولة الرومانية بعد ظهور المسيحيةونافستها أشد منافسة فىآسيا الصغرى وبلاد الروم من آسيا وأوربة ، فامتلأت معاهد الدينين بالكلام عنالشيطان واستصوب أناس منآباء الكنيسة أن ينتزعوا شعائرعباد النور فجعلوا يوم الاحد يوم الاسبوع المختار لانه كان مخصصا لعبادة الشمس(١)وجعلوا اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر يوم الميلاد لانه كان يوما ينصرف فيه المسيحيون الى سهرات الوثنيين لاعتقاد هؤلاء انه اليوم الذى يقصر فيه الليل ويطول النهار فهو هزيمة لاله الظلمة ، ونصر لاله النور

وقبل المسيحية نظر اليونان الوثنيون الى أصول العقيدة الثنوية فحولوا أسطورة زروان الذى ولد له « أورمزد » الى أسطورة كرونوس الذي ولد له زيوس رب الارباب وسيد الملأ الأعلى ، فبحق يهتم الباحثون الدينيون بهذا الميراث العريق من بلاد بين النهرين ، لانه سابقة لاتنقطع عما تلاها من أطوارالايمان بالخير والشر وبالقوة الكونية التى نزهتها الاديان الكتابية بعد ذلك فى عقيدة الوحدانية ، ودونها القوة الكونية التى تمثل فيها الشر مخلوقا متمردا على الله



وفى الوعى الدينى عوامل ذات بال لاتحسب من الفرائض والشعائر ولكنها تحسب من الخواطر التى تخامر النفس وتعمل

---

(١) ومن هنا بقى اسم « Sunday » بالانجليزية

عملها فى تقويم الاخلاق المصطبغة بصبغة الايمان

من هذه الخواطر التى تستكثر على اللاهوت القديم خاطران يتخللان كتب الديانة «الزردشتية» من أقدم عصورها ، أولهما أن الشر «شك» وأنه نبت فى الكون لاول مرة حين تساءل زروان بينه وبين نفسه : وما جدوى كل هذا التكوين وكل هذا التقدير؟ والخاطر الآخر أن الشر كذب كما جاء فى قصة «يامه» التى تضمنت أقدم الخواطر عن السقوط والخلاص، فقد دعاه أورمزد لحراسة الحق فاستعفاه لعظم الامانة واشفاقه من العجز عنها، فأرسله الى الارض وخوله ما سأله من الغلبة على الموت، فامتلأت الارض بالاحياء التى لاتفنى ، وامتلأت نفس «يامة» بالخيلاء فسولت له أن يناظر الاله بهذه العصمة وان يكاذب نفسه بخيلائه ، فلحق به الشر وجاءه الموت مع الشر ، فكان ذلك من جناية «يامه» على نفسه وعلى زمرته تسللت الى الوجود من مدخل الباطل وهو أصل جميع الشرور

هذان الخاطران يتخللان الكتب الزردشتية من أقدم العصور، ولم يدخلا العقائد التالية من طريق الفكر والتأمل بل دخلاهامن طريق الاشكال والرموز التى يلم بها الحس قبل التفكير فيها

الشيطان
فى حضارة اليونان

يحتاج النقاد التاريخيون الى تحرير موازينهم جميعا قبل الاطمئنان الى رأى صحيح فى أى شأن من الشئون السياسية التى قامت عليها حضارة اليونان

ذلك بأنه سيرى بين يديه تاريخين غير متفقين فى بعض الاصول وفى كثير من التفصيلات: تاريخ الامة اليونانية الحقيقية، وتاريخ الامة اليونانية التى جعلها الاوربيون المحدثون عنوانا للفضائل الغربية فى مسائل العلم والفن والسياسة والاخلاق ، كلما أرادوا أن يضعوا أنفسهم موضع المناظرة والموازنة أمام الشرقيين فيما قدروه لهم من نصيب فى هذه المطالب وهذه المزايا

وبلغ من رغبة الاوربيين فى ترجيح الغرب كله باسم اليونان أن فريقا منهم تنكر للمسيحية لانها ثمرة شرقية، وفريقا منهم زعم أن المسيحية ثمرة الفكرة اليونانية من طريق بولس الرسول وجماعة الفلاسفة المسيحيين الذين طبقوا الدين على الفلسفة بعد القرن الاول للميلاد ، وذكروا من براهينهم على ذلك أن الاناجيل كتبت باللغة اليونانية وأن كلمة الانجيل نفسها بمعنى البشارة من لغة اليونان

وقد عمد الغرب الى هذا الاستغلال التاريخى لتراث اليونان لانه احتاج اليه لتدعيم دعوى السيادة والرجحان على أمم الشرق فى عصر الاستعمار ، فاتخذ من تعظيم اليونان وسيلة الى تحقير

الشرقيين واستباحة السيطرة عليهم بدعوى الوصاية الطبيعية التى تخول المتقدمين من بنى آدم أمانة الاشراف على تعليم المتأخرين

ان أمة اليونان الحقيقية غير هذه الامة «المصنوعة» التى احتال بها الغربيون فى عصر الاستعمار على خدمة السياسة وخدمة العصبية ومرضاة الغرور الذى يساور «الغربى» فى مقام المفاخرة وان لم يكن من خدام الاستعمار

وليس من المنصفين من يبخس لهذه الامة الحقيقية فضلا فى تاريخ الثقافة الانسانية ، فمما لانزاع فيه أن نصيبها فى هذه الثقافة لايعلوه نصيب ولا حاجة بها معه الى انتحال الدعوى واغتصاب الفخار بغير دليل ، وحسبها أنها أخرجت للعالم سقراط وأفلاطون وأرسطو فى ثلاثة اجيال متعاقبة مع من اخرجتهم من الحكماء السابقين واللاحقين، وانها تعد من شعرائها أمثال هوميروس ويوربيدس واسكايلاس وسفوكليس وارستوفان ، ومن علمائها ومؤرخيها ذلك الطراز الاول الذى تلاحق على مدى ثلاثة قرون فى عصر لم يكن فيه أحد يضارعهم أو يقاربهم فى هذه العلوم ، ومعهم رهط من نوابغ الفن وأساطين السياسة والحكم يوازنون نظراءهم من كل أمة ويرجحون أحيانا على أولئك النظراء بالكثرة والقيمة

حسب الامة اليونانية هذا الفخار الذى يقره جميع المنصفين من الشرقيين والغربيين

فأما انها استأثرت بالقيم الانسانية العليا فى الذوق والفكر والخلق فتلك هى الدعوى التى يروجها الغرض ولا يسلمها التاريخ ، فاذا كانت الشهادة لها بهذا الاستئثار هى المقدمة اللازمة للوصول الى النتيجة المقصودة من تحقير الشرق وتسويغ

استعباده فهى مناجزة يقابلها الشرقيون بما ينبغى لهـــا من التصحيح والتفنيد ، وانها لينبغى لها أن تصحح وتفندلفرضين واجبين : أحدهما تمحيص الحقيقة والآخر محو الاثر السيىء الذى تعقبه فى نفوس ابناء الشرق فتوقع فيها اليأس وتقضى عليها بالمهانة ضربة لازب بحكم الخصائص الفطرية التى لا تتغير ولا تتبدل مع الزمن ، فى زعم الزاعمين

لقد حصروا فى طبيعة الغربى – من وراء اليونانى–كل قيمة انسانية عالية فى مزايا الفكر أو الحكم أو الخلق ، وقابلوه فى هذه الخصائص بالشرقى فخرج الغربى بمزية العقل الذى يطلب العلم للعلم ، ومزية الحكم الذى يقوم على حقوق الشعب ومزية الخلق الذى تتقدم فيه الفضائل الاجتماعية على دواعى الانانية ودوافع الغريزة ، وخرج الشرقى من هذه الموازنة بالطرف النقيض كأنهما متقابلان على خط من خطوط المسطرة لايتلاقى طرفاه من أقصاه الى أقصاه

ونحن نصحح هذه المزاعم فى مناسباتها انصافا للحقيقة ومنعا للضرر الذى يتخلف من آثارها وبخاصة حين يتلقفها من أبناء الشرق من يحب الشهرة بالتحدى والمنافرة ومن يحب التشدق بالغرائب والتعالم بالبدع والنقائض ، وقديما رأينا من أصحاب هذه النزعة من ينافرون بنى آدم اعتزازا بعنصر الشيطان ، وكذلك كان بشار بن برد حين قال :

ابليس اشرف من أبيــكم آدم
فتبينـــــوا يا معشر الاشرار
النـــار عنصره وآدم طينــــة
والطين لايســمو ســـمو النار

فليس للغربيين امتياز فطرى فى طلب المعرفة للمعرفة بغير

نظر الى منافع الكسب والصناعة ، وليس الشرقيون محرومين من طلب المعرفة للمعرفة فى قديم الزمن أو حديثه ، فقد رصد المصريون ــ مثلا ــ كواكب السماء وعرفوا أن الشعرى تظهر فى موضع معلوم عند وصول الفيضان الى منف فاستخدموا الرصد بعد ذلك فى تقرير مواعيد الزراعة ، ولكنهم كما قال صاحب كتاب الرياضيات فى الثقافة الغربية قد رصدوها مئات السنين حبا للمعرفة قبل أن يثبت لهم ذلك الموعد الذى انتفعوا به فى تنظيم الرى والزراعة (١)

وانما امتاز الاغريق بالبحوث الفلسفية فى زمن من الازمان لسبب واضح : هو أن هذه البحوث كانت مباحة عندهم حيث كانت تمتنع على غيرهم من أبناء الدول الشرقية العريقة ، وهى لم تكن مباحة لهم لمزية أصلية فى طبيعة التركيب . . . ولكنها أبيحت لهم لان بلادهم نشأت وتطورت دون أن ينشأ فيها عرش قوى وكهانة قوية ، ولو قامت عندهم الدولة القوية والكهانة القوية كما قامت فى مصر وبابل لكان شأنهم فى أسرار الدين والمسائل الالهية كشأن البابليين والمصريين . فالبلاد التى تجرى فيها الانهار الكبيرة تنشأ فيها الممالك الراسخة وتنشأ مع الممالك كهانات قوية السلطان تستأثر بالبحث فى أصول الاشياء وحقائق التكوين ، وتتولى شئون العلم والتعليم كأنها حق لها مقصور عليها لا يجوز الافتئات عليه والا كان المفتئت كالمعتدى على نظام الدولة ومحراب العبادة ، ومتى طال الامد بهذه الكهانات جيلا بعد جيل وعصرا بعد عصر تمكن سلطانها وتشعبت دعاواها وتلبست معلوماتها بلباس الاسرار والطلاسم وابتعدت شيئا فشيئا عن

---

(١) «Mathematics in Western Culture», by Morris Kline

نطاق البحث الحر الى نطاق المحفوظات والمأثورات»

وقد حكم على سقراط بالموت وهرب فيثاغوراس قبله من وطنه وهرب غيره من الفلاسفة من أثينا دون أن تكون فى بلادهم تلك الكهانات الراسخة التى طالت بها العهود فى البلاد الشرقية « وحدث للاوربيين ما حدث فى الشرق حين قامت فى بلادهم الكهانات القوية وبسطت سلطانها على التعليم ومعارض البحث فى حقائق الدين وأسرار الطبيعة » (١)

ودعوى الامتياز الفطرى بالحكم الحر أضعف من دعوى الامتياز الفطرى بطلب المعرفة حبا للمعرفة

فالشائع على الألسنة أن التقدم العقلى ألهم اليونان أن يختاروا الحكومة الديمقراطية ـ أى الحكومة الشعبية ـ من كلمة ديموس بمعنى الشعب فى اللغة اليونانية القديمة

وهذا خطأ من جميع أطرافه . فان الحكم الذى سمى بالديمقراطى أو النيابى لانه يجرى بالانتخاب لم يبتدىء فى اثينا حيث يتكلم الفلاسفة ويتذاكرون ، بل كان مبدؤه فى « اسبرطة » العملية التي تختار النظام لانه أيسر تطبيقا وأنفع عملا ، وتتبع هذه السنة فى اختيار كل خطة تنتظم بها الاجراءات ويمتنع بها الشغب والنزاع

وكلمة « ديمقراطية » لم تؤخذ من حكم الشعب ولكنها اخذت من كلمة « ديموس » بمعنى المحلة التى تقيم بها القبيلة ثم استعيرت للقبيلة نفسها وللحكومة التى تشترك فيها القبائل

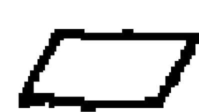
وقد كان الانتخاب فى أثينا القديمة مسألة « اجراءات » كما كان فى اسبرطة من قبلها . ولم يحدث قط أن أحدا نال حق

---

(١) راجع كتابنا عن أثر العرب فى الحضارة الأوربية

الانتخاب لانه حق انساني تناط به التبعات والواجبات ، وانما كانت الطوائف تناله واحدة بعد أخرى كلما اضطرت الدولة الى الاستعانة بها فى القتال ، فلم تنله طائفة الملاحين مثلا الا بعد ثبوت الحاجة اليهم فى الحروب البحرية بعد وقعة سلاميس . ويصدق هذا القول على الديمقراطية الغربية كلها بعد الديمقراطية اليونانية القديمة بأكثر من عشرين قرنا ، فان عمال الصناعة نالوه بعد عمال الزراعة ، لان عمال الصناعة ألزم للدولة من غيرهم فى معامل الذخيرة والسلاح ، وأقدر على المطالبة والاضراب . ولم تنل المرأة حق الانتخاب الا بعد ثبوت الحاجة اليها فى تلك المعامل مع الحاح الطلب على المجندين من الرجال ، ولم يصل الزنوج الامريكيون الى تطبيق هذا الحق فعلا الا بعد الحرب العالمية الثانية التى اشتركوا فيها مقاتلين كما اشتركوا فيها صناعا للذخيرة والسلاح

أما حكم الشورى الذى هو تكليف انسانى منوط بحقوق المساواة وتبعات الحكام والمحكومين ، فلم ينشأ فى اليونان ولا فى أمة غربية ، بل نشأ فى الاسلام فى الجزيرة العربية ولم تسبقه اليه ملة ولا دعوة فكرية



ونأتى بعد بيان الحقيقة فى امتياز المعرفة وامتياز الحكم الى موضوع هذا الكتاب وهو « قوة الشر » ومكانها من الاله الاكبر أو من نظام الوجود .

ففى الحضارات الشرقية التى أجملنا القول فيها رأينا أن « قوة الشر » مغضوب عليها لانها تضر وتفسد وتدس الغواية على الانسان ، وخلاصة المعايير الاخلاقية هنا أن القيم الصالحة فى جانب الاله ، والقيم الفاسدة أو الخبيثة فى جانب « قوة

الشر » أو الشيطان

لكن الامر ينقلب تماما فى معايير الأرباب اليونانيين ، لان « برومثيوس » الذى ينصب عليه غضب الارباب وكبيرهم زيوس هوالمعلم الذى هدى الانسان الى سر النار ، وألهمه السعى فى طلب البقاء ، وبصره بالمجهول من خفايا الكون الذى يعيش فيه ، وتمثله الاساطير على قسط وافر من الفطنة يغار منه رب الأرباب ويخيل اليه من أجل ذلك أنه يتعالم عليه

أما رب الارباب ـ زيوس ـ فهو أشبه ما يكون بالشيطان فى الديانات الشرقية القديمة ، وهو فى جميع صوره شهوان نهم أكول شديد الطمع لا يبالى شيئا من الدنيا غير استبقاء سطوته وموارد خزانته ، ولهذا أرسل الصاعقة القاتلة على « اسقولاب » أبى الطب لانه يشفى المرضى فلا يموتون ويخسر «بلوطس» فى العالم الاسفل ضرائب نقلهم الى الهاوية السوداء

وتمتلىء الاساطير اليونانية بأنباء الشجار بين رب الأرباب هذا وقرينته « هيرا » التى كانت تفاجئه فى خياناته الغرامية مع نساء الالهة وبنى الانسان ، وربما عنفته فى بعض هذه المشاجرات لانه ينحرف نحو « الشذوذ الجنسى » فيهبط الى الارض ليختطف منها الغلام الجميل « جانيميد » ويجعله ساقيا فى الملأ الاعلى يدير الرحيق عليه وعلى ندمائه المقربين

وتتمثل لنا صورة زيوس هذا فى أساطيره الكثيرة نموذجا للقوة الجسدية وللحقد على من يظهرون الذكاء ويحرمونه لذات المخدع والخوان ، فان غضب فانما يغضب لفوات لذة أو أكلة ، وان رضى فانما يرضى لخدمة أو وساطة فى طعام أو غرام، وهذه احدى المحاورات بينه وبين برومثيوس كما تمثلها « لوسيان الساموسى » أديب الاساطير المشهور

ـ أطلقني يا زيوس • حسبي ما قاسيت

ـ أطلقك ؟ أطلقك أنت ؟ كيف ؟ انك لأولى أن يزاد عليك ثقل الاغلال ، وأن تطبق عليك جبال القوقاز جميعا وأن ينهش من كبدك اثنا عشر عقابا بدلا من هذا العقاب الواحد ، فانك أنت الذى أغريت هذه المخلوقات البشرية اللعينة بأن تجترىء على مناوأتنا ، وأنت الذى اختلست سر النـــار ، وأنت الذى سويت المرأة ، وما بى من حاجة أن أذكـرك بما صنعت حين وضعت لى العظم على المائدة وغطيته بالشحم تخدعنى عن طعامى فذق اذن جزاءك فانك به لجدير

ـ وهل ترانى لم أصب من ذلك الجزاء ما هو حسبى ؟ ألم ألصق هنا بالجبل سنين بعد سنين يأكل من كبدى عقابك هذا اللعين الآثيم

ـ انك لم تصب عشر معشار الجزاء الذى أنت به حقيق

ـ تأمل • اننى لا أطلب منك الافـــراج عنى سماحة بغير عوض ، وانما أهب لك سرا من الاسرار الغالية التى تعنيك

ـ آه • انها اذن لحيلة من حيل برومثيوس

ـ حيلة من حيلى ؟ ولأى غرض ؟ ان جبل القفقاز موجود ، وانك لقادر على الرجعة بى اليه ان كذبت عليك

ـ قل لى أولا فى أى شىء تكون هذه النصيحة الغالية

ـ أاذا أنبأتك حقا بشىء عن هذه النصيحة ألا تعلم منهـا أيضا أننى أحس بالنبوءة عن الغيب ؟

ـ بكل يقين

ـ انك على موعد زيارة لثيتس

ـ الى هنا أصبت . فماذا بعد هذا ؟ قل . اننى الآن أصغى اليك

ـ لا تضاجعها يا زيوس • فان بنت نيريس لاتلبث أن تحمل منك حتى تلد طفلا يبتليك بما تبتليني به الآن

ـ تعني انني أفقد عرشي ؟

ـ أعيذك من القضاء ، وانما أنبئك بما سيكون من وراء ذلك اللقاء

ـ اذن وداعا يا ثيتس • وأنت يا بروميثيوس سيأتيك هيفستس بالفرج القريب



ورواية لوسيان لاخبار بروميثيوس مع رب الأرباب تطابق رواية « هزيود » الذى تولى تنقية الاساطير وحاول أن يعرض زيوس فى معرض التقديس والتنزيه ، فلم يترفع به عن وصمة النهم الذى يغضب لأكلة ، ولا عن تهمة الغيرة من ذوى الفطنة والحيلة بل ألقى اللوم على المغضوب عليهم لانهم استحقوا الغضب بالتعالم عليه ، وحكى وهو يبسط القول فى أوائل خلق الكون قصته التالية :

« ••• وولدت كليمين بنت الاوقيانوس ولدا أصمع القلب هو الاطلس ، وكذلك ولدت منوتيوس المجيد ، وبروميثيوس اللبيب صاحب الحيل والاساليب ، وايبمثيوس الذى كان من مبدأ أمره شرا على الناس الذين يأكلون الخبز لانه هو الذى أخذ من زيوس المرأة التى خلقها ، وكان منوتيوس ثائرا مثيرا فرأى زيوس بثاقب نظره أن يرجمه بصاعقة هبطت به الى أرينوس لادعائه وامعانه فى كبريائه ••• وقضى على بروميثيوس ذى البديهة الحاضرة والعارضة القوية أن يوثق بأغلال لا يفلت منها وقيود قاسية لا ترحمه ، وان يطعن أحشاءه بسهم يكشف عن كبده لينهشها النسر الطويل الجناحين فيلتهمها بالنهار ويتركها

فى سواد الليل تعود سوية كما كانت ليعاود تمزيقها فى الصباح ، وقد جاء هرقليس فقتل هذا النسروأنقذ بروميثيوس من عذابه ... ولم يكن ذلك بغير رضى من زيوس صاحب العرش الرفيع فى الاولمب وانما أراد نباهة الشأن لابنه هرقليس ... فنظر بعين الرضى الى فعلته وان يكن غاضبا من بروميثيوس لانه تسامى الى مناظرة الاله الاكبر فى الذكاء ... وقد كانت لذلك قصة يوم انقسم الارباب والبشر وذبح بروميثيوس ثورا عظيما ليطعمهم منه . فسولت له نفسه أن يخدع زيوس وأن يضع اللحم الجزل أمام غيره ويضع أمامه عظما مكسوا بالشحم يلمع عليه ويخفى ما تحته بلباقته وخبثه ،فلم يلبث زيوس أن صاح به : « يا ابن يابيتس سيد السادة . ما أشد اجحافك ـ سيدى ـ فى قسمتك ! »

كذلك قال زيوس صاحب الحكمة الخالدة يؤنبه ، فلم ينس بروميثيوس مكره وراح يجيبه فى ابتسام وصوت خفيض : « خذ من هذه الانصبة جميعها ما ترضاه » وظن انه يحتال على الاله الاكبر بهذه الخديعة ، ولكن آلاله الاكبر صاحب الحكمة الخالدة لمح كيده ولم يخف عليه قصده ، وأضمر فى قلبه شرا لأبناء الفناء من البشر لا محيص لهم من قضائه ، وتناول الشحم الابيض بكلتا يديه وقلبه مفعم بالغضب وروحه يتلهب سخطا كلما رأى العظم الابيض مدسوسا فى خبث واحتيال ، ولهذا قضى على عشائر البشر أن تحرق العظم الابيض على المذابح المعطرة قربانا للارباب الخالدين . ويزمجر مرسل الغمام بصواعقه محنقا اذ يقول لبروميثيوس :

« يا ابن يابيتس . يا بارعا فوق البارعين . كأنك ياسيدى لم تنس بعد أساليبك فى المكر والخداع ! »

كذلك قال زيوس السرمدى الحكمة فى غضبه ، وظل منـذ تلك الساعة يذكر الحيلة ويأبى أن يسلم سر النار الى الخلائق البشرية الهالكة التى تعيش عـلى الارض • الا أن بروميثيوس النسيب الحسيب غلبه دهاؤه ، واختلس قبسا من النار فى جوف قصبته . وأحس زيوس مرسل الصـواعق فى الملا بلذعة فى فؤاده حين لمح النار بين أبناء البشر ...

ثم مضى هزيود يروى قصـة المرأة التى خلقها زيوس شرا للبشر ، وجعل اجتنابها فى الوقت نفسه شرا يورث العقم ، وجاء بروميثيوس فأغرى الانسان بالنسل مستهينا بشر الفتنة حذرا من شر الفناء

وبديه أن تستهوى الشعراء هذه الاسـطورة التى تحيط بمأساة البشر بين القوة الالهية التى تحبهم والقوة الكبرى التى تبغضهم وتلقيهم بين شرين من الفتنة والفناء ، فقد جـرب الشعراء أخيلتهم فى نظم هذه الاسطورة وايداعها كل ما تتسع له من أحاسيسهم وأفكارهم ومن تصويراتهم للقدر المحيـط بالانسان بين السماوات والأرضين ، وقد تنـاولها فى العصر القديم شاعر من أكبر شعراء اليونان وتناولها فى العصر الحديث شاعر من أكبر شعراء الانجليز وشعراء الغرب أجمعين ، فنظم فيها « اسكايلاس » قصيدته بعنـوان « بروميثيوس المعتقل » ونظم فيها « شلى » قصيدته بعنوان « بروميثيوس الطليق » ، وكلاهما قد وضع بروميثيوس وزيوس فى مكانيهما من الانصاف والاجحاف ومن الخير والشر ومن البر والعقوق ، فجعل الشاعر اليونانى زبانية زيوس نفسه يرثون لبروميثيوس الذى قضى عليه ـ لعطفه على أبناء البشر ـ أن يوثق الى صخرة نائيـة لا يراها أحد منهم ولا يسمعه منها أولئك الذين قد شقى فى

سبيلهم فيجزيه عطفا بعطف وإحسانا باحسان ، وجعل الشاعر الحديث رب الارباب كالمارد العربيد أسكره النصر فقام بين مخلوقاته الذين تسعدهم عزته ، ونمى لهم صديق البشر الذين يرفعون اليه قرابينهم على كره منهم وفى قلوبهم غصة وعلى ألسنتهم نفاق

ويقرأ المثقفون من الغربيين هذا الشعر الرفيع ولا يشعرون بالمناقضة بين ما يوحيه من القيم الاخلاقية فى تصوير أصول الخير والشر وبين دعوى الامتياز الاوربى على أمم الشرق فى تصويرهم لهذه الاصول ، وليس فى وسعهم أن ينكروا دلالة الاساطير الكونية على معايير الاخلاق وبواطن الشعور ، وليس فى وسعهم كذلك أن ينكروا التواتر فى رواية تلك الاساطير ، ونحسب أن السهو عن بيان هذه المفارقات فى كتاب يوضع عن «الشيطان» يخل بأمانة الكاتب من الشرقيين وغير الشرقيين، ولكن الكاتب الشرقى ـ من أبناء هذا العصر خاصة ـ يخل بأمانتين لا بأمانة واحدة حين يسهو فى هذا السياق عن تمحيص الحقائق ودفع الاباطيل التى تتجاوز الخطأ الى الضرر بالنفوس



ويبدو أن اليونان المتأخرين ـ قبل عصر المسيحية ـ قد استعاروا من الشرق فكرة أخرى عن أصل الخطيئة أو أصل الخطايا الشيطانية جميعا فردوها الى الكبرياء وأطلقوا على هذه الخلة اسم الهوبرى « Hubris » وهى كلمة قريبة من دلالات الرجس فى اصطلاح الدينيين

ولكن الكلام فى الكبرياء لا يغنى عن تعقيب ينفى عن الكبرياء محاسنها ، ولا يبقى لها غير عيوبها التى ينكرها الدين كما ينكرها معيار الاخلاق

فالكبرياء على الاله الكامل العظيم فى صفاته وآلائه كفران لا شك فيه ، وخطيئة لا مسوغ لها من العقل ولا من الضمير . أما الكبرياء على صاحب سلطان يستسلم لشـــهواته ويصب صواعق السماء فى سبيل أكلة من اللحم والشحم فليس فيها من معنى الخطيئة كثير ولا قليل ، وليس فى استعارتها لهـــذا المعنى دليل على معيار صادق الحسنات والعيوب ، ولكنه من قبيل النقل على السماع فى غير موضعه ومغزاه



الفصل الثالث

* في طريق الاديان الكتابية
* العبرية
* المسيحية
* الاسلام

في طريق الاديان الكتابية

قبل أن ننتقل الى عقائد أهل الكتاب فى قوة الشر العالمية نتريث هنا لحظة لتلخيص المرحلة الطويلة التى عبرها الانسان فى هذا الطريق ، من خطواته الاولى حيث لا تمييز بين خير وشر ولا بين اله وشيطان ، الى غايته القصوى فى حضارات الامم القديمة حيث ظهرت ديانة التوراة ، وهى أول الاديان الكتابية فى التاريخ

آمن الانسان بالارواح والاطياف من أول عهده بالدين فى الهمجية الاولى ، وآمن منها بما يرجوه وما يخشاه ولكن كما يرجو النفع ويخشى الضرر من كل شىء يحيط به وتتعلق به المنافع والمضار ، ولم يكن للتفرقة بينها معنى فى مقياس الاخلاق أرفع من معنى التفرقة بين الحيوان الانيس والحيوان الضارى ، أو بين الحشرة المأمونة والحشرة السامة ، أو بين جمادين أحدهما يفيد ولا يضر والآخر يضر ولا يفيد ، وربما تلبس عنده الجماد بروح من الارواح أو طيف من الاطياف كلما ارتجى نفعه واتقى أذاه

وخطا فى طريق التدين خطوة أخرى حين قسم الارواح والاطياف الى طيب وخبيث واحتاج الى الكاهن والساحر ليروض له الخبيث بالرقى والتعاويذ ويجزى عنه الطيب بالدعوات والقرابين ، وعمل التخصص عمله البطىء فانفصل دور الدعاء ودور السحر وان عمل فيهما كاهن واحد ، كما كان ينفصل دور

الراعى ودور الصياد وان كان كلاهما يرعى الحيوان النافع ويصيد الحيوان الذى يفتك بالاناسى ، والماشية

ثم خطا الانسان خطوة أخرى من التمييز بين المنفعةوالمضرة وبين المنفعة التى تصدر على الدوام من الطيبة وحسن النية ، والمضرة التى تصدر على الدوام من طبع خبيث ونية سيئة ، ولم يكن أمامه فى هذه الخطوة مثل على الشر الخبيثالذى يضمر السوء ويتوارى عن النظر - أقرب الى الحس والخيال من الحية التى تزحف على التراب وتندس فى الجحور كيدا وخديعة وتمكنا من الدس والأذى فيما توهمه ولم يكن فى وسعه أن يتوهم شيئا سواه ، ولهذا بقيت صورة الحية مقترنة بقوة الشر حقيقة أو رمزا الى أحدث العصور

وعاش الانسان عصورا مديدة يعمل الاعمال أو يتركها لانها مأمونة نافعة أو محذورة وخيمة العاقبة ، فلما أخذ يعملها أو يتركها لانها واجبة مطلوبة أو لانها محرمة محظورة كانت هذه خطوته الاولى فى طريق التمييز بين الواجب والمحرم وبين الخير والشر فى أضيق الحدود

ولم يزل خيره وشره خير قبيلة واحدة أو شر قبيلة واحدة حتى تجمعت القبائل فى أمة ذات مجتمع واحد وشريعةواحدة، فعمت نظرته الى الشر والخير ولم تزل تتسع فى عمومها حتى برزت فى ذهنه فكرة « النوع الانسانى » ووجدت مع هذه الفكرة الرفيعة فكرة أرفع منها وأشرف جدا فى مغازيها وثمراتها وهى فكرة الانسان عن ضمير الانسان ، ولم يكن فى الوسع أن يعقل شيئا عن « الضمير الانسانى » قبل أن يعرف ان الانسان نوع واحد من وراء العشائر والقبائل والشعوب والاقوام

وكانت الحضارات الاولى خطوة بل خطوات واسعة فى هذا الطريق ، ولكنها خطوات متفرقة تتقابل أحيانا ولا تتقابل دائما في الاتجاه الى معنى الخيرات والشرور ، وقد كانت خيرات وشرورا قبل أن تجتمع في خير واحد بمقياس واحد أو في شر واحد بمقياس واحد يتقارب فيه جميع بني الانسان

كانت مسألة العالم مسألة دولة وشريعة ونظام فى عرف الحضارة المصرية الاولى ، فالخير شريعة تستتب عليها الامور والشر مروق من تلك الشريعة واخلال بالنظام الذى استتبت عليه

وكانت المسألة مسألة كونية في عرف الحضارة الهندية الاولى ، فالكون الظاهر كله باطل وزيف وشر ولا خير في غير الاعراض عنه والنفاذ الى ما وراءه ، ولعل المجاز هنا قد فعل فعله فى المشابهة بين صيرفة الجواهر وصيرفة الموجودات على عمومها ، فقد كانت صيرفة الجواهر فنا قديما فى حضارة اللآلىء والحجارة الكريمة وحلى التيجان والقصور وما عداها أو ما دونها من الحلى الزائف والحلى البذول ، وكلها كثيرة قديمة فى بلاد الهنود

وكانت المسألة مسألة فلكية فى حضارة « بين النهرين » بفرعيها من فارس وبابل

فما عدا النور فهو ظلام ، وكل ما فى الوجود فهو بين النور والظلام ، وهذه هى خلاصة الديانات الثنوية فى مختلف المذاهب والتأويلات

وتختلف عقيدة فارس وعقيدة بابل فى تلك الحضارة ، أو تلك الحضارات الواسعة ، ولكنها لا تزال فلكية فى الصميم ، لان الخير والشر فيها مقسومان بين السعود والنحوس كما

سطرت فى أزياج الكواكب ودارت عليها أفلاك السماوات

أما الحضارة اليونانية الاولى فالخير فيها مسألة حظ ، والشر فيها مسألة اعتراض لذلك الحظ الذى لا حيلة فيه للمحظوظ ولا للمعترض عليه

فلم يكن «زيوس» رب الارباب لانه أطيب منها أو أعلم منها أو أرفع منها خلقا أو أشرف منها مقصدا ، اذ انه فى الواقع أقل من الاكثرين بين الارباب فى جميع هذه الخصال ، وانما « الحظ » وحده هو الذى يفسر علوه عليها بغير تلك الفضائل والمزايا ، ولم يكن هذا « الحظ » عرضا من الاعراض أومصادفة من المصادفات فى الثقافة اليونانية المتقدمة فضلا عن الاساطير البدائية التى لم تخلص من سذاجتها واختلاطها ، بل كان « الحظ » مدار القصائد الكبرى والدرامات التى وضعها نوابغ الشعراء ، ومثلوا فيها مصائر الابطال وماكتب عليهم قبل مولدهم من قسمة مبرمة وقضاء محتوم لا مهرب لهم منه بحيلة أو اجتهاد ، ولا نجاة منه لذى حسنة أو ذى سيئة من المتفائلين أو المتشائمين ، واذا لخص النزاع بين زيوس وبروميثيوس فى قصة مفهومة فليس لفهمه وجه من الوجوه على غير معنى واحد وهو النزاع بين صاحب حظ غالب وصاحب حظ مغلوب، ولعل فلاسفة اليونان لم يجتهدوا اجتهادهم فى كلامهم على السبب والمصادفة ـ أو البخت كما ترجمه الفارابى ـ الا لانهم كانوا يلقون « البخت » أمامهم عقبة قائمة فى طريق كل تفكير، وكان ايمان العظماء به قد بلغ من الرسوخ والخطر ألا يقدم أحدهم خطة من خطط السلم أو غزوة من غزوات الحرب الابعد استطلاع العرافين عن « الحظ » المكتوب له أو عليه

على أننا ـ فى هذه العجالة ـ فى مقام الحد الفاصل بين

الحضارات الاولى والاديان الكتابية من وجهة النظر الى « قوة الشر العالمية » أمام قوة الخير أو أمام المشيئة الالهية التى آمن بها الناس وهم يعلمون فكرة « النوع الانسانى » وما تلاها من فكرة أرفع منها وأشرف وهى فكرته عن « ضمير الانسان »

ونحسب أن الحد الفاصل انما هو الفارق بين التقديم والتأخير بين صفتين من صفات الاله الاكبر ، وهما : صفة السيادة والسلطان ، وصفة الخلق والتكوين

فالاقدمون قد آمنوا بخلق الله للاكوان ولكنهم لم يبرزوا صفة الخلق كما أبرزوا صفة السيادة ، ولعلهم كانوا منساقين فى ذلك مع عقائد الفطريين الاسبقين الذين كانوا يؤمنون بأرواح لم ينسبوا اليها خلق شىء من الاشياء فضلا عن خلق الكون الذى يحتوى جميع الاشياء . ثم تدرج الناس من عبادة الروح المتسلط الى عبادة الاله المتسلط ، فجعلوا صفة الخلق تابعة لصفة السيادة والسلطان

أما الديانة الكتابية فقد أبرزت صفة الخلق وجعلتها شاملة لكل ما عداها من الصفات الالهية ومنها صفات السيادة وتصريف المقادير . ويأتى من هذا الفارق شىء كثير

يأتى منه أن الشر فى الحالة الاولى انما يحسب من قبيل الحماقة قبل أن يحسب من قبيل الكنود والفساد ، فلا يقال عنه أنه يليق أو لا يليق كما يقال عنه أنه عمل حكيم أو غير حكيم . وبين هذا وبين وصف الشر بالسوء والكفران بون واسع ، لم تعبره الامم الانسانية طفرة واحدة بل تقدمت فيه خطوات بعد خطوات كما سنرى فى عقائد الاديان الكتابية مما قبل التوراة الى ما بعد الاسلام

الاديان الكتابية

(ا) العبرية

نسميها العبرية لاننا لا نعرف تسمية تصدق عليها منذ نشأتها فى بلاد بين النهرين كما تصدق عليها هذه التسمية

فلا يصدق عليها اسم « اليهودية » لان النسبة الى يهوذا حدثت بعد موسى عليه السلام

ولا يصدق عليها اسم « الموسوية » لان موسى قام بالدعوة بعد يعقوب واسحاق وابراهيم عليهم السلام

ولا يصدق عليها اسم « الاسرائيلية » لان الاسرائيلية تنسب الى اسرائيل وهو يعقوب بن اسحاق ، وكان ابراهيم الخليل جدهم أجمعين يلقب بالعبرى فى بعض كتب العهد القديم ، فاطلاق اسم العبرية على العقائد التى دانت بها العشائر التى نشأ فيها ابراهيم أصدق من كل اسم آخر فى الاحاطة بديانة القوم من أوائل تاريخها وفى جميع أطوارها المعلومة الى أن عرفت أخيرا باسم ديانة التوراة

وينبغى أن نميز العبرية فى نشأتها الاولى من ديانة التوراة كما تلقاها المسيحيون الاوائل ، وكما انتهت الينا مهذبة فى القرآن الكريم

فقد حملت « العبرية » عبء التوسط بين الوثنيات الاولى

وعقائد التوحيد من قبل ظهورها الى ما قبل المسيحية بنحو مائتى سنة ، فلم تستقم على عقيدة الاله الواحد المنزه عن اللوثة الوثنية الا حوالى القرن الثانى قبل الميلاد

ولم تكن قط قبل ذلك ، ولا بعد ذلك ، ديانة انسانية عامة تتساوى فيها جميع السلالات وتناط فيها العقيدة بضمير الانسان غير منظور فيه الى عنصر أو نسب ، وانما نشأت وعاشت ديانة « قبيلة خاصة » أو قوم معلومين

ولم ترتفع قط بادراكها للتنزيه الالهى الى الافق الذى ارتفع اليه آخر الاديان الكتابية وهو الاسلام

بل كان العبريون الاوائل ينكصون حينا بعد حين الى شعائر الاوثان والاصنام وعبادة البعل وتموز وعشتروت ، ويمرضون عن أنبيائهم الذين يغارون من منافسة هذه الارباب لرب ابراهيم فلا يعودون الى الوحدانية ـ أو ما يشبه الوحدانية ـ الا بعد تقرير الدعوة من جديد

ولبثوا زمانا يصفون الاله بالصفات التى لصقت به فى الوثنية أو فى ديانات الحضارات الاولى ، فكان الاله عندهم يغار من الجنس البشرى ويشفق من يوم يهتدى فيه الى شجرة الخلود ويتوعده بالموت ان أكل منها فيقيم الملائكة الاشداء حرسا حولها كما روى عن الارباب البابليين فى حواشى قصة الخلق وقصة الطوفان ، وكانوا يقولون لموسى عليه السلام أنهم يتهمون « يهوا » بالكيد لهم ونصب الفخاخ فى البرية للتغرير بهم ، وانه لم يستدرجهم الى سيناء الا لانه يبغضهم ويتمنى لهم الهلاك بعيدا من أرض وادى النيل التى أخرجهم منها

وكانت فكرة السيادة فى عبادتهم للاله غالبة على فكرة الخلق كما كانت غالبة على أديان الحضارات الاولى ، فلم ينكروا وجود

الارباب التى تدين بها العشائر الاخرى، ولكنهم أنكروا سيادتها ودانو بالولاء للاله « يهوا » وحده كما يدين الشعب لملكه وهو يعلم بملوك غيره لا تجب عليه طاعتهم ولا يأمن العاقبة اذا أشرك بينهم وبين ملكه فى فرائض الولاء

ويتضح من مقارنات الاديان أن العقيدة تعـزل قوة الشر وتحصرها فى « الشخصية الشيطانية » كلما تقدمت فى تنزيه الاله واستنكرت أن يصدر منه الشر الذى يصدر من الشيطان

ولهذا لم يشعر العبريون الاوائل بما يدعوهم الى عـزل الشيطان أو اسناد الشرور اليه • لانهم كانوا يتوقعون من الاله أعمالا كأعمال الشيطان ، وكان العمل الواحد عندهم ينسب تارة الى الشيطان وتارة الى الاله كما حدث فى قضية احصاء الشعب على عهـد داود ، فانه فى المرة التى ورد فيها اسـم الشيطان بصيغة العلم قيل انه هو الذى أغرى داود باحصـاء الشعب كما جاء فى الاصحاح الحادى والعشرين من سفر الايام الاول ، ولكن الرواة يروون هذه القصة بعينها فى سفر صمويل الثانى فيقولون انه : « حمى غضب الرب على اسرائيـل فأهاج عليهم داود قائلا امض واحص اسرائيل ويهوذا •• »

ولم يكن الشيطان هو الذى أغوى حواء بالاكل من الشجرة المحرمة بل كانت الحية هى صاحبة الغواية هنا جريا على سنن الاقدمين الذين كانوا يوحدون بين الضرر الحسى وبين الخطيئة الاخلاقية ، وقبل أن تصبح الحية مجرد رمز الى الشيطان تلاحظ فيه المشابهة بين نفث السم ونفث الشر على أسلوب المجاز

ولم يذكر الشيطان قط فى كتاب من الكتب قبل عصر المنفى الى أرض بابل سنة (٥٨٦ قبل الميلاد) •• ثم كان ذكره فيها على الوصف لا على التسمية، فجاء مرة بمعنى الخصم فى القضية

وجاء مرة أخرى بمعنى المقاوم فى الحرب ، وأطلق مرة على الملك الذى تصدى لبلعام فى طريقه ، لانه كان بمعنى المعترض أو الضد أو الخصم المقاوم ، ولم يذكر بصيغة العلم الا حيث قيل فى الاصحاح الحادى والعشرين من سفر الايام انه « وقف الشيطان ضد اسرائيل »

وقد كانت قرابين الكفارة تقسم على التساوى بين الاله وبين عزازيل رب القفار أو الجنى الذى يهيمن على الصحراء ، وكان ايمانهم بوجود الارباب الاخرى التى يعبدها غيرهم من الامم بديلا من صور الشياطين ، لانها كانت تعمل عمل الشيطان كلما صرفت الشعب عن عبادة « يهوا » الى عبادة غيرها تثير النقمة على العصاة ، وانما تأتى النقمة آذن من « يهوا » ولم تأت قط من أولئك الارباب الاجنبيين ، البدلاء من الشياطين

وقد تمثل الشيطان فى صورة الواشى الموغر للصدور فى قصة أيوب عليه السلام ، ولم يكن منعزلا عن الملائكة بل دخل معهم الى الحضرة الالهية وجرى سياق القصة على النحو الآتى كما جاء فى الاصحاح الاول من سفر أيوب : « وكان ذات يوم انه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب وجاء الشيطان أيضا فى وسطهم فقال الرب للشيطان : من أين جئت ؟ فأجاب الشيطان الرب وقال : من الجولان فى الارض ومن التمشى فيها ، فقال الرب للشيطان : هل جعلت قلبك على عبدى أيوب ؟ انه ليس مثله فى الارض • رجل كامل ومستقيم يتقى الله ويحيد عن الشر ، فأجاب الشيطان الرب وقال : هل مجانا يتقى أيوب الله ؟ أليس انك حميته بحياطتك أياه وحياطة بيته وكل مايملك من ناحية ؟ . . باركت أعمال يديه فانتشرت مواشيه فى الارض ••• »

ثم تبتدىء المحنة بتسليط الشيطان على أيوب لامتحان تقواه وصبره على ضربات المرض والبلاء والفقر والحرمان

وقصة أيوب عربية باتفاق الشراح المؤرخين ونقاد العهد القديم ، ولها نظائر فى الادب العربى ان لم تكن هى القصة بعينها منقولة فى رواية أخرى ، ونعنى بها القصة التى أشار اليها امرؤ القيس حيث يقول فى معلقته :

وواد كجوف العير قفر قطعته ..... به الذئب يعوى كالخليع المعيل

فان الجوف بلغة اليمن هو الوادى وكلمة العير فى هذا البيت بديل من كلمة الحمار اسم صاحب القصة ، ولم تستقم كلمة الحمار في وزن الشعر فجاء الشاعر بكلمة العير لتدل على معناها ، وكان حمار بن مويلع هذا رجلا من العمالقة له مال وبنون وزرع وضرع فنزلت على أبنائه صاعقة فى بعض أسفارهم احرقتهم وما معهم فكفر الرجل بالله ، وقال : «لا أعبد ربا أحرق بنى ، ثم عكف على عبادة الاصنام فأرسل الله على واديه نارا أتت عليه وجعلته مضرب المثل فى الخراب فيقال على هذه الرواية : « أخلى من جوف حمار »

وأيا كان القول فى هذه القصة فلا خلاف على قصة أيوب ولا على نسبة أيوب الى العرب ، ولا على انفراد هذه القصة بين كتب العهد القديم بتمييز قوة الشر والغواية في « شخصية الشيطان » .. وتلك قيمة من القيم الاعتقادية التى لم يميزها العبريون لانهم لم يبلغوا من التمييز بين طبيعة الخير وطبيعة الشر أن يفرقوا بين الملائكة والشياطين، وأن ينزهوا الاله الذى يعبدونه أو تعبده الاقوام الاخرى عن قبائح الشيطان

وقد نبهنا الى تحرير موازين النقد قبل النظر فيما كتبه الاوربيون عن اليونان ، وليست الحاجة الى تحريرها فى صدد

المأثورات العبرية بأقل من الحاجة اليه فى صدد المأثورات اليونانية ، لان الاوربيين لا يتجردون من الهوى والعصبية كلما خلطوا بين تاريخ عقائد العبريين منذ القدم وبين تاريخ العهد القديم على اعتباره كتابا من كتب المسيحية التى يؤمن بعض الكنائس بتنزيلها ، وينظر اليه بعضهم كأنه تراث أدبى موصول بتراث الدين

فقد وهم الكثيرون من قدم الديانة العبرية وانها أسبق الديانات الكتابية فى التاريخ أن هذه الديانة سبقت المسيحية والاسلام الى أصول العقائد والعشائر فى جميع الفرائض والعبادات ، ولكن الواقع أن العبريين استعاروا كل ما دانوا به ولم يعيروا المسيحية والاسلام شيئا غير ما جاء من تطور الافكار ولم يكن مجيئه على يديهم فى أكثر الاحيان

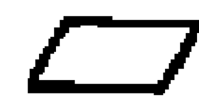
وعلى خلاف الشائع بين أصحاب الدعايات والعصبيات كان أنبياء العرب أساتذة الانبياء العبريين فى أهم الاصول الدينية وهى مسألة الخير والشر ومسألة الثواب والعقاب . ففى سفر أيوب قبل جميع الاسفار التوراتية ظهرت هذه الاصول ، وقد تتابعت النبوءات فى بلاد العرب قبل أن يكون للنبوءة شأن بين العبريين ، وذكر القرآن الكريم من الانبياء العرب هوداً وصالحا وشعيبا وذا الكفل . وجاء فى التوراة ذكر بلعام وأيوب وشعيب، وجاء فيها أيضا ان شعيبا علم موسى وهداه الى سياسة قومه ، وان بلعام كان حكما بين اسرائيل وخصومها فى جنوب فلسطين ، ومن صيحات النبى « ارميا » يتبين أن المجهول من أخبار الانبياء فى بلاد العرب كان أكثر من المعلوم المذكور فى كتب العهد القديم ، لانه يستغيث متسائلا عن هداية الجنوب، وينادى : أما من حكمة بعد فى تيمان ؟

وانما تضخمت مأثورات العبريين بعد اختلاطهم بأهل بابل ومصر وبلاد العرب واليونان ، واحتوت كتب التلمود والمشنا أهم عقائد القوم فيمسألة الخير والشرومسألة الثوابوالعقاب، ولابد أن يذكر على الدوام ان هذه الكتب جمعت بعد المسيحية وظلت تجمع ويضاف اليها حتى القرن العاشر للميلاد ، وفى هذه الكتب خلاصة ما استفاده العبريون من مجاورة الاممالتى تقدمتهم فى ادراك الصفات الالهية والصفات الشيطانية ،ومن هذه الكتب أخذ الآخذون ما حسبوه تراثا اسرائيليا وهو فى حقيقته تراث الحضارات الغابرة من أقدم العصور

مثل واحد يدل على نصيب القوم من الاصالة والنقل فى القصص الدينية والتعليق على المسائلالغيبية ، فانهم ظلوا الى ما بعد الاسلام ينقلون عن العرب قصصا كان موطنها فيأرض بابل وأشور كقصة هاروت وماروت ، وأحق ما يكون بالتنبيه فى هذا المقام أن اليهود خرجوا من أرض بابل وعادوا اليها أيام السبى قبل الميلاد بستة قرون ، ولكنهم لم يأخذوا هذه القصة الا بصيغتها العربية بعد عصر السبى بأكثر من ألف سنة ، فليس من شروط القدم فى الديانة الكتابية أن يكون القوم معيرين وأنهم لا يستعيرون

ويدل تأخر المصادر التى فصلتأوصاف الشيطان علىتأخر القوم فى التمييز بين الخير والشر كما ميز بينها أبناءالحضارات التى تقدمت الاشارة اليها ، ففى الروايات التلمودية المتأخرة يبدأ كل تفصيل عنالعداوه الشيطانية للانسان وعن أثر هذه العداوة فى خروج آدم من النعيم ، وفيها ارتقاء من وسوسة الحية الى وسوسة شمائيل رئيس الملائكة الذى عمل فيالقصة عمل ابليس ، وتوسع رواق اليوبيل حوالى القرن الثانى قبيل

الميلاد فى الكلام على « مشطيم » أسم الفاعل من مادة شطن فى اللغة العربية يقابله كلمة «مشيطن» فى اشتقاق اللغة العربية، وتحتوى التلموديات فى مثل هذا العصر كلاما عن الشيطان بليعال روح الكذب والخداع وهو يقابل فى العربية « بلاعول » أى لا معول عليه ولا خلاق له ولا خير فيه • ويحتوى كتاب اخنوخ ، قرابة هذا الوقت ، كلاما عن الملائكة الهابطين بقيادة كبيرهم المطرود من رحمة الله ، ويقول كتاب الحكمة أن الموت نزل على الدنيا من جراء حسد الشيطان•وأما قبل هذا العصر بعدة قرون فقد كان كتاب التوراة يذكرون الشياطين بأسمائها البابليه كما ذكروا « الشمريم » أى الشياطين ذوات الشعر ، والليليت أى الشياطين الليلية والكتيب والدبير (١) وغيرها من الجنة والعفاريت التى اقتبسوها بمدلولها فنقلوها بأسمائها ونعوتها



ونعود فنقول ان الديانة العبرية تحملت أعباء التوسط بين الديانات الوثنية وديانات التوحيد الكتابية ، وصورةالشيطان فى عقائدها هى أوفق مقياس لسلم التطور الذى ارتقت عليه من أقدم عهودها فى التاريخ الى العهد الذى ظهرت فيه المسيحية

ففى أقدم العهود لم يكن عند العبريين فارق بين خلائق الكائنات العلوية وخلائق الكائنات الارضية من انسانية وحيوانية ، ولم يكن عندهم كذلك فارق بين هذه الخلائق

---

(١) اهم المراجع التى اعتمدنا عليها فى هذه الاسطر كتاب « الشيطان صوره » لمؤلفه ادوارد لانجتون Edward Langton

وخلائق الشيطان

فكان الشيطان يحضر بين يدى الله مع الملائكة ، وكان الملائكة يهبطون الى الارض فيعاشرون بنات الناس ، وكان الاله نفسه يمشى فى ظل الحديقة مبتردا ويأكل اللحم والخبز ويحب ريح الشواء ويغار ويحقد وينتقم ، كما يفعل كل مخلوق ، من مخلوقاته فى الارض أو فى السماء

وتطورت عقائدهم فى الملائكة فأصبح منهم نظراء لقوى الطبيعة فى أساطير الوثنيين الاقدمين ، فمنهم ملائكة للآبار وملائكة للانهار وملائكة للتلال وآخرون للمغاور والوهاد وآخرون للاسماك والحيتان ، ولكل صيد من حيوان البر والبحر والهواء . ومن هؤلاء الملائكة من يعمل فى طاعة الشيطان ويتنقل بين الاعمال السماوية وأعمال الارض والهاوية كأنها نمط واحد من الاعمال يختلف باختلاف الرؤساء والدعاة

وتروى « الزوهار » ان الملائكة هم الذين استكبروا آدم يوم صنعه الله لاول مرة ملء السماوات والارضين فتساءلوا مستنكرين : أفى الكون الهان ؟ فصغره الله وجبل له جسما من التراب

وفى ميثاق أخنوخ أن الملك شمهازى قاد رهطا من الملائكة الى الارض ففسق وعصا وخاف أن ينفرد بالعقاب فدعاهم أن يقسموا معه ليفعلن مثل فعله ، فأقسموا معه على جبل حرمون وسمى الجبل بهذا الاسم لانهم أقسموا عليه بحرمة الحرمان وعقدوا النية على المحرمات ، ثم فجروا مع النساء وعلموهن الزرع والحصاد وهموا باهلاك رجالهن فتعلم الرجال منهم الفتك والعدوان

ويروى عن أخنوخ انه هو الذى عزر الملائكة المتمرسين

بشهوات الارض وقال لهم حين تشفعوا به : أولى لكم أن تهجروا الارض وأن تعيشوا سماويين لا تأكلون ولا تشربون (١)

ومن علماء الاساطير العبرية — مثل ابشتين وجرنبوم — من يقررون أن اليهود أخذوا طائفة من قصص الشيطان رواية عن المصادر الاسلامية ، وأن سعديا وابن سابا نقلا أسباب سقوط أبليس عن هذه المصادر ومعها كثير من الاوصاف والفعال التى يتميز بها الشياطين

وكان الحكماء والربانيون يختلطون بكهان الديانات البابلية والمجوسية ويسمعون منهم أوصاف أهريمان اله الظلام وجنوده فينقلونها الى الشيطان ويضعون هذا الشيطان شيئا فشيئا فى موضع العدو المناجز لله والانسان ، ومما اقتبسوه من أولئك الكهان — من الفصل الثالث فى كتاب البنداهش « Bundahesh » — أن أهرمان تشكل بشكل الحية وملأ آفاق الفلك الاعلى والارضين حتى لم يبق فيها منفذ لابرة ، ونفث سمومه فامتلأت بها الآفاق وسرت فى كل شىء بين الارض والسماء ولم ينهزم حتى هبط اله الخير « أورمزد » الى الارض فرده الى قراره

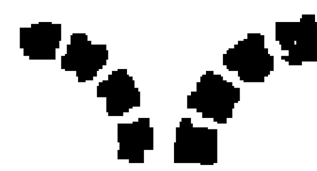
ولوحظ فى المقارنات بين العقائد أن اختصاص الشيطان بخلائقه التي تنافر الاخلاق العليا انما كان يزداد ويتمكن كلما استعار العبريون شعائرهم ومأثوراتهم من أبناء الحضارات الكبرى ، وان أنبياءهم الذين أكدوا لهم عقيدة التوحيد والتنزيه لم يجدوا منهم سميعا قبل القرون الثلاثة الاخيرة التى سبقت ظهور المسيحية ، ولم يكن تمييز الشيطان بخلائقه المنافرة

---

(١) تراجع فى كل هذه العقائد مجلدات الاساطير اليهودية جمع جنجبرج
« The Legends of the Jews », by Gingburg

للخير « عقيدة رسمية » يقرها الرؤساء المسئولون ، ولـكنه كان من قبيل التراث المحفوظ الذى تعرف مصادره حيناويتقل من رواته فى البيئة التى يشيع فيها بغير مصدر معلوم

فلما تلاقت العبرية والمسيحية فى الزمن كانت صـــورة الشيطان على ما انتهت اليه يومئذ ميراثا مشاعا لا يستند فيه اليهود الى نسختهم من التوراة ، ولا الى أسانيدهم «الرسمية» ولكنها كانت صورة لا يختصون بها ولا يمتنع أحد على غـير ملتهم أن يقبلها ، لانهم نقلوها كما نقلها سواهم من مصادرها المعلومة أو مصادرها المجهولة ، ولم ترجـــع بها كتب التلمود والمشنا الى نبى من أنبيائهم المعدودين



الاديان الكتابية

(ب) المسيحية

ذكر الشيطان بأسماء متعددة فيما روته الاناجيل من أقوال السيد المسيح او أقوال المتحدثين اليه على اختلاف المعتقد والنية

فذكر باسم الشيطان واسم « روح الضعف » واسم الشرير واسم رئيس هذا العالم ، واسم بعلزبول ، وقيل عن بعلزبول بلسان الفريسيين أنه رئيس الشياطين

وتذكر الاناجيل أخبار المجانين الذين شفاهم السيد المسيح فتقول عنهم تارة أنهم صرعى الشيطان ، وترد كلمة الشيطان فى الترجمة اليونانية مقابلة للكلمة اليونانية التى تطلق على ابليس « Diabolos » أو مقابلة للكلمة التى تطلق على العفريت والروح المتسلط « Demon » سواء كان شريرا أو غير شرير .

وفى أحد هذه الاخبار ذكرت امرأة مصابة فقيل عنها أنها « كان بها روح ضعف ثماني عشرة سنة ، وكانت منحنية ولم تقدر أن تنتصب البتة » فلما رآها يسوع دعاها وقال لها : « يا امرأة ! انك محلولة من ضعفك . . » الاصحاح الثالث عشر من انجيل لوقا

وبصدد المخبولين والمصروعين وشفائهم على يد السيد

المسيح قال الفريسيون أنه يحالف رئيس الشياطين ويأمرهم باسمه وسلطانه فيطيعونه ويخرجون من أجسام صرعاهم ، وقد جاءت هـذه القصة بصيغ مختلفة فى الاناجيل ورواها انجيل متى فقال : « انه أحضر اليه مجنون أعمى وأخرس فشفاه وتكلم الاعمى والاخرس وأبصر . فبهت كل الجموع وقالوا : ألعل هذا هو ابن داود ؟ أما الفريسيون فلما سمعوا قالوا: هذا لا يخرج الشياطين الا ببعلزبول رئيس الشياطين ، فعلم يسوع أفكارهم وقال لهم : « كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يثبت . فان كان الشيطان يخرج الشيطان فقد انقسم على ذاته فكيف يثبت ملكه ؟ وان كنت أنا ببعلزبول أخرج الشياطين ، فأبناؤكم بمن يخرجون؟ لذلك هم يكونون قضاتكم . ولكن ان كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله »

وموضع الالتفات فى كلام السيد المسيح هنا هذه المقابلة بين مملكة بعلزبول وملكوت الله ، وأن السلطان الذى لا يكون بقوة الشيطان انما يكون بروح الله

واصرح من ذلك الاشارة الى سلطان ابليس على العالم قصة التجارب التى امتحن بها السيد المسيح فى البرية ، وكان ابليس هو الذى يجربه ويحاول اغواءه بما يملكه من العروض والمغريات ، ويستوفى انجيل لوقا هذه القصة اذ يقول : « أن يسوع رجع من الاردن ممتلئا من الروح القدس، وكان يقاد بالروح فى البرية أربعين يومًا يجربه ابليس ، ولم يأكل شيئًا فى تلك الايام فلما تمت جاع اخيرا ، وقال له ابليس : ان كنت ابن الله فقل لهذا الحجر ان يصير خبزا ، فأجابه يسوع قائلا : مكتوب أن ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ، بل بكل كلمة من الله ،

ثم اصعده ابليس الى جبل عال وأراه جميع ممالك المسكونة فى لحظة من الزمان ، وقال له ابليس : لك أعطي هذا السلطان كله ومجدهن لانه الى قد دفع وانا أعطيه لمن أريد . فان سجدت أمامي يكون لك الجميع ، فأجابه يسوع وقال : اذهب ياشيطان ! انه مكتوب للرب الهك تسجد واياه وحده تعبد ، ثم جاء به الى أورشليم واقامه على جناح الهيكل وقال له : ان كنت ابن الله فاطرح نفسك من هنا الى أسفل لانه مكتوب أنه يوصى ملائكته بك لكى يحفظوك وانهم على أياديهم يحملونك لكى لا تصدم بحجر رجلك ، فأجاب يسوع وقال له : انه قيل لا تجرب الرب الهك . ولما أكمل ابليس كل تجربة فارقة الى حين » (١)

وهذه القصة أوفى ما جاء فى الاناجيل عن سلطان ابليس على ممالك العالم وانها دفعت اليه ليعطى منها ما يشاء لمن يشاء ، فهو قريب من صورة أهريمان اله الظلام فى ديانة الفرس القديمة ، ولكنه لا يملك الا ما يدفع اليه بمشيئة الاله القادر على كل شيء ، وتلك أول تفرقة فى الديانات الكتابية بين اله الظلام وأمير الظلام كما سمى ابليس بعد عهد السيد المسيح

وآخرة ابليس كما جاء فى كلام السيد المسيح تناسب موضعه هذا من العالم ومن العزة الالهية ، ولا تصعد الى المنزلة التى أنزل بها الفرس الاقدمون اله الظلام فى ديانتهم الثنوية ، وفى الاصحاح الخامس والعشرين من انجيل متى شرح هذه الآخرة كما ينتهى اليها الملائكة والقديسون وينتهى اليها الشياطين والاشرار : « ومتى جاء ابن الانسان فى مجده وجميع الملائكة

---

(١) الاصحاح الرابع من انجيل لوقا

والقديسين معه فحينئذ يجلس على كرسى مجده، ويجتمع أمامه جميع الشعوب فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعى الخراف من الجداء ، فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار . ثم يقول الملك للذين عن يمينه : تعالوا يا مباركى أبى ، رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم ... ثم يقول أيضا للذين عن اليسار : اذهبوا عنى يا ملاعين الى النار الابدية المعدة لابليس وملائكته »

ويقول السيد المسيح فيما رواه انجيل لوقا أن الشيطان يغربل تلاميذه . وقال الرب : « سمعان ! سمعان ! هو ذا الشيطان طلبكم لكى يغربلكم كالحنطة .. » الاصحاح الثانى والعشرون

ويذكر انجيل لوقا قبل ذلك ان الشيطان يداخل من يوسوس لهم وأنه « دخل فى يهوذا الذى يدعى الاسخريوطى ... فمضى وتكلم مع رؤساء الكهنة وقواد الجند » ليسلم المسيح اليهم

وينفرد انجيل يوحنا بكلام منسوب الى السيد المسيح يصف فيه ابليس بأنه رئيس هذا العالم ، وتكرر ذلك فى غير موضع فجاء فى الاصحاح الثانى عشر ان السيد المسيح قال لتلاميذه ليلة وداعهم : « الآن دينونة هذا العالم . الآن يطرح رئيس هذا العالم خارجا ، وأنا ان ارتفعت عن الارض أجذب الى الجميع »

وفى الاصحاح الرابع عشر يقول : « .. ان أبى أعظم منى ، وقلت لكم الآن قبل أن يكون ... لا أتكلم معكم كثيرا لان رئيس هذا العالم يأتى وليس له فى شىء »

وفى الاصحاح السادس عشر : « أما الآن فأنا ماض الى الذى أرسلنى وليس أحد منكم يسألنى أين تمضى . لكن لانى

قلت هذا قد ملأ الحزن قلوبكم . لكنى أقول لكم الحق انه خير لكم ان انطلق ، لانه ان لم أنطلق لايأتيكم المعزى ، ولكن ان ذهبت أرسله اليكم ، ومتى جاء ذلك يبكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة . اما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بى ، واما على بر فلأنى ذاهب الى أبى ولا تروننى أيضا ، واما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين »

وفى انجيل لوقا وردت الكلمة التى شبهت لقراء الاناجيل اسم الشيطان باسم « لوسيفر » حامل النور كما كان يدعى بعد عصر الاناجيل بعدة قرون، ففى الاصحاح العاشر من انجيل لوقا يقول السيد المسيح للتلاميذ السبعين الذين أرسلهم للبشارة من قبله: « انى رأيت الشيطان ساقطا كالبرق من السماء »

أما غاية ماوصف به ابليس من السطوة فهو قول بولس الرسول عنه فى رسالة كورنثوس الثانية : « ان كان انجيلنا مكتوما فانما هو مكتوم فى الهالكين الذين فيهم اله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين »

وانما كان بولس يذكر سطوة الشيطان وهو يرى أمامه معابد « مترا » فى كل مكان يرحل اليه ، ويسمع أتباع مترا يذكرون اله الظلام واله هذه الدنيا السفلى التى تخضع لسلطانه وتنتظر نور الخلاص بعد رجعة «مترا» بالظفر والغلبة فى الدهر الموعود ، وقد أخذ العبريون تقسيم الدهر الى دهرين من أقوال أهل بابل وفارس ، ولم يكن من شأن المسيحيين الاوائل أن يهونوا من شرور اله الظلام فى هذه الدنيا ، بل كانوا يسبقون أتباع « مترا » الى تعظيم الفارق بين النور الالهى والظلمة الشيطانية، وتسمية بولس للشيطان باله هذا الدهر انما هو من قبيل تحقير الدهر الذى يعبدونه فيه ، وتلك عادة من عادات العبريين

الاقدمين فى الزراية بأدعياء الربوبية عند الامم الاخرى ، فكان من اساليبهم فى انكار ربوبية بعل أن يسموه ـ على رأى الكثيرين من الشراح ـ رب الذباب ورب الزبالة ، ومن ثم اسم بعلزبوب وبعلزبول .

وتمتزج بأقوال بولس على الدوام تعبيرات مجازية تدل على المامه بالاساليب اليونانية فى التعبيرات وسماعه بالآراء التى كانت تنقل عن حكماء اليونان ويسوقونها مرة فى معرض الطبيعيات ومرة فى معرض الدينيات ، ومن ذاك قوله عن ابليس فى رسالة افسس : « انه رئيس سلطان الهواء الروح الذى يعمل الآن فى أبناء المعصية » ومنه قوله فى تلك الرسالة : « البسوا سلاح الله الكامل لكى تقدروا أن تثبتوا ضد مكان ابليس ، فان مصارعتنا ليست مع لحم ودم ، بل مع أحفاد الشر الروحية فى السماوات »

ويرى اللاهوتيون المحدثون أن أقوال بولس هنا تحتمل الاشارة الى الطبيعيات اليونانية كما تحتمل الاشارة الى التراث العبرى فى مسائل الروحانية . قال الدكتور هوجو راهنر « Hugo Rahner » فى بحثه عن الروح الارضى والروح الالهى فى علم اللاهوت القديم : « ان عبارة رئيس سلطان الهواء فى كلام بولس الرسول تثير اسئلة شتى فى التاريخ الدينى ينبغى أن نعرض لها ان أردنا أن نفهم آراء آباء الكنيسة الرفيعة فى طبيعة الارض الروحية الشيطانية .. أفلا يقع فى أخلادنا أننا نسمع هنا نغمة مألوفة ؟ أليس تصور الروح الشيطانى سلطانا على الطبقة المظلمة من الهواء صدى واضحا من نظريات أفلاطون وزينقراط وبلوتارك ؟ ان التشابه لظاهر وان البحوث التى عرضت لهذه المسألة لكثيرة منوعة ، ولكن الارجح على ما يبدو

أن بولس الرسول انما اتخذ هـذه الصـورة من الروحانيات اليهودية المتأخرة ، فقد كان من العقائد الشائعة بين اليهود أن الارواح الشريرة لاتهبط الى مادون الهواء المحيط بالارض وانها من هذا المهبط تباشر عمل الشر عليها . وانما ترمز هـذه الصورة فى ذهن بولس الرسول الى خصومة اصبحت خلقية نفسية ولم تبق كما كانت قبل ذلك كونية طبيعية . فالعـالم عنده فى أساسه انما هو الانسان ، وهذا الانسان الذى يوصف بأنه أرضى وأنه موثق الى الارض وأنه خاطىء ، خليق أن يخضع لسلطان أرواح الشر عليه ، ولكنه قادر كذلك على أن يرتفـع بنفسه من الظلام الى النور ومن الشيطان الى الله »



ومعلوم أن كتاب « العهد الجديد » هو مرجع المسيحيةالاكبر الذى تتفق الكنائس على اعتماده فى العقائد الجوهرية ، ولـكن العهد الجديد ينقسم الى ثلاثة أقسام « أولها » الاناجيل و «ثانيها» أقوال الرسل«وثالثها» أقوال الصحابةوالرواةالمتصلين بالرسل ، وترتيبها كما جاء فى شروح بعض اللاهوتيينالمحدثين أن الاناجيل وحى غير مصحوب بتفسير ، وأن أقوال الرسل وحى وتفسير ، وأن أقوال صحابتهم تفسير بغير وحى ، وقد جاءت فى اقوال الرسل ومابعدها تفسيرات فى المنزلة الاولى من مأثورات العقيدة المسيحية يتقدمها جميعا ماجاء عن خطيئـة آدم وعن تكفير الخطيئة وعن الحية والشيطان ولم تسـبق الاشارة اليه فى الاناجيل

ففى هذه المراجع اول اشارة الى تسمية الحية بالشيطان كما جاء فى الاصحاح الثانى عشر من اعمال الرسل حيث يذكر التنين ويقال عنه « أنه التنين العظيم ، الحية القديمة ، المدعو

ابليس والشيطان الذى يضل العالم »

وفى رسالة يوحنا الرسول الاولى : « من يفعل الخطيئة فهو من ابليس ، لان ابليس من البدء يخطىء ، ولاجل هذا ظهر ابن الله لكى ينقض أعمال ابليس »

وفى هذه الرسالة أيضا أن الآنسان من الله أصلا ولكن «العالم كله قد وضع فى الشرير »

وتتكلم الكتب « البوكريفية » عن دخول الموت الى العالم بدخول الخطيئة فيه ، ومعظم هذه الكتب لايرتقى الى طبقة الاقوال المأثورة عن الرسل مباشرة ولكنه يعتمد للترجيح والتفسير ، وسمى بالكتب « البوكريفية » بمعنى « السرية » أو الخاصة فى اليونانية لانه كان من المراجع التى يضن بالاطلاع عليها على غير الواصلين فى الايمان والمعرفة

وعندنا أن الفرق فى أوصاف الشيطان بين الاناجيل وما تلاها انما هو الفرق بين الاوصاف السماعية والاوصاف القياسية أو العقلية فان الشيطان لم يتقرر له « شأن » أو دور معلوم فى الاديان الكتابية قبل القرن الاول للميلاد ، وانما كان فى الكتب العبرية أو اليهودية واحدا من الملائكة المغضوب عليهم أو واحدا من الارواح المتمردة فلا يعرف الا بما سمع من أوصافه ولا شأن له فى ذلك الا كشأن الابطال التاريخيين أو « الشخصيات التاريخية » التى تعرف بالمسموع عنها بين المسموعات المختلفة ولا يمكن أن تعرف بأوصاف عامة يقتضيها العقل والقياس

أما الشيطان الذى تقرر له « دور » معلوم أمام الله فلايتوقف العلم بأوصافه على السماع بل يجوز للمفكر ان ينسب اليه كل مايقتضيه ذلك الدور من الألوان والملامح والخصائص

والتبعات ، ويجوز له كذلك أن ينسب له ماسوف يأتى به بعد ازمنة طويلة فى نهاية العالم ومصيره المقدور

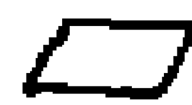
وقد تقرر دور الشيطان وتقرر سلطانه على الشر وعلى العالم الارضى فى مقابلة العالم الالهى فى السماء ، فكل صنيع يوصف بالشر فهو من عمله بغير حاجة الى رواية السماع ،وكل خطيئة أو غواية أو ضلالة أو عاقبة محذورة فانما تنسب اليه كما تنسب الخصائص الى معدنها بحكم البداهة التى لا تحتاج الى عيان أو الى اسناد ، وعلى هذا القياس قال بولس الرسول فى رسالته الاولى الى أهل كورنثوس أن رؤساء هذا الدهر ـ أى الشياطين كما جاء فى تعبيراته السابقة ـ هم الذين صلبوا السيد المسيح ، ورماهم بالجهل وقلة الدراية بعقبى ما يصنعون لانهم ظنوا أنهم يخدمون مقاصدهم بتقديم المسيح الى الصليب وما كانوا يخدمون غير مقاصد الله منذ الازل بما دبروه ورتبوه، فقال عن حكمة الايمان وحكمة الشيطان : « اننا نتكلم بحكمة بين الكاملين ، ولكن بحكمة ليست من هذا الدهر ولا من عظماء هذا الدهر الذين يبطلون . بل نتكلم بحكمة الله فى سر الحكمة المكتوبة التى سبق الله فعينها قبل الدهور لمجدنا ، ولم يعلمها أحد من عظماء هذا الدهر ، لانهم لو عرفوها لما صلبوا رب المجد »

فاذا كان الائمة الاسبقون فى صدر المسيحية يذكرون الشيطان بصفات لم ترد فى الاناجيل ولا فى كتب العهد القديم فانما يذكرونه بالصفات التى تكون له لا محالة بحكم طبيعته المميزة أو بحكم دوره المعلوم ، وهو الدور المقابل للخير والحق وصدق النية فى كل عمل مضى وكل عمل يتكشف عنه الغيب

وينبغى أن تلاحظ النقلة الواسعة هنا فى تطور الاخلاق

والمقاييس بين أوائل العقائد العبرية وبين العقائد التى شاعت فى القرن الاول للميلاد

فقد كان الضرر والشر بمعنى واحد فى العقائد البدائية ، وكان الروح الضار كالحيوان الضار فى مقاييس الاخلاق أو مقاييس النعمة والبلاء ، وكان من الجائز أن تستقل الحية بالضرر دون ان يلقنها الشيطان غواية آدم. فهى حيوان ضار يؤذى ويخيف وكفى بذلك وصفا للشرير فى العقائد البدائية ، فما زال الضرر والشر يتميزان ويختلفان فى الميزان حتى وجب عقلا أن يكون الشيطان وراء الحية فى غواية آدم وحواء ، وحتى وجد فى عالم الضمير فارق واسع بين الخوف من لدغة الحية الماكرة ودسيسة الشهوة والعصيان



الا أن المسيحيين الاوائل استرسلوا فى حديث الحية لانهم وجدوا فيها أصلح صورة لتمثيل الشيطان للحس ، وكان تمثيل الشيطان للحس يتتابع فى « رؤى » النساك والمتنبئين مستقلا عن تمثيله للنفس فى بحوث الفقهاء وعلماء اللاهوت . فاذا تكلم اللاهوتى عن الشيطان فانما يستنبط أوصافه بالقياس الى طبيعته وعمله كما تقدم ، ولكن الناسك المتنبىء صاحب الرؤى والمشاهد الغيبية انما ينقل رموزا وجدانية قابلة للمشاهدة فى الحس كما هى قابلة للمشاهدة فى الرؤيا ، وليس فى الاشياء التقليدية ولا فى تشبيهات الخيال اقرب من الحية القديمة واذا بولغ فى تشويهها وتبشيعها وتعظيم ضررها فهى التنين الذى يضيف اليه الخيال من الاشياء والطبائع مالم يتحقق فى الحية المعهودة ، فهو ذو رأسين أو ذو أرجل وأجنحة أو ذو لسان يندلع بالشرر ويقذف باللهب ، وقد ساعد على انتشار هذه

الصورة للشيطان أنها كانت شائعة من أقصى الصين الى أرض بابل وآسيا الصغرى ، وانها كانت شائعة كذلك فى كتب العهد القديم ، وصادفهم خطر التنين الاكبر ، أو خطر الحية الشيطانية فى مقر عبادتها بآسيا الصغرى فكثرت فى رسائل العهد القديم اشارات النساك الى « برجاموم » عاصمة هذه العبادة التى يظهر أنها كانت متوارثة هنالك منذ زمن قديم وتجددت دعوتها بعد قيام الدعوة المسيحية على سبيل المقاومة ورد الفعل مع غيرها من الدعوات التى كان أصحابها يتألبون عمدا أو على غير عمد لمقاومة الدين الجديد

ويمكن أن تعتبر رموز الرؤى مقدمة للصور الفنية التى اختارها المصورون والمثالون بعد انتشار المسيحية وقيام هياكلها واشتغال أصحاب الفنون برسومها ومبانيها ، فهنالك صور للشيطان على مثال التنين ، وصور اخرى على مثال التنين فى جميع أعضائه غير الرأس فقد كانوا يجعلونه رأس انسان ذى قرنين أو أذنين صاعدتين فى مكان القرنين، وكلما تقدم اللاهوت فى وصف طبيعة الشيطان غابت ملامح الحية والتنين وخلفتها ملامح انسان خبيث الطلعة يعمل الفن عمله فى ابداعه دلائل الشر التى تغنى عن استعارة الشبه الشرير من مشابه الحيوان، ولكنهم ظلوا الى زمن أخير يصورون الشيطان بظلف مشقوق ويحتفظون فى هذا الشبه بصورة « الساتير » اليونانى المتهالك على الشهوات ومعاقرة الخمور

أما الصور اللاهوتية فقد أفاض الآباء الاولون فى شروحها وفروضها واجتهد كل منهم على حسب علمه واطلاعه فى تطبيقها على الطبيعة المفروضة للشيطان ، ويعتبر ترتوليان « Tertullian » المتوفى سنة (٢٣٠ م) وأوريجين المتوفى

سنة (٢٥٤ م) أوفر الفقهاء المتقدمين مشاركة فى وصف الطبيعة الشيطانية واسناد الافعال والنيات التى تلائمها الى الشيطان وأجناده على حسب درجاتهم فى السيادة العالية ، وعند ترتوليان أن الشيطان الاكبر يرصد شيطانا من جنوده لكل انسان من بنى آدم وحواء ، وان أدلة وجود الشياطين عامة متواترة فى عقائد المهتدين والوثنيين المضللين ، وكلهم يسلمون أن الشيطان يتعقب الانسان ويتسلل الى مخادع نفسه على غفلة منه أو بعلمه واختياره ، ولكن المسيحى المؤمن بقدرة السيد المسيح المستقيم على منهجه يملك السلطان النافذ فى هذه الشياطين ويستطيع أن ينقذ منها فرائسها اذا صدقت نيتهم فى طلب الخلاص منها ، وليس المسيحى الذى يعجز عن قهر الشيطان خليقا عنده بوصف الايمان

ولاشك أن « أوريجين » كان فقيه القرون الثلاثة الاولى غير مدافع ، وكان له من العلم بحكمة عصره مالم يكن لاحد من معاصريه ، وكان الى جانب ذلك مؤمنا راسخ الايمان تقياشديد التقوى ، ولم يكن له مطمع فى رئاسة كهنوتية أو غنيمة دنيوية ، فقد جب نفسه ليتقى فتنة الشيطان وهو يعلم البنات والفتيات ، ويعظ النساء فى البيع والبيوت ، وقد علم وهو يفعلَ ذلك أنه يحرم نفسه مناصب الكهنوت العليا التى تحرم على المجبوبين والمشوهين ، فلم يستعظم هذا الحرمان حماية لسريرته من غواية الشيطان ، وهذا مع اسهابه فى التفرقة بين دواعى الشر التى يوحى بها الشيطان وجنوده ،ودواعى الشر التى ركبت فى طبيعة الانسان وهى شهوات الطعام ولذات الجسد وفى مقدمتها اللذة الجنسية ، ولعله فى كل ما كتبه عن تسخير الشيطان لهذه الشهوات لم يثبت قدرته على الغواية

كما اثبتها على ذلك النحو الرهيب

ولم يجد أوريجين مشقة فى اسناد الشر والخطيئةالىسيادة هذا العالم ، فانه عاش فى زمن قد اجتمعت مذاهبه على تحقير المادة واعتبارها جرثومة النقص والكثافة والفساد ، وعم فيه القول بين النساك والزاهدين بأن طلب السيادة هو المحنة التى أسقطت ابليس وجنوده وأن « التواضع » هو شعار ملكوت السماء وهو آية المسيح المخلص الذى يزهد فى المواكب ويأتى كما اتى من قبل على حمار ابن أتان . غير أن أوريجين كان يمزج اللاهوت بمعارفه الفلسفية ويقرر طبيعة الشيطان وفقا لما تمليه عليه الفلسفة والدين ، ورأيه فى تكوين الشيطان أنه ذو جسد يلائم مقامه فى الهواء الكثيف المحيط بالارض ويتطلب الغذاء من الدواخين والابخرة والدم الخالص مجردا من اللحوم والعظام ، ولهذا يحاول أن يفسد القرابين الالهية ويختلس ابخرتها ودماءها ليتحول بها عن مقصدها

ويفرق أوريجين بين الملك الساقط والشيطان الرجيم ، ويوافق بعض الذين سبقوه فزعموا أن الطبيعتين تلتقيان فى ذرية الملائكة الذين هبطوا الى الارض فعشقوا بنات الناس وقالوا انهن حسنات ولم يقصدوا العصيان بل وقعوا فيه وهم لا يعرفون عقباه

وللشيطان سبيلان الى غواية الانسان فى رأى الفقيه الفيلسوف : احدهما أن يوسوس له من حيث لا يراه لان طبيعة جسده كما تقدم من طبيعة الهواء ، فهو يجرى من سريرة الانسان مجرى النفس الذى لاتراه العينان ، والسبيل الآخر أن يستولى عليه ويتخبطه على هواه ويبتليه بالامراض والعاهات وقد يسلط الاوبئة والطواعين على المدن والاقطار الواسعة

ليذودهم عن رحمة الله ، وله جنود فى كل مدينة وكل قطر وبين كل معشر يعبدون الاوثان أو يعبدون ربا من الارباب غير الاله الواحد الذى يدين به أتباع السيد المسيح ، فما كانت هذه الارباب والاوثان الا شياطين من جنود ابليس تنتزع أبناء آدم وحواء من سلطان السماء وتموه عليهم العقيدة الصالحة بما يشبهها من الشعائر المسيحية ، ليختلط عليهم الحق والباطل وطريق الهدى وطريق الضلال

وكان من عقائد أوريجين أن التمييز بين الخير والشر فطرة فى كل موجود عاقل يدرك ويختار ، ولا استثناء فى ذلك للشياطين عامة ولا لرئيسهم الاكبر ابليس ، فهم لم يخلقوا منحرفين مضللين ولكنهم انحرفوا وضلوا بماداخلهم من الكبرياء والتمرد والحسد فغلبتهم الشقوة وعز عليهم ان يستمعوا لنداء الخير والمحبة والسلام ، فأقبلوا على الشر وأمامهم سبيل الصلاح يمضون فيه لو سلست له قيادتهم ورفعوا عن أعينهم تلك الغشاوة التى وضعوها عليها بأيديهم ، ولابد لهذا الضلال من نهاية بعد زوال المحنة وانقضاء التجربة التى يبتلى بها العالم آخر الزمان

ولما أراد أوريجين أن يقدر للشيطان مصيره فى نهاية العالم لم يتبع أقوال المتنبئين وأصحاب الرؤى بل اتبع النصوص القديمة وفسرها على هدى الحكمة الحديثة فى عصره ، ولم تكن فى عصره حكمة أحب اليه من الحكمة الرواقية التى تلقاها اليونان قديما من الهند وبثوا فيها من عقائد فيلسوفهم فيثاغوراس قبسا يقربها الى العلم وأدب السلوك

فقد وجد « أوريجين » فى عصره قصصا دينيا مستفيضا عن وقائع الشيطان مع الملائكة ومصيره بعد الهزيمة الحاسمة فى

آخر الزمان ، وفى هذه القصص ملاحم الحرب بين ميخائيل رئيس الملائكة وابليس رئيس الشياطين ، وأطوار القتال الذى يدور سجالا بين الفريقين ويؤسر فيه بعض الشياطين فيحبسون فى باطن الارض أو يقيدون بالاغلال حتى الموعد الاخير ، وتروى هذه القصص أخبارا عن الشياطين والملائكة المطرودين الذين لا يستطيعون الصعود الى السماء أو الذين يصعدون اليها فيرتدون عنها خوفا من الرجوم الالهية ، فمقامهم بعد ذلك عند السماء الثانية أو فى مغاور الارض يتحصنون بها من هجمات الملائكة الصالحين والقديسين المقربين، ثم تنشب الملحمة الاخيرة قبل القيامة وبعد ظهور المسيح الاول بألف سنة ، فيذهب أهل النار الى النار ويرتفع أهل النعيم الى النعيم

أما « أوريجين » فنهاية العالم عنده هى نهاية الدورة الكونية التى اعتقدها الهنود من قبل ثم اعتقدها الرواقيون بعدهم وفرضوا لها آدابا من آداب السلوك تكفل لمن يسلكها أن ينجو من الكارثة الكونية مطهرا من شوائب الحياة الارضية ، فيخلص الى الوجود الحق فى آفاق عليين

وستنتهى الدورة الكونية وتتطهر الخلائق بالنار الابدية ويبطل الفناء ويموت الموت فلا خطيئة ولا عقاب فى عالم لا موت فيه ، ويتعذر ـ طبعا وعقلا ـ أن يبقى الشيطان على شره بعد زوال معدنه وخلاص العالم من الموت الذى ابتلاهم به من طريق الخطيئة ، ومن الجائز الا يتم الخلاص والتطهير على درجة واحدة بل يأتى تباعا على درجات مترقيات ، ولكنه لايكون متى أتى الا كما ينبغى أن يكون بلا موت ولا خطيئة ولا عقاب

ونكتفى بما لخصناه من شروح أوريجين وفروضه فى التعريف

بالشيطان أو التعريف « بالشيطانيات » على الاصح لانه قد جعل هذا التعريف بابا من أبواب الدراسة اشتهر فى الازمنة الاخيرة باسم « الديمنولوجى » أى علم الشيطانيات ، ولكننا لانتقل منه الى مابعده دون أن نلاحظ على هذه التعريفات ملاحظة جديرة بالتوقف لديها فيما يروى عن القرن الثالث للميلاد على التخصيص . ففى ذلك العهد المريب لم تكن فى العالم عقيدة غير المسيحية توحى الى المؤمن بها مثل هذه الثقة بالامور المغيبة فى أدق الجزئيات ، وذلك هو سر قوتها وارتياح النفوس اليها بين ظلمات الحيرة والريبة التى رانت على المذاهب جميعا وتركتها لمعتقديها أشبه شىء بالسلوى التى يزجى بها الفراغ ولا تمضى مع الجد خطوة الا عادت الى اللعب خطوات ، وقد كان أشبه المذاهب بالجد فى ذلك العصر مذهب المعرفيين « Gnostics » الذى كان فى حقيقته عنوانا لكل مذهب يرد على الخاطر فى تلك الآونة ، اذ كانت المعرفة الوانا ، وكانت الوان الوسائل التى تطلب بها لاتقل عن ألوانها ، ومنها ـ فيما نحن بصدده من حديث الشيطان ـ معرفة الخبرة باللذات والرذائل المحرمة لان الجهل بها يسلب طلاب المعرفة حظا يتاح للجاهل ولا ينبغى لهم أن يتجنبوه ، وقد أباحت طائفة من هؤلاء المعرفيين عبادة الشيطان مع أصحاب النحل التى كانت تعبده وتتقرب اليه باستباحة الرذائل والارجاس ، وتسميها المعرفة بالنور من طريق المعرفة بالظلام ، ولم تنقض فترة طويلة على هذه النحل المتفرقة حتى تجمعت منها نحلة كبيرة أوشكت أن تعم القارة الاوربية من أقصاها شرقا الى أقصاها غربا فى القرون الوسطى، وبقيت منها ـ كما تقدم ـ بقية الى أوائل القرن العشرين

ولا يتوقف تاريخ اللاهوت بعد أوريجين على أسماء أكبر من

أسماء القديس اوغسطين، والقديس توما الاكويني ، ومارتن لوثر رافع علم الثورة الذى سمى هو نفسه شيطانا ، وسمى الحبر الاعظم فى زمانه بالشيطان



عاش القديس أوغسطين بين أواسط القرن الرابع وأوائل القرن الخامس للميلاد (٣٥٤ ــ ٤٣٠) وأحاط بما تقدمه من الشروح والفروض فى موضوع الشيطانيات ، وذهب فى علة سقوط الشيطان مذهبا كمذهب أوريجين فقال انه خلق للخير ولكنه أشقى نفسه بحسده وكبريائه فأنزله الله من سماء الاثير الصافى الى هواء الارض الكثيف ، ولايمتنع عند أوغسطين أن يكون هذا الجسد ملائما للتناسل من الاجساد البشرية لان الحديث عن علاقة الشياطين بالنساء الآدميات متفق عليه بين الوثنيين عباد الشياطين وبين المؤمنين الذين يلعنونها ويؤمنون بوجودها ، واطلع أوغسطين على أطراف من الفلسفة اليونانية كما اطلع عليها أوريجين ، فلم يستبعد أن يكون جسد الشيطان أرفع من جسد الانسان كما زعم الفيلسوف الافلاطونى ابوليوس « Apuleius » الذى كان له بعض الحظوة بين المثقفين من رجال الدين ، ولكنه أبى أن يقول أن امتياز الشيطان بالجسد يرفعه رتبة على الانسان ، فان الحيوان ليمتاز على الانسان بالحس كما يمتاز النسر بالنظر ، والكلب بالشم والطير بالخفة ، ولا يقال انها أرفع منه رتبة لرجحانها عليه فى هذه الحواس ، وقد يخف جسم الشيطان عن الجسم البشرى ولكنه يصلى بجسمه نار العذاب كما جاء فى وعيد السيد المسيح

وأوغسطين هو صاحب الكتاب المشهور عن «مدينة الله» أوعن ملكوت الله ، وتقابله مملكة العالم التى قد يسيطر عليها الشيطان

عنوة أو بالكيد والخديعة ، وفى وسعه أن يتسلل الى الارواح من مسكنه فى طبقات الهواء أو يترصد لها وهى صاعدة الى الملأ الاعلى ، فانها فى معراجها لاتنى تعبر بالشياطين الملعونين والملائكة الابرار ، فاذا كانت فى حياتها قد غلبت سيادة الشر بقمع الشهوات والزهد فى المطامع فلا سلطان للشيطان عليها فى معراجها الى عليين ، واذا خرجت من الدنيا وفيها شائبة من غواية الشيطان عالقة بها فتلك هى العلاقة التى يقتنصها منها الشيطان ، ويعوقها بها من الصعود ، ويهبط بها الى هوائه أو هاويته حيث يشاء

ويرى أوغسطين كمن تقدموه وأتوا بعده أن الشيطان عليم بالسحر قادر على نشر الاوبئة والمداواة منها ، وان الاوثان المعبودة شياطين لها هذا العلم وهذه القدرة وفى وسعها أن ترضى عبادها بقضاء المطامع وترهبهم بالخوف والمرض ، ولكنها قدرة محدودة تقصر عن عزيمة الايمان اذا صدقت نية المؤمن عليها ، ولم يترك المؤمنون سدى فى حربهم معها لانهم معانون عليها بكفارة السيد المسيح

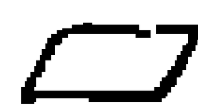
وأعظم الاعلام فى اللاهوت المسيحى بعد أوغسطين فيلسوف القرون الوسطى توما الاكوينى (١٢٢٧ ـ ١٢٧٤) الذى فلسف العقائد المسيحية على مثال لم يسبق اليه ولم يلحقه أحد بعده ، ومحور فلسفته حرية الارادة التى يملكها كل مخلوق عاقل ، وأولهم الشيطان لانه كان فى المنزلة العليا بين المخلوقات العلوية وكان امتحانه من ثم أعسر من امتحان سواه ، وكانت قدرته كذلك على الثبات والنجاة اعظم من قدرة الآخرين ، فأذهلته العظمة عن كل شىء غير نفسه وطمح الى مساواة الله فى عظمته ومشاركته فى وحدانيته ، وتبعه من تبعه ممن هم على غراره

فهوى من عليائه وهوى معه تابعوه

ويسمى الفيلسوف هؤلاء الشياطين جميعا بالكائنات العقلية أو الكائنات الذهنية ، تمييزا لها عن الكائنات الحيوانية المولدة من التراب ويقول أنها مسلطة على عقول البشر لاستدراجها واستخراج غاية مالنطوت عليه من الصدق والمناعة ، وقد يحدث ذلك باذن الله وقضائه ، وقد تكون ذرائعه الكبرى مستقرة فى غرائز الانسان ويكون الانسان فيها عدوا لنفسه اذا غلب عليه هواه قبل أن يغلبه وسواس الشيطان

ويجارى الفيلسوف من تقدموه فى الاعتراف للشيطان بالقدرة على العجائب والافانين التى تشبه المعجزات ، ولكنه يحد هذه القدرة حد العالم الفيلسوف الذى يرفض عقله التسليم بالعبث فى نظام الطبيعة ، فلا خوارق على التحقيق فى طاقة الشيطان ، ولا تعقل الخوارق الا من عمل الاله الذى وضع للعالم نظامه وأجراه عليه ، وانما يستطيع الشيطان اثارة المادة بعناصرها فيدمر بها من تراد له الفتنة ولايتعدى هذه العوارض الى تبديل جوهر المادة أو تبديل جوهر الروح ، وكل مايصنعه الشيطان مما يلتبس على الناس بالمعجزات فانما هو خداع لحس الانسان حتى يرى الاشياء على غير صورها ، أو تبديل لاشكال تلك الاشياء لاينفذ الى الصميم

ولعل القديس توما الاكوينى قد قال كلمة اللاهوت الاخيرة فى هذا الموضوع ، فلم يحدث بعده رأى غير هذا الرأى فى تصوير الشيطان او تصوير قدرته على بنى الانسان



ويأتى أكبر الاعلام بعده فى اللاهوت المسيحى على اتجاه غير هذا الاتجاه ، ولكنه لايغير شيئا من وصف الشيطان كما يغير

الشيء الكثير من وصف الذين استهواهم الشيطان فى رأيه بين رجال الدين ورجال الدنيا

جاء مارتن لوثر فى أواخر القرن الخامس عشر وعاش الى مابعد منتصف القرن السادس عشر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) ولم يتغير بين عصر الاكويني وعصره معتقد واحد من المعتقدات التى كانت شائعة عن الطبيعة الشيطانية

فكان لوثر يؤمن بوجود السحرة ومبايعتهم سرا أو علانية لارواح الشر وزمرة الشيطان ، وكان يؤمن بقدرتهم على تسخير الاوبئة والآفات واستحقاق السحرة قضاء الموت الابدى اذا ثبتت عليهم ممالأة الشياطين على المؤمنين الابرياء ، وتمتلىء احاديث المائدة التى نقلت عنه بما كان يرويه لجلسائه من قصص الشياطين السحرة فى زمانه وقبل زمانه ، ومنها أن رجلا من المؤمنين بصق على الشيطان فلاذ بالفرار ، وان رجلا آخر لقيه فكسر له قرنا من قرونه ، وحاول ذلك رجل آخر دونه فى الايمان فبطش به الشيطان ، ونصيحة لوثر للمؤمنين أن الشيطان سخرية فاضحكوا منه ولا تهابوه !

ومما تحدث به فى مجالسه قصة عن الامبراطور فردريك الذى كان يصادق علماء الغرب ويطلع على علومهم ويتهم بالزيغ والكفر لاشتغاله بالمحرمات من العلوم والصناعات ، وخلاصة هذه القصة ان الامبراطور دعا الى مائدته ساحرا مشهورا وأراد أن يناجزه فى القدرة فجعل له فى يديه مخالب كمخالب الرخاخ الاسطورية ذات الاجنحة والقوائم والانياب فخجل الساحر ولم يمد يديه الى الطعام ... وانهم لعلى المائدة اذا بصيحة من الطريق تزعج الامبراطور فينهض الى النافذة ليطل عليها ، فيغنم الساحر فرصته السانحة ويجعل للامبراطور قرونا على

راسه كقرون الايائل ، فلا يستطيع ان يرتد برأسه عن النافذة وعليه تلك القرون ...

وعلى جدار من جدران قلعة « وارتبرج » مداد سائح بقيت آثاره ، وعلم الزوار مما يرويه حراس القلعة نقلا عن المعاصرين أنه من مداد الدواة التى ألقاها لوثر على الشيطان حين تراءى له ليصده عن دعوته ويكفه عن هجماته على أحبار زمانه ، ولم يبرح اوثر طوال أيامه الى آخر حياته ينادى بأنه فى حرب مع الشياطين ويحسب القائمين بالسلطان فى الارض باسم الدين نورا على ملكوت السماء



ثم انقضت القرون الوسطى وتقدمت النهضة العلمية فاصطدمت فى كل وجهة تتجه اليها بالكلام فى « الشيطانيات » او علم « الديمنولوجى » كما عرف فى الزمن الاخير

كانت النهضة العلمية تصطدم بهذا البحث خاصة لانه كان يدور على السحر والسحرة ومخالفة « المعرفة الدنيوية » للشياطين أعداء الله وأعداء الدين ، وكانت مجالس التفتيش تعمل عملها فى مطاردة السحرة أو المتهمين بالسحر لانهم ينظرون فى الكتب التى لا يقرها اللاهوتيون

وانقسم الباحثون فى « الديمنواوجى » قسمين متنازعين : قسم اللاهوتيين وهمهم الاكبر أن يوفقوا بين النصوص الكتابية ومعارف الزمن الحديث ، وقسم العلماء التجريبيين وهمهم الاكبر أن يدفعوا عن أنفسهم تهمة التحالف مع الشيطان ، ويشككوا فى وجود الشيطان أو يجزموا بانكاره لانه لا يظهر لهم عيانا ولا يظهر لهم بالتجربة والبرهان

غير أن اللغة التى تداولها الناس من قبل القرون الوسطى

قد تلقت من « الديمنولوجى » تعبيرات مفهومة غير ملتبسة على أحد يتكلم بها أو يسمعها ، وجرت هذه التعبيرات على السنة المتدينين كما جرت على ألسنة المنكرين أو المتشككين فى العقائد الدينية . فلما كان لوثر يقول ـ مثلا ـ عن الربا وبيوت التجارة والمصارفة فى القرون الوسطى أنها « مخترعات » شيطانية وأن الشيطان هو الذى يدير تلك البيوت لحسابه ، لم يكن أحد يحمل كلامه على المجاز أو يشك فى قصده الى شيطان غير شيطان النصوص الدينية الذى يجوز أن يبدو للعيان أو يعمل مع أصحاب تلك البيوت فى الخفاء ، ولكن المتدينين وغير المتدينين شهدوا بعد ذلك قيام الصناعة الكبرى وأجهزة البخار الضخمة فوسموها « بالشيطانية » ونعتوها بالصناعة السوداء أو بصناعة الظلام وهم يأخذون من هذه الكلمات معناها الذى لا يختلفون فيه ويفهمون منها أن تلك الصناعة خاو من الرحمة والعطف ، مظلمة من ظلام الفحم والدخان أو ظلام الفشم والقسوة ، سواء نسبوها الى الشيطان او جعلوا الشيطان علما مفهوما على كل هذه المساوىء والنعوت

ويغلب على الظن أن سهولة التعبير المجازى على هذا النحو سولت لاناس فى القرن التاسع عشر أن يقحموا فوارق اللون والعنصر فى أحاديث « الديمنولوجى » وأن يزعموا كما زعم الدكتور كارترايت أن الشيطان لم يتكلم فى الجنة بلسان الحية بل كان كلامه بلسان زنجى أسود على مثال الشيطان الذى كان يصبغ بالسواد فى صور القرون الوسطى ، وكأنما اراد كارترايت ان يترقى بالفكرة درجة فوق الدرجة التى وصل اليها الاسقف آدم كلارك فى تعليقاته على سفر التكوين « سنة

١٨٢٥ » فجعل الحية زنجيا بعد ان كانت فى راى كلارك قردا من فصيلة الاورانج أو تانج .. وفى هذه الاونة ـ أو حواليها ـ كان الرحالون يسيحون فى امريكا الجنوبية فيسمعون من أهلها البيض أن الزنجى هو البهيمة الكبرى التى ذكرت فى كتاب الرؤيا الابكريفية (١) ويتشكك الكثيرون منهم فى نسبته الى حام لانهم لاينسبونه الى فصائل الآدميين !



يعود نقاد الاجتماع المحدثون الى عقيدة الخطيئة وزلة آدم فى الفردوس وهبوطه مغضوبا عليه الى الارض فيحاولون تفسيرها بأحوال الطبقات واختلاف هذه الاحوال بين عصر النبلاء وعصر أبناء الطبقة الوسطى ، ومن هؤلاء النقاد جون فلكسنر « Flexner » الامريكى الذى يقول فى فصل كتبه عن الملك الفنان : « ان عقيدة القرون الوسطى أن الانسان سيىء بطبيعته من أثر الخطيئة المتأصلة فيه قد وافقت الميول الارستقراطية لانها سوغت كبح الفرد والحد من حريته . بيد أن الطبقة الوسطى الناهضة باجتهادها لتستقبل الفرص السانحة لها أصرت على براءة الانسان وانه قد ولد ملكا وافسدته النظم التى فرضها عليه الملوك »

وليس فى المقارنة بين العقائد والاحوال الاجتماعية مايرجح هذا التفسير أقل ترجيح ، لان عقيدة سقوط آدم تشمل الانسان الحاكم وتشمل الانسان المحكوم ، وقد اقترنت بها عقيدة ملازمة لها أشد قسوة على الحاكمين من كل عقيدة

---

(١) كتاب « الكبرياء العنصرى » تاليف ديجوال
« Racial Pride », by Dingwal

شاعت فى العصور الحديثة، وتلك هى عقيدة السيادة الشيطانية على الارض وأن سادة هذا العالم شياطين أو حلفاء للشياطين

ولم تقرر المسيحية دعوة كما قررت هذه الدعوة التى تفرق بها كل التفرقة بين مملكة العالم وملكوت السماء أو ملكوت الله، تكاد المسيحية كلها أن تكون مجموعة فى هذه الدعوة قبل غيرها من دعواتها الاصيلة ، فقد كان حتما لزاما أن تجتهد المسيحية اجتهادها كله فى التفرقة الكاملة بين مملكة الارض وملكوت الله الذى بشر به السيد المسيح ، كان ذلك حتما لزاما لانها نقلت رسالة المسيح المخلص من اقامة العروش على الارض — أو تجديد ملك داود الى اقامة الملكوت الالهى فى السماء ، وكان ذلك حتما لزاما لانها جاءت بالعزاء للمحرومين من سيادة الارض والمبتلين بطغيان سادتها ، فهم فى حمى لله صاحب الملكوت الاعلى اذ يكون أصحاب السيادة والطغيان فى حمى الشيطان وفى هاوية الارض وما وراء من هاوية الجحيم :
« طوبى للمساكين بالروح لان لهم ملكوت السماوات ، طوبى للحزانى لانهم يتعزون ، طوبى للودعاء لانهم يرثون الارض، طوبى للجياع والعطاش الى البر لانهم يشبعون ، طوبى للرحماء لانهم يرحمون ، طوبى لانقياء القلب لانهم يعاينون الله ، طوبى لصانعى السلام لانهم ابناء الله يدعون ، طوبى للمطرودين من أجل البر لان لهم ملكوت السماوات »

فرسالة المسيحية فى جانب الانسان المغلوب ، وسيادة العالم هى ثمرة الخطيئة التى باء بها الغالبون ، ولم يتسم الشيطان بوسم السيادة على العالم تعظيما له بل تهوينا من شأن العالم وتحقيرا لغنائمه ومطامعه وشهواته، ولم يكن أيسر على طالب الحرية الفردية فى الحضارة الحديثة من أن يقول انه هدم سيادة

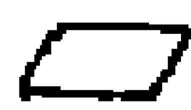
الشيطان وانه غلب الخطيئة فى معقلها وكفر عن جرائرهابالثورة على أصحاب السيادة الشيطانية

وعلى هذا الفهم ينبغى أن تفهم رسالة المسيحية التى بشرت بملكوت الله وجعلت هذه البشارة مقارنة للنعى على السيادة الشيطانية والازراء بها ، فكل تعظيم لسيادة الشيطان فهو فى لبابه تهوين للعالم الذى يسوده وتقديس للملكوت الالهى الذى يرجوه المساكين والحزانى والودعاء والمطرودون من أجل البر وصانعو السلام

اما رسالة المسيحية فى تقرير طبيعة الشيطان نفسه فهى تفرقة أخرى لا تقل فى قوة مغزاها عن تلك التفرقة بين مملكة هذا العالم ومملكة السماء

لقد كان الضرر والشر مترادفين فى الديانة العبرية أو كالمترادفين ، فالمسيحية هى التى فرقت بين الضرر الذى هو نقيض السلامة والامان والمنفعة ، وبين الشر الذى هو نقيض الخير والفضيلة والصلاح ، فذلك ضرر مرتبط بالديانة، وهذا شر مرتبط بالمروءة والتقوى

ان المسيحية هى التى فرقت بين مثال الضرر فى الحية الحيوانية ومثال الشر فى الروح الخبيث الذى ينفث سمومه فى القلب ولا يضير الانسان الا حيث يضار حقا فى أشرف خصال الانسان



وكلمة عابرة تقال فى ذيل هذا الفصل عن رسالة المسيحية التى جاءت بها للتعريف بمعانى الشيطان

ان الكنيسة الرومانية اذا رفعت أحدا الى منزلة القديسين لم تفعل ذلك قبل التحقق من براءته من العيوب التى تنتفى

معها القداسة ، وتمهد فى هذه الحالة الى وكيل للخصومة عليم بكل ما يقال عنه لانتقاصه بالحق أو بالباطل

ووكيل الخصومة هذا يسمى بالمحامى الشيطانى « Advocatus Diaboli » تشبيها لعمله بعمل الشيطان فى انكار فضائل ايوب أمام الله ، وآية جديدة على عمل الشيطان فى امتحان الخير ، وانه دور لازم فى تقرير كل قداسة ؛ يخلقه الناس مختارين ولا يصح من أجل هذا أن يقال انه وهم من اختراع الخيال



الاديان الكتابية

(ج) الاسلام

دور الشيطان فى الديانات الكتابية الثلاث مختلف

واختلافه بينها جوهرى يدخل فى كيان كل ديانة منها ، وترتبط به مقاييسها للخير والشر والتبعة والعقاب

فهو فى الديانة العبرية دور عامل مستغنى عنه ، لانه شبيه بغيره

وهو فى الديانة المسيحية دور عامل فعال لا ينفصل من حكمة الوجود كله

وهو فى الديانة الاسلامية دور عامل فضولى مرذول ،يختلس ويروغ ويخذل فريسته بالنية الخفية والعمل المكشوف

على مسرح الخلق دور الشيطان فى الديانة العبرية دور « النكرة » الذى ينوب عنه كل نكرة مثله ، اذ ليس بين الشيطان والملك طريق مفترق ولا عمل منقسم ، وليس بين الاله الذى يعبدونه والاله الذى يعبده سواهم خلاف فى الرضى والغضب ولا فى النعمة والنقمة غير الخلاف بين النظراء فى السلطان

اما المسيحية فدوره فيها على مسرح الخليقة دور الشرير فى قصة الخلق كله ، اذ كان قوام الخليقة سجالا بين الخطيئة والكفارة أو الغفران ، فلولا غواية الشيطان لم يسقط آدم ،

ولولا سقوط آدم لم تكن به ولا بذريته حاجة الى الخلاص من طريق الفداء

وليس فى الاسلام ذنب يرثه أحد من أبيه أو يورثه لبنيه ، فغواية الشيطان لا تخلق الخطيئة ولا تعفى منها ، وشوكة الشيطان لا تحمى أحدا ولا هو يسخرها لحماية أحد ، وحدود التبعات واضحة حيث يعمل الشيطان وحيث لا يعمل ، فهو لا يحمل عن شريك من شركائه تبعة وزر من أوزاره ، ولا يدارى حماقة الغافل الذى ينقاد اليه

وفى القرآن الكريم يحمل آدم وحواء تبعة الخطيئة على علمهما بغواية الشيطان :

« قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »

وكلما ذكرت فى القرآن الكريم غواية ابليس ذكر معها أنه ما كان له عليهم من سلطان :

« ان عبادى ليس لك عليهم سلطان »

ولذلك تقول الشياطين لمن يرجع اليها بذنبه :

« وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين »

«ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين »

ولا ينفع من ضل أن يعتذر من ضلالته بوسواس الشيطان، فان الشيطان ينكره ويبرأ منه :

« كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال انى برىء منك انى أخاف الله رب العالمين »

... « وقال الشيطان لما قضى الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا أن

دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا انفسكم »

وليس شياطين الجن بأقدر على الغواية من شياطين الانس ، فان الشيطنة هى عداوة الحق حيث كانت : « **وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا** »

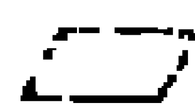
بل ليس للشياطين من الجن علم الغيب ولا علم السحر الا أنه خداع للحس وفتنة للنفس تخيل الى المخدوع ما ليست له حقيقة قائمة فى غير وهمه : « ·· **يعلمون الناس السحر وما انزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحـــد الا باذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق** »

وفى سورة سبأ عن جنود الجن التى جهلت موت سـليمان وهو قائم أمامهم « **فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمـــون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين** »

وانما المسحور كالمخمور مخدوع الحواس « **انما سـكرت ابصارنا بل نحن قوم مسحورون** »

« **يخيل اليه من سحرهم انها تسعى** »

« **ولا يفلح الساحرون** »



وقد ورد فى القرآن ذكر الجن الذين يعملون للانسان باذن الله ومنهم جنود سليمان « **ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون**

له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات »

وفيه ذكر الجن التى تؤمن بالدين وتصدق بالكتب ، وذكر الجن التى تسترق السمع من السماء . وذكر الجن التى تقارن الانس ، وذكرت الجن والعفريت الذى تطوى له المسافة وتنقاد له المصاعب ، ولكنه لم يذكر لها فى مجال التكليف عملا قط يسقط عن الانسان تبعته أو يجعل لها سلطانا عليه بغير مشيئته ، ولا يستعاذ فيه من شر يأتى به الجن الا وهو كذلك من الشرور البشرية،أو من الوسواس الخناس « **الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس** »

وعلى هذه الصفة تروى تبعات الخطيئة حيث رويت فى قصة آدم وما بعدها من قصص الاولين

وقد رويت قصة آدم فى مواضع متفرقة من القرآن الكريم، ورويت توبته من عمله أو قوله فى بعض هذه المواضع ، وهى جميعا مآل التكليف الذى يفرض على الانسان : يسأل عن خطيئته وان وسوس له الشيطان ، وتحسب له توبته وان كانت بهداية الله :

« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة ٠ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ٠ قال انى أعلم ما لا تعلمون ، وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ٠ قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم ٠ قال يا آدم انبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السماوات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ٠ واذ قال للملائكة اسجدوا

لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »



وجاءت فى سورة الحجر حيث يفاضل ابليس بين خلقته وخلقة آدم : « والجان خلقناه من قبل من نار السموم ، واذقال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، الا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين ، قال يا ابليس مالك ألا تكون مع الساجدين ، قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ، قال فاخرج منها فانك رجيم وان عليك اللعنة الى يوم الدين ، قال رب فانظرنى الى يوم يبعثون ، قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم ، قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين ، قال هذا صراط على مستقيم ، ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين »



وقد تساءل المعقبون على قصة آدم من الشراح الغربيين عن

معنى الشجرة التى أكل منها آدم فى الدين الاسلامى ، وقال بعضهم ان القرآن تركنا فى حيرة من أمر هـذه الشجرة ، ما معناها وماذا جناه آدم وحواء من جراء الاقتراب منها وأكل ثمراتها ؛ وليس فى الامر ما يدعو الى التساؤل ولا الى الحيرة ؛ لولا أن هؤلاء الشراح وضعوا فى أذهانهم معنى معلوما وأرادوا أن يجدوه فى القرآن فلم يجدوه كما أرادوه • اذ لايخفى على الناظر فى القصة أن ثمرات هذه الشجرة هى ثمرات «التكليف» بجميع لوازمه ونتائجه ، وما كان الفارق بين آدم قبل الاكل منها وبعد الاكل منها الا الفارق بين الحياة فى دعة وبراءة والحياة « المكلفة » التى لا تخلو من المشقة والشقاق والامتحان بالفتنة ومعالجة النقائص والعيوب ، وكلما تكررت القصة فى الآيات القرآنية كان فى تكرارها تثبيت لهذا المعنى على وجه من وجوهه المتعددة ، ويبدو ذلك جليا من المقابلة بين ماتقدم وما جاء عن هذه القصة فى سورة الاعراف ، وذلك حيث يذكر التصوير بعد الخلق ، أو اعطاء الصورة بعد اعطاء الوجود ، ثم تمضى القصة على ما يلى :

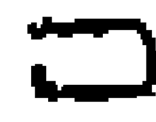
« ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين • قال ما منعك ألا تسجد اذ أمرتك ، قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين • قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين ، قال انظرنى الى يوم يبعثون ، قال انك من المنظرين ، قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين • قال اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم اجمعين • ويا آدم اسكن

انت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين • وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور • فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنــــة ، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشــجرة وأقل لـكما ان الشيطان لكما عدو مبين • قالا ربنا ظلمنــا أنفســنا وان لم تغفر لنــا وترحمنا لنكونن من الخاسرين • قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين • قال فيهــا تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون • يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى ســوءاتكم وريشــا ، ولباس التقوى ذلك خير • ذلك من آيات الله لعلهــم يذكــرون • يا بني آدم لا يفتننــكم الشيطان كمــا أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباســهما ليريهما سوءاتهما • انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم • انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون »

ومن تمام التوكيد لحدود التكليف فى هذه القصة أن خطاب آدم به لا يغنى عن خطاب بنيه وأعقابه ، فهو مكلف وهم مكلفون ، وخطيئته لا تلزمهم وتوبته لا تغنى عنهم ، ومولدهم منه يخرجهم على سنة الاحياء المولودين حيث يحيون وحيث يــكدحون ويموتون .

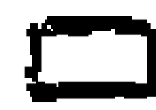
ويميل الشراح الغربيون الى النقد كلما وجدوا له ندحة فى قصص القرآن ولا سيما هذه القصة ، وآخر من وقفنا على نقد له من هذا القبيل « بابينى » الايطالى صاحب كتاب الشيطان ، فانه يستغرب أن يؤمر ابليس بالسجود لآدم مع غلو القرآن

فى تحريم الشرك وتنزيه الوحدانية الالهية ، ولكن المطلعين من الشراح الغربيين على اللغـة يفهمون معنى السـجود هنـا ولا يخرجون به عن معنى التحية والاكبار ، ومنهم من يفعل ذلك لأنه يريد أن يرجع بعقائد الاسلام الى الاصول الاسرائيلية كما فعل تورى « Torrey » فى كتابه عن أسس الاسلام من التراث اليهودى ، ولم يكن فى التراث اليهودى ذكر لغير الحية فى هذا المقام ، وهو فارق شاسع تقوم عليه الفوارق الشاسعة جميعا فى التفرقة بين الضرر والشر أو بين الشر الحيـــوانى والشر الاخلاقى كما قدمناه



وقليل من النقاد الدينيين فى الغرب من يفطن للخاصـــة الاسلامية الاخرى التى تتمثل فى قصة آدم مع الملائكة والجان، فان الغالب عليهم أن يتكلموا عن زلة آدم فيسموها « سقوطا» ويرتبوا عليها ما يترتب على السقوط الملازم لطبيعة التكوين ، وليس فى القرآن أثر قط للسقوط بهذا المعنى فى حق كائن من الكائنات العلوية أو الارضية ، فليس فيه شيء عن سقوط الانسان وانما هو انتقال من حال الى حال ، أو من عهد البراءة والدعة الى عهد التكليف والكلفة ، وليس فيه شيء عن سقوط الملائكة وانحدارهم من طبيعة عليا الى طبيعة دونها من طبائع الشيطان ، وقصة الملكين هاروت وماروت فاصل بين مايعزى الى الملك ويعزى الى الشيطان من ضروب السحر المباح أو السحر الحرام . **« واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحـــد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر .. »**

فالملك الذى يعرف السحر لا يخدع به أحدا ولا يعلم من يريد أن يتعلم الا أن يطلعه على حقيقته ، وليس الخداع ولا الاضرار بالعلم من طبيعة الملك بل من طبيعة الشيطان



هذه القصة بعينها ـ قصة هاروت وماروت ـ يطول فيها الجدل بين اللاهوتيين الباحثين عن أصولها ، لأن شراح التلمود من اليهود يعتسفون الاقوال والشواهد لردها الى المصادر الاسرائيلية ، وكثير من الشراح اليهود أنفسهم وغير اليهود ينفون العلاقة بينها وبين تلك المصادر ، فمن الذين ردوها الى المصادر الاسرائيلية من يرى أن الملكين هما اريوخ وماريوخ الموكلان بحراسة كتاب ادريس ، ويستند صاحب كتاب أساطير اليهود الى مراجع كثيرة لتصحيح هذا الخطأ وترجيح مصدرها الفارسي (١) ... ويزعم جيجر «Geiger» أنهما الملكان شمهازى وعزازيل اللذان هبطا الى الارض فى عهد نوح فتزوجا من بنات الناس ووجدا أنهن « حسنات » كماجاء فى سفر التكوين ، ويعتمد جورج سيل مترجم القرآن على تحقيقات هايد «Hyde» فى تصحيح هذا الخطأ والرجوع بها الى أصل بابلى كما جاء فى القصة القرآنية ، وكاد الخلاف على هذه القصة أن يعدل الخلاف على قصة آدم وتعليمه الاسماء ومخالفته أمر ربه بغواية الشيطان ، وهى القصة التى يحسبها بعضهم من الاخبار التلمودية ، ويقول ابشتين ، وحرنبوم أن التلمود اقتبسها مباشرة من المراجع الاسلامية وبطريق غير

(١) صفحة ١٦٠ من الجزء الخامس من مجموعة جنزبرج Ginsberg

مباشر من المراجع المسيحية

غير أن هذه المناقشات جميعا يعتورها النقص الشامل لتحقيقات النصوصيين والحرفيين أجمعين ، وهو الوقوف عند النص أو عند الحرف واغفال الجوهر الذى من أجله استحقت القصة أن تكون موضع اهتمام ومناقشة فى مباحث المقارنة بين العقائد والديانات ، فليست المسألة فى هذه القصص مسألة أسماء ومواقع ولكنها مسألة القيم الروحية التى ترتبط بها وتتغير مع الزمن حسب تفسيراتها ولو بقيت بنصها وحرفها في الروايات المتعاقبة

وجوهر المسألة كله فى القصة التي نحن بصددها انالقرآن الكريم لم يذكر قط شيئا عن سقوط الخليقة من رتبة الى رتبة دونها ، ولم يذكر قط شيئاعنسقوط الخطيئة الدائمةأوسقوط الخطيئة التى يدان فيها الانسان بغير عمله ، اذ العقيدتان ــ كلتاهما ــ غريبتان عن روح الدين الاسلامى كل الغرابة ، ولا يعرف الاسلام ارادة معاندة فى الكون لارادة الله يكون من أثرها أن تنازعه الارواح وتشاركه فى المشيئة وتضع فى الكون أصلا من أصول الشر وتسقط الخلائق التى ارتفعت سوية بمشيئة الخالق • فقد جاء الاسلام بهذه الخطوة العظمى فيأطوار الاديان فقرر فى مسألة الخير والشر والحساب والثواب أصح العقائد التى يدين بها ضمير الانسان ، وقوام ذلك عقيدتان : أولاهما وحدة الارادة الالهية فى الكون ، والثانية ملازمة التبعة لعمل العامل دون واسطة أخرى بين العامل وبين ضميره وربه

فليست الخطيئة فى الاسلام أصلا كونيا يعاند الارادة الالهية بارادة مثلها أو مقاسمة لها فى أقطار الوجود العليا والسفلى ، ولكنها اختلاس وخلل وتقصير ، وله علاجه منعمل

العامل نفسه بالتوبة والهداية بالتكفير والجزاء ، ولما كانت فضيلة آدم على الملائكة والجن انه تعلم الاسماء التى لم يتعلموها، كانت هدايته الى التوبة كذلك بكلمات من المعرفة الالهية ولم تكن بشيء غير عمله وقوله

فاذا فهمت العقيدة الاسلامية على هذا الوجه فهذه هى القيمة الروحية التى تجرى المقارنة والموازنة عليها كائنا ما كان القول فى تشابه الاسماء والقصص وتوافق المراجع والاسانيد، وما من دين قط خلا من الاسماء والقصص التى سبقته اليها الاديان المتقدمة عليه فى تاريخ دعوتها، وليس أكثر من الاسماء البابلية والفارسية فى كتب العهد القديم وكتب التلمود ، وليس أكثر من هذه جميعا فى مسألة واحدة قبل كل مسألة يتناولها الايمان ، وتلك هى مسألة الخير والشر والتبعة والجزاء ولا خلاف ــ مع فهم هذه المسألة ــ على فضل الاسلام فى هذه السبيل



ان الاديان الكتابية لم تتعاقب عبثا ولم تأت المقدمات فيها بغير نتائجها

فالعبريون تلقوا ديانتهم وهم على حالهم من الوثنية فلبثوا زمنا يخلطون بين فواصل الخير والشر وفواصل المنفعة والضرر، ولبثوا زمنا أطول من ذلك يخلطون بين الوحدانية فى الوجود كله وبين الوحدانية التى تميزهم باله لا يقبل المشاركة من الارباب الاخرى ، كأنهم شركاء المنافسة والمناظرة بغير حق وبغير قدرة

ثم جاءت المسيحية ففصلت بين الخير والشر بفاصل كبير ، وحققت معنى الخير الروحانى الذى ينفصل من معنى المنفعة

والسلامة ، وباعدت بين العالمين وتركتهما من بعدها كأنهما دولتان تتقابلان ، هذه في السماوات وهذه في الارضين ، وتكاد الارضية منهما تبسط يدها الى حوزة الاخرى وتأخذ منها الى حوزتها معقلا يسترد ويستعاد ، ولا يملك الانسان فيه حيلة أمام الاله وأمام الشيطان ، وانما يجيء الذنب بعمل الشيطان ويزول الذنب بعمل الاله

ثم جاء الاسلام فبسط على الوجود كله وحدة لا مثنوية فيها على وجه من الوجوه ، ومنح الارادة الانسانية حقها وتبعتها وجعلها ظالمة لنفسها اذا سمحت للشيطان أن يظلمها ، فانما هو خداع وضعف ، وانما هما طريقان بينان لا يخدع عنهما سوى المأخوذ أو المسحور ، الا أن يؤثر الضلالة على الهدى ويصر على ضلالته بين دواعي التوبة والندم

فهذه الديانات لم تتعاقب عبثا ولم يكن لها في أطوارها سبيل أقوم من هذا السبيل ، ولو نظرنا اليها فرضا وتقديرا ولم ننظر الى وقائع التاريخ



وكل ما تقدم انما يتبين لنا من العقائد الاسلامية كما نتلقاها من القرآن الكريم ، وقد أحسن فهمه مفسرون وأساء فهمه مفسرون ، ولعله لا ينصف العقائد الاسلامية شيء كما ينصفها في هذا المقام أن نرجع الى المسيئين فنراهم جميعا قد أساءوا فهم كتابهم لأنهم فسروه بالاسرائيليات والتلموديات وحسبوها سندا محققا عند أصحابها الاولين ، وما كانت عندهم غير أحاديث يتلقفونها ممن تقدمهم لأنهم لم يفهموا كتبهم فالتمسوا فهمها بمعونة من تلك الاحاديث



وليس من عملنا هنا أن نستقصى أقوال المفسرين فى شئون الغيب ، ولكننا نلخصها اجمالا فيما نحن بصدده من طبيعة الشيطان وطبيعة الخلائق العلوية كالملائكة والارواح • فأضعف الاقوال ان الملائكة والجن ، تشملهم كلمة الاجتنان لمعناها اللغوى الذى يفيد معنى الخفاء ، وأرجحها القول الذى أخذ به الفيلسوف الرازى فى تفسيره حيث يقول : « لما ثبت أن ابليس كان من الجن وجب ألا يكون من الملائكة لقوله تعالى : ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون : قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن » وهذه الآية صريحة فى الفرق بين الجن والملائكة

ولا حاجة بنا الى اسهاب أو ايجاز فى نقل أحاديثهم عن الجن وأسمائها وأجسامها ومن يأكل منها وما يأكله أو لا يأكله ، فهو على لغوه وخطله ليس له مساس بما نعنيه فى هذا السياق

الفصل الرابع

* عباد الشيطان
* حلفاء الشيطان

عباد الشيطان

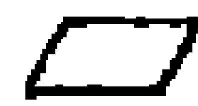
تخلفت ــ بعد الاديان الكتابية ــ نحلة تتسم بالشذوذ المطبق فى جميع اطوارها . لانها شاذة فى موضوعها ، وشاذة فى انتسابها الى أصولها ، وشاذة فى تلفيق مقوماتها وأركانها ، وشاذة فى وسائل نشرها والدعوة اليها

موضوعها شاذ وهو عبادة الشيطان

وانتسابها الى أصولها شاذ لانها تأخذ من الهندية والمجوسية والشامانية واليونانية وأديان الحضارة الاولى والاديان الكتابية

وجميع مقوماتها وأركانها شذوذ فى شذوذ ، لانها تجمع النقائص فى شعائرها وتعمل أحيانا على مرضاة الشيطان ومرضاة الاله الاعلى بفريضة واحدة

ووسائل الدعوة اليها شاذة لانها سرية يبالغون فى كتمانها مع امتداد معابدها من آسيا الوسطى الى أوربة الغربية وأفريقية الشمالية ، ويعجب الناظرون فى أمرها من الذى يتولى نشرها وما بواعثه النفسية أو القومية التى تحضه على نشرها ، وهى مع الاديان الاخرى بين موافقة تأباها تلك الاديان ومناقضة تثيرها عليها



ومن العسير أن توضع هذه النحلة فى نسق منتظم مع تطور العقائد فى مجموعة الامم الانسانية ، ولكننا نحاول وضعها فى مدرجة من هذه الاطوار جهد المستطاع ، مع ملاحظة الاصول

الجغرافية والعنصرية

فمن الراجح المعقول أن عبادة الشيطان تنتمى قديما الى الشعور بقوة الشر فى البيئة التى نشأت فيها وأحاطت بها

ومن الراجح المعقول أيضا أن الشعور بقوة الشر قد كان على أشده حيث آمن الناس بقسمة العالم بين النور والظلمة وبين الطيبة والخباثة ، وجعلوا لاله الشر حصة فى الكون مساوية لحصة اله الخير أو قريبة منها ، وتلك هى الثنوية «الزردشتية» منذ أقدم أطوارها

وينبغى أن نذكر أن الثنوية كانت تفرض لاله الشر فى بعض الازمنة سلطانا أكبر من سلطان اله الخير فى العوالم الارضية ، وتسوغ هذا الفرض الغريب بأن سلطان الشر سلطان موقوت يندثر بعد حين ، فالنور والخير منفردان بالسماوات العليا ، والظلمة والشر غالبان على الارضين السفلى الى الموعد المعلوم ، ثم يتقهقر هذا السلطان فى العالم الانسانى ليخلفه سلطان الخير أبد الآبدين

قامت هذه العقيدة قديما فى أرض فارس على تخوم السهوب الاسيوية ، حيث لاتعرف العشائر المترحلة غير شياطين الصحارى أو أرواحها المتمردة ، ولا تزال فى كل رحلة من رحلاتها عرضة لعصف الثلوج والحرارة وفتك السباع والافاعى ونكبات القحط والطوفان ، ولا تأمن فى طريقها مالم تكن على هوى الشيطان

ولم يكن هوى تلك العشائر فى حياتها الاولى مخالفا كل المخالفة لهوى الشيطان فى عنفه او فى كيده او ختله أو فى اندفاعه مع شهواته وأطماعه ، فكانت تنساق لاهوائها حين تزعم انها تنساق لاهواء الشيطان

فى تلك الارجاء تأصلت العبادة الثنوية وتأصلت معها العبادة الشامانية وهى عبادة الارواح والشياطين

ففى بلاد العمار ــ أو بلاد الحضارة الفارسية ــ تهيأت الاذهان للعقائد الكونية الواسعة فتأصلت الثنوية وعلمت الناس أن الشر غالب على الارض ولكنه مغلوب بعد حين ، وأن « اهريمان » رأس الارواح الخبيثة نافذ السلطان فى عالم الانسان

وفى السهوب المقفرة تأصلت الشامانية وشعائرها التى لا تفصل بين الكهانة والسحر بفاصل محدود ، فقد يكون الروح الواحد طيبا هادئا اذا رضى واستراح الى مقامه واستوفى مطالبه من فرائسه وضحاياه ، وقد يكون خبيثا عارما يتخبط فريسته فلا تجدى عنده شفاعة الكاهن الساحر أو يثوب الى السكينة بمحض هواه



لما ظهرت المسيحية كانت الثنوية والشامانية على أقوى ما كانتا عليه قبل الميلاد

ونشطت مع المسيحية فى مجال واحد عقيدة ثنوية حملها جنود الرومان من تخوم الهند الى الجزر البريطانية ، وهى عقيدة « مترا » بطل النور الذى استشهد فى حربه لاله الظلام ، ووعد عباده بالعودة اليهم بعد حين مظفرا متمكنا من الارض والسماء مادامت الارض والسماء

وانهزمت عقيدة « مترا » أمام المسيحية

ولكن هزيمة العقيدة المترية لم تقتلع الثنوية من جذورها ، ولم تكن أحوال العالم فى القرون الاولى بعد الميلاد مما ينسى الناس وطأة الشر وسلطان الشيطان ، ولم تكن المسيحية فى

دعوتها تنفي غلبة الشيطان على العالم وانقياد السادة المسيطرين على الامم لوساوسه ورذائله ، فنجمت من بلاد الثنوية نحلة أخرى تسمى المانوية منسوبة الى « مانى » الذى ولد فى بابل الجنوبية حوالى سنة (٢١٦ للميلاد ، واستهل دعوته فى ابان قيام الدولة الساسانية فكان له من ملكها الثانى « سابور الاول » نصير قوى أيام حكمه ، على أمل منه فى توحيد النحل المجوسية على قواعد الدين الجديد ، ولكنه أمل لم يتحقق ولم يستطع مانى أن يصمد لاقطاب النحل الاخرى بعد حكم سابور ، فألقى فى السجن حيث مات وهو يناهز الستين ، ووسم أتباعه باسم الزنادقة أى الكذبة المنافقين ، وقيل عنهم انهم « اهرمانيون شيطانيون »

الا أن « مانى » كان من المجددين فى عقائد قومه وفى ثقافتهم وفى كتابتهم الابجدية ، ومن مساعيه فى تجديد الثقافة تيسير الكتابة بالحروف الآرامية وتنقيح اوزان الشعر والاناشيد المقدسة وتقريب مذاهب العرفيين « Gnostics » الى مذاهب المجوسية والمسيحية وتحقيق الخلاص الروحانى من طريق الحكمة والتعمق فى أسرار العلوم

ولم يخرج مانى من نطاق الثنوية فى آفاقه الواسعة ، فمعظم مذهبه ثنوية « زردشتية » أو مجوسية ، وقليل منه مقتبس من آراء العرفيين وعقائد المسيحية فى الصدر الاول قبل أن يتوسع فيها الآباء المتأخرون

فالوجود من ازل الآزال وجودان منفصلان : عالم النور وعالم الظلام ، ، ولا فاصل بينهما يمنع أحدهما أن يبغى على الآخر اذا شاء ، ولكن عالم النور لايعرف البغى بل يعرفه رب الظلام حسدا ، فيزحف بجنوده كرة بعد كرة ويأبى رب النور

أن يقابل العداء بالعداء لانه بطبيعته محبة وسلام وحسبه أن يتجلى حيث شاء فيجفل منه الظلام

ولما تكررت هجمات رب الظلام على العالم النورانى يحاول ان يكمن فيه وينتزع منه ماستطاع ، خلق رب النور آدم السماوى وأرسله الى الارض بمزيج من طبيعة الملك العلوى والحيوان الارضى ليلقى جنود الظلام فى ميدان القتال ، وكان آدم هذا ـ أو جيومرث كما يسميه المجوس ـ طيبا سليم القلب يحارب شريرا مزودا بسلاح الخدعة والدهاء ، فانهزم ووقع فى أسر الظلام ولم يجد رب النور بدا من الهبوط بنفسه الى الميدان لانقاذ مخلوقه الاثير لديه من غياهب العالم السفلى ، فأنقذه ورفعه الى الشمس حيث يقيم بعيدا عن الارض وعالمها المهدد بغزوات الشياطين

الا أن الاله السفلى عرف من تركيب جيومرث سر الآدمية العليا فصنع على يديه « آدم » آخر يمتزج فيه الخير والشر والروح والجسد ، وظل آدم حائرا بين طبيعتيه حتى اشفق الاله السماوى عليه فأرسل اليه المسيح ليدله على أشرف طبيعتيه ويعلمه الغلبة على أخس هاتين الطيعتين ، فجعل آدم ينادى منذ ذلك الحين : « ويل لمن خلق جسدى واستبعد روحى » وخذلته حواء فهبط بها الملائكة الى الجحيم ومعهما ذريتها من أبناء الشياطين ، ولم يكن للملائكة منذ تلك اللحظة من رسالة تحت السماء الا أن يستخلصوا العوالم النورانية من شوائب الظلمات ، ثم ينفصل العالمان ويقضى على العالم السفلى بالدمار

سرى هذا المذهب المانوى شرقا الى الصين والهند وغربا الى افريقية الشمالية وآسيا الصغرى ، وسرت معه عقيدة

خلق الشيطان للبشرية وسيادته على العالم الارضى وبقائه متسلطا عليه الى اليوم الاخير

ووافق ذلك السريان النحلة الشامانية بين أواسط آسيا وأوربةالشرقية ، فدخلتها المسيحية وعشائرها مؤمنة بالسحرة والشياطين تتسامع بأن اله المسيحيين ترك الارض للشيطان الاكبر فلا حيلة لها معه غير أن تترضاه وتزدلف اليه ، وقد بقيت المسيحية الصحيحة مجهولة فى تلك الاقطار الى مابعد القرن الثانى عشر ، وبقيت نحلة « البوجوميل » ـ أى النحلة الشيطانية ـ غالبة على عشائر البلغار والعشائر البلقانية عدة قرون

ومع المانوية والشامانية نحلة أخرى ـ أو نحل شتى على الاصح ـ تعرف باسم النحل الاورفية « Orphism » وتشترك فى المراسم الخفية التى تعاقر فيها الخمر وتستباح الشهوات ، ويعلو فيها اسم ديونيسس « Dionysus » الذى يعتقد اليونان أنه ابن زيوس رب الارباب من بيرسفون وانها حملت به منه وهو متنكر فى صورة الحية ، فقتله المردة واستخلصت الربة « أثينا » قلبه فهو القلب المقدس الذى كان أصحاب النحل الاورفية يحتفلون به ويتخذونه رمزا للاهواء والآلام

ويعتقد الاورفيون أن الاله أورفيوس يهدى صحابته فى ظلمات العالم الاسفل بعد الموت ، ويحفظون لرحلته هذه مراسم منقولة من كتاب الموتى المعروف فى الديانة المصرية القديمة

وظاهر من صور الشيطان التى عاشت بين الاوربيين المشارقة فى صدر المسيحية أن عباده يقرنون بينه وبين ديونيسس صاحب التجلى الاعظم فى حفلات الخمر والمجون ، وكانوا يتقربون لديونيسس بجدى يربونه لهذا الغرض

ويصورونه ـ أى ديونيسس ـ فى صورة « الساتير » الذى يتزيا بجلد الماعز ويلبس قرونها على جبهته ويجر وراءه ذنبا طويلا كأذنابها ويمشى بقدمين لهما ظلفان مشقوقان ، وكذلك كانت صورة الشيطان فى محافل عباده الاولين

ومع المانوية والشامانية والاورفية ينتشر المعرفيون من بلاد فارس الى عاصمة الدولة الرومانية ، ومنهم من يؤمن بالخلاص الى النور من طريق الظلام ، والخلاص الى الطهارة من طريق الرجس ، والخلاص الى الله من طريق الشيطان ، والخلاص الى المعرفة من طريق الجهالة بمعانيها جميعا فيما اشتملت عليه جهالة العقل وجهالة الطباع

هذه فلول العقائد التى تجمعت منها نحلة الشيطان وطال بها الزمن قبل شيوع المسيحية فى دور النزاع بين بقايا الاديان الوثنية وطلائع الدين الجديد ، ويؤخذ من ألقاب الشيطان فى بعض اللغات الاوربية الشرقية ان المظالم الاجتماعية كانت بعض أسباب الكفر بالاله السماوى والاقبال على عبادة الشيطان المتمرد الذى يناوئه ويعلن الثورة عليه ، فقد كانوا يسمون هذا الشيطان « نصير العبيد » وكانوا يحسبون أنه ضحية القضاء الكونى الذى هم ضحاياه



ولم يكتب عباد الشيطان أسرار عبادتهم ، لانهم كانوا يكتمونها حذرا من خصومهم ويكتمونها مجاراة لطبيعة العبادة « الشيطانية » التى لاغنى لها عن الظلمة والخفاء ، وما رواه عنهم خصومهم لا تتفق فيه روايتان على جميع التفصيلات ، ولا نخال أن عبادات الشيطان كانت متفقة بينها فى أماكنها المتباعدة بين آسيا الوسطى واوربة الغربية ،

فان العبادات الصريحة المكشوفة تختلف وتتنازع حين تنتشر على هذه المسافات الشاسعة من الاقاليم والسلالات واللغات والاحوال الاجتماعية والنفسية ، فلا جرم تختلف العبادات السرية اذا باعدت بينها مسافات كهذه المسافات

الا أن المشـــهور من نحل العبادة الشـــيطانية ثلاث ، هى الكاثارية والبوجمولية والالبية ، ويرجح المؤرخون لها أنهـا أسماء مفترقة لنزعة واحدة تختلف فى التسمية حسب علاقاتها المحلية ، مع وحدتها فى مصادرها والتقاء مصادرها جميعا فى الرقمة الوسطى بين القارتين الاسيوية والاوربية

غلبت الكاثارية على العشائر الالمانية ، واسمها مستعار من كلمة « Cathar » بمعنى الطهارة فى اللغة اللاتينية المتوسطة ، وكانت فى أصلها نحلة زهد ورهبانية ثم انحرفت قليلا قليلاالى خليط من الوثنية وبقايا الديانات المتخلفة من الحضـــارات الاولى

وغلبت البوجمولية على بلاد البلقان ، واسمها مأخوذ من السلافية بمعنى أحباب الله ، او مأخوذ من اسم داع مشهور من دعاتها حولها من العبادة الصريحة الىعبادة الخفاء «Bogomil»

وغلبت الالبية « Albigenses » على فرنسا الجنوبية ونسبت الى « البى » « Albi » التى كان مركزها الاشهر فى غرب القارة وجنوبها

ولم تتفق هذه النحل فى شعائرها وعقائدها كما اسلفنا ، ولكنها تتفق فى قاعدة مشـــتركة بينها وهى قاعـــدة الديانة المانوية ، فكلها مانوية تضـــاف اليها حواشي الوثنية المحليـــة والمقتبسات المشوهة من العقائد المسيحية ، ولا تخلو عباداتها جميعا من اباحة بعض المحرمات وتحريم بعض المباحات التى تخالف بها جميع الاديان الكتابية ، وان لم يكن بينها وفاق

شامل للمحرمات والمباحات

فمنها مايحرم الزواج لان الزواج يستبقى النسل فى عالم الشر والفساد ، ولكنه لايحرم الفسق ولا الشذوذ ، بل يدخلهما أحيانا فى الشعائر المفروضة لانهما يرضيان الشيطان

ومنها مايحرم اللحم والجبن والبيض وكل ماجاء من تناسل من ذكر وأنثى ، ولكنه يبيح السمك لاعتقادهم انه لايولد بالتلاقح بين الجنسين

ومنها مايزعم أن آدم طلق حواء وتزوج بالربة البابلية التى تسمى ليليت أو ليلى ، وأن حواء تزوجت بعده بمارد من الجن فجاء النوع الانسانى خليطا من الآدميين والمردة وذرية الارباب الوثنية

ومنها مايقدس المسيح وينكر الصليب ، ولاينكرونهلتكذيبهم صلب المسيح . بل لانهم يقولون : « ان مامن أحديعبد المشنقة التى خنقت أباه ! »

واشتهر من عباداتهم عبادة القداس الاسود ، ومحورها صورة الشيطان عاريا وصورة فتاة عارية تتقدم المصلين اليه وتنقل اليهم « البركة » بلمس أعضائه ، وتنهى الصلاة بضروب من الاباحيات كالتى كانت تقترف فى عبادات أرباب النسل عند الوثنيين

وكل جماعة « سرية » ظهرت فى القرون الوسطى فهى على صلة بطائفة من تلك الطوائف ، ومنها الجماعة التى سميت باسم الهيكليين والحبليين ، وكان هؤلاء يتقلدون حبلا قصيرا ويلبسون قميصا يسمونه الكميسية « Camisia » ويقال انهم نقلوا الاسم من جزيرة مالطة التى كانت معقلا للهيكليين وكانت الكلمات العربية شائعة فى لغتها منذ القرون الوسطى ،

ولا تزال كذلك الى اليوم

والعقيدة الغالبة بين هذه الطوائف ، على تنوع مذاهبها ، هى سيادة سلطان الشر على العالم الارضى خاصة وتنازع الكون بين القوة العليا والقوة السفلى ، وضرورة « التفاهم » مع الشيطان فى أمور هذه الدنيا أو ضرورة هذا التفاهم فى كل أمر من الامور ، لان اله الخير على قوته وحكمته قد نفض يديه من دنيا بنى آدم لاعوجاجهم ودخيلة السوء فى طباعهم باختيارهم لا بدسيسة عليهم من قبل الشيطان

وقد بقيت على هذا المعتقد طائفة كبيرة من الاوربيين الغربيين، وسيق ثلاثة وستون رجلا وامرأة الى محكمة التفتيش فى طولوز (يونيه سنة ١٣٣٥) فقالت احداهن آن مارى جيورجل «ان الله ملك السماء والشيطان ملك الارض ، وهما ندان متساويان سرمديان يتساجلان النصر والهزيمة وينفرد الشيطان بالنصر البين فى العصر الحاضر» (١)

وينقل رودس صاحب كتاب القداس الشيطانى نبذا من تاريخ فرنسا للمؤرخ الكبير ميشليه « Michelet » يفهم منها أن هذه العبادات قد امتزجت زمنا بالثورة الاجتماعية وانحلال الاخلاق وفتور الايمان بالدين ، فقد كان القداس الاسود صلاة الى الشيطان ينادونه فيها باسم رئيس العبيد ، وتقوم فيها بوظيفة الكهانة فتاة عارية تمعن فى الرقص حتى يأخذها الدوار، ثم يتصدى من الجمع أحد الرجال المندوبين للعبادة فيتمم الصلاة باتخاذ دور الشيطان واعتبار الفتاة محرابا حيا للمعبود (٢)

---

(١) القداس الشيطانى « The Satanic Mass », by Rhodes
تأليف رودس

(٢) صفحة ٥٣ من الكتاب المتقدم

وعاشت هذه النحل الشيطانية حقبة طويلة ، لاشك أنها كانت أطول مما يتاح لها لو لم يكن لها سند من الحوادث غير مزاياها الخلقية أوالوجدانية،ولكنها استفادت من تنازع الكنائس وانحلال الدولة الرومانية وغارات الهمج وما اقترنت به من السبى والسلب والاباحة ، واستفادت من مظالم المجتمع وجهالة المؤمنين بالسحر وسلطان الشيطان على المقادير الارضية،فلما استقرت المسيحية وشاع الخوف والحذر من الجماعات المتسترة لاشتباك الخصومات السياسية واتهام كل فريق من عداه باستخدام تلك الجماعات فى محاربته والدس عليه ، تألبت القوى على جميع تلك النحل وأخذتها الكنيسة والدولة معا بالقمع الشديد والرقابة المتلاحقة،فلم تبق لها بقية بعد القرن السابع عشر الا اذا صحت الاشاعات عن قصة النحلة الشيطانية التى كانت تستتر باسم الماسون فيما رواه الصحفى الفرنسى جوكاند « Jogand » وأثار حوله حملته التى سماها الشيطان فى القرن التاسع عشر، ولم تقم عليها البينة القاطعة بعد البحث فى أسانيدها ودعاواها

اما النحلة التى ينسبونها الى الشيطان ولاتزال لها بقية فى العصر الحاضر فهى النحلة اليزيدية التى تقيم فى شمال العراق وينتمى ابناؤها جميعا الى الكرد ولا يعرف أحد على التحقيق سبب تسميتهم باليزيدية ، ولا يعول على أقوال احد من علمائهم او جهلائهم لانهم يحرمون التعليم على عامتهم ، ويجعلونه وقفا على أسرة منهم تتولى الكهانة وأمانة الاسرار فى هذه الديانة، فمن كان منهم عالما بتلك الاسرار فهو لايبوح بها ، ومن كان من جهلائهم وعامتهم فهو يتلقى مايسمعه ويؤذن له بعلمه،وجميعهم مع ذلك يتوارثون التقاليد ولا يفقهون خباياها سواء منهم من أباحوا له العلم أو حرموه عليه

ويرجع بعض الباحثين بالاسم الى يزيد بن معاوية ، ويرجع آخرون به الى مدينة يزد الفارسية ، ويرجع به غيرهم الى اسم يزدان الاله الاقدم في الملة المجوسية ، وغير بعيد أن يكون الاسم منسوبا الى يزيد الخليفة الاموى ، لأن النزاع بين الكرد والفرس قد فرق بين عصبياتهم فى السياسة وفى الدين ، فكان الكرد من غلاة السنيين وكان الفرس من غلاة الشيعة ، وربما كانت الطائفة الكردية التى تؤله «يزيد» فى صورة الاله الارضى مقابلة للطائفة الفارسية التي عرفت باسم «على الهى» لانها تغلو فى حب الامام على رضى الله عنه الى حد العبادة

تؤمن الطائفة اليزيدية بسبعة آلهة خلقت من نور اله واحد كما تضاء الشمعة من الشمعة ، وقد خلق كل منهم فى يوم من أيام الاسبوع وندبه الاله الاكبر لابداع جزء من العالم الاعلى أو العالم الادنى ، وهم يعتقدون أن الله خلقهم من نطفة آدم غير ممتزجه بجسم حواء خلافا لسائر البشر ممن ينتسبون الى آدم وحواء ، ولعلهم اخذوا معتقدهم هذا من المانوية أو من المعرفيين الذين يروون فى أساطيرهم أن آدم طلق حواء فأسلمتها الارباب الى شياطين الجحيم ، وعندهم أن آدم هذا هو آدم الحادى والسبعون ، كلهم ذهبوا بالمضية من الوجود ولم تبق منهم على صلاح غير ذرية آدم من صلبه دون مخالطة المراة ، وهم اليزيديون

ويعتقدون بتناسخ الارواح وعودة الاشرار الى الحياة فى اجساد الحيوان ، ويحرمون الوانا من الاطعمة والاكسية لا يعرفون علة لتحريمها غير التعلات التى هى اشبه باحاجى الاقاصيص ، ومنها تحريم اكل الخس لان قديسهم الشيخ «عادى» مر به فلم يعرفه وسأل عنه فلم يجبه ، وتحريمهم لبس الثوب الكحلى

لانه عدو السماء

وهم يقدسون السيدة مريم والحلاج ويحجون الى جبل الدروز كما يحجون الى مكة ، وكتابهم المقدس يسمى كتاب الجلوة يلحق به كتاب يسمى مصحف رش أو المصحف الاسود، ولكن الفصل الثالث من كتاب الجلوة يعلمهم أن الله يرشد بغير كتاب ويخص عباده المقربين بالالهام من غير سماع

وليس فيما رواه الثقات عنهم ما يثبت عبادتهم للشيطان ، ولعل القول بعبادتهم الشيطان لبس جاء من اعتقادهم أن الاله الذى يسمونه «طاووس ملك» نصح لآدم بأكل الحنطة فانتفخ بطنه وضاقت به الجنة فأخرجه « طاووس ملك » الى العراء وصعد الى السماء ، ولم يكن لآدم مخرج فأرسل اليه طائرا نقر بطنه فاستراح من أكالة الحنطة ، وعاش بعيدا من الجنة المطهرة يأكل هو وبنوه من ذلك الطعام الارضى الى يوم القيامة

فالذين سمعوا أنهم يعبدون «طاووس ملك» الذى أخرج آدم من الجنة قد وحدوا بين هذا الملك وبين الشيطان وحسبوهم من النحل الشيطانية التى تعبده عبادة الارباب

على اننا نعرض النحل الشيطانية جميعا فلا نري نحلة منها تعبد الشيطان بالمعنى المفهوم من العبادة وهو الحب والتنزيه والتسليم ، وانما يقصدون بتلك المراسم التى يسمونها بالعبادة ان يزدلفوا اليه بالترضية والمداراة ، وأن يتقوا منه الشر الذى لايقيهم منه رب سواه ، لانه موكل بحكم الارض الى اليوم المعلوم . فهى مصانعة خوف أو نقمة على الخير الذي لاينالونه ، وليس فى شعائر هذه النحل أثر واحد يحق لنا ان نطلق عليه اسم العبادة حيث نعنى بالعبادة ايمان الحب والتعظيم والرضى بالفداء والبلاء فى سبيل ذلك الايمان ، فليس فى تلك الشعائر

كافة علامة على قبول الفداء فى سبيل العقيدة الشيطانية أو قبول الامتحان والصبر عليه ايثارا لرضى الاله المعبود واو لم يكن فيه نعمة أو هبة من هبات الدنيا والآخرة، وكأنما كانت «عبادة الشيطان» تهمة جرت على السنة المنكرين لعقائدهم زراية بهم وضنا عليهم أن يحسبوا فى زمرة «العباد» المؤمنين بالله

واذا كان الفداء شرطا من شروط العبادة الخالصة فما من نحلة شيطانية يتقبل المؤمنون بها أن يخسروا كثيرا أو قليلا فى سبيل الشيطان ، فهى مساومة وانتفاع بالواقع الذى لامهرب منه ، ومثل هذه المساومة لاتسمى بالعبادة الا من قبيل المجاز والتمثيل



حلفاء الشيطان

يدل تاريخ السحر على تضامن النوع الانسانى فى التهدى الى العقائد العميقة التى تعرب عن نظرة شاملة الى الحياة أوالى الكون كله ، وتبدو أفكار الناس فى هذه العقائد كأنها تصدر عن عقل واحد يتعاون فيها ببداهته وخياله وبذهنه وحسه وتتقارب فيه ملكة التشخيص والرمز فى وعى الانسانالساذج وملكة التجريد والتعميم فى تفكير الفيلسوف المدرب على دقائق التفكير

لو قال قائل فى هذا العصر أن الكون كله فكرة ، أو انه كله عدد وحسبة رياضية ، لما احتاج فى قوله هذا الى تعمق بعيد ولا ظهر منه انه يشتط فى نزعات التصوف أو نزعات التجريد، لان الخاصة والعامة فى زماننا يسمعون أن المادة كلها،علىاختلاف عناصرها وتراكيبها وأجسامها ، انما هىذرات تتألف منالنواة والكهرب وأن الذرة حين تنشق تئول الى شعاع ، وأنالشعاع هزات فى الاثير ، فلا صعوبة على العقل الساذج فى تجريد المادة من تلك الكثافة أو تلك الصلابة التى كانت عنده وصفا عامالكل مادة ، وكان الهواء عنده غاية مايتصوره من الخفة والشفافية والانطلاق من قيود الجسم الكثيف .

لا يؤخذ العقل الساذج مأخذ الدهشة اذا سمع اليوم أن الكون كله عدد وأن طبيعة العالم المحسوس من طبيعة الفكر المجرد أو طبيعة المعنى الفنى عن التجسيم

ولكن كيف كان موقع هذا القول عنده حين سمع قبل نيف وعشرين قرنا أن الوجود كله عدد وأن «الكلمة»أصل كل شيء كما قال بعض الفلاسفة اليونان نقلا عمن تقدمهم من الكهنة والمفكرين ؟

كيف كان موقع هذا القول عنـــده حين سمع باللوجوس « Logos » لاول مرة ؟ وحين ســـمع معها او قبلها بالنسب الهندسية التىتتفرق موجودات الكون المادى كلها فلا تتمخض عن شيء سواها ؟

كان هذا كلاما أشبه بالتخريف أو هو التخريف عينه ، وظل اناس من المطلعين الىعصر الذرة يسمعونه فلايصفونه باكثرمن أنه هراء ، ولم يكن قول من الاقوال ابعد فى الشططعند جمهرة الناس من احالة هذه الموجودات الى فكرة خالصة أو الى عدد لايعرفون معه ما هو المعدود

وقد كان حقا من الاعجاز فى التفكير ان يستطيع عقل قبل خمسة وعشرين قرنا أن يشف تلك الشفافية بهذه الاجسام ذات الاوزان والاحجام

كان اعجازا لو كان معوله كله على الطفرة من الحس واللمس الى التفكير المجرد أو الصوفية الرياضية ، ولكنه فى الواقع لم يكن كله طفرة من هذا القبيل ، وقد ننظر الى خطواته القريبة عيانا اذا تذكرنا تاريخ السحر وفهمنا منه ذلك التضامن فى البديهة الانسانية بينملكة التشخيص والرمز ، وملكةالتجريد والتعميم

كان الناس يفهمون من عمل الساحر منذ آلاف السنين أنه يحرك الطبيعة وعناصرها بكلمة يعرفها وبأعداد مقدسة يوفق بينها فتعمل فى القوى العلوية والسفلية عملها

كان بتلك الكلمة يبطل الاحجام والاوزان ويجعلها فى يديه كالهواء أو اخف من الهواء ، وكان يلقى الكلمة أو يجمع العدد فيحرك الجبال ويزلزل الاوتادويطير بالاجسام وينفذالى ماوراء الحجاب ولا يبتعد منه بعيد أو يتعسر عليه عسير

ولم يكن أصحاب العقيدة فى السحر فلاســـفة يجردون الاجسام وينظرون من ورائها الى الحقائق فى العقل الالهى أوفى عقل من العقول العليا ، ولكنهم كانوا اناسا حسيين واقعيين يفهمون أن الساحر يعمل بالكلمة ما يعمله كل منهم حين يأمر انسانا مثله فيطيعه ، وغاية ماهنالك ان الساحر يأمر بالكلمة أرواحا واعية ، وان الطبيعة كلها أرواح

غاية ماهنالك أن الساحر يعرف الكلمة التى تطيعها تلك الارواح ، وانه هو ــ الانسان الساذج ــ لو عرفها لحرك الجبال كما يحركها،وزلزل الاوتاد كمايزلزلها،فلا تعمق‌عنده‌ولاتصوف ولا تجريد

والى اليوم يستطيع الانسان الساذج أن يقول أن الكلمة‌تفعل الاعاجيب وتحكم الدنيا لانها تحكم الانس والجان ، ولكنه يقولها ولايشعر بعمق فيها ولا يشعر السامع بدهشة عند سماعها ، وانما «تعمقها» الفلسفة لانها تعطيها المعنى الذى لايقدر عليه العقل الساذج ، ويفعل التضامن فى البداهة الانسانية فعله فلا تبدو هذه النقلة كأنها الطفرة المنقطعة بين الحس واللمس وبين الصوفية العقلية فى أعلى الدرجات



ولما فرق الانسان الساذج بين السحر والعبادة لم‌يعتمد فى تفرقته هذه على مقياس الشعرة الذى استخدمه علماء العصر

الاخير فى مراجعة العقائد وضم الأشباه منها وفصل المختلف منها بكل فارق دقيق أو جليل

ولكنه فرق بين السحر والعبـــادة غير عامد ولا ملتفت الى فارق بينها غير الفارق بين حالته وهو يذهب الى الساحر وحالته وهو يذهب الى امامه فى العبادة ، وربما كان الساحر والامام شخصا واحدا ولكنه يشعر من نفسه بالفارق بين حالته وهو يذهب اليه طلبا للسحر وحالته وهو يذهب اليه طلبا للصلاة

فحيثما ذهب اليه يطلب سحرا فهو يحس من نفســـه أنه يذهب اليه خفية ويستر عنده ما يطلبه ولا يبوح به لغيره ممن لا يأمنه ولا يطمئن اليه ، وحيثما ذهب اليه يطلب صـــلاة فهو يذهب مع غيره ويعلن ما يفعله وما يرجـــوه ولا يخطر له أنه يتواطأ على دسيسة من دسائس الظلام

ومنذ افترق الساحر والكاهن وظيفة وخلقا أصبح السحر عملا من أعمال الظلام وان اختلف الاعوان عليـــه بين الارواح الخبيثة والارواح الطيبة ، أو بين الارواح التى يحكمها الشيطان والارواح التى لا حكم له عليها ، ولا يرجع اليه فى تسخيرها

ومع الزمن ظهر التخصص فى صناعة الســـحر كما يظهر فى كل صناعة تتفرع وتتشعب وتتميز فيهـــا المتشـــابهات والمتخالفات ، فانقسم السحر الى أبيض وأسود ، والى ســحر الحكماء وسحر الكذبة والمشعوذين، ولم يفهم الناس من وصفهم بالكذب والشعوذة انهم لا يقدرون على صناعتهم التى لا شك فيها ، وانما فهموا من هذا الوصف انهم يحتالون فى الصناعة ويسلكون مع طلابهم مسلك الشياطين وحلفاء الشياطين ، ولا غرابة فى الكذب أو الشعوذة من شيطان

وبقيت « السرية » شرطا ملازما للسحر بنوعيـــه ، وبقيت

هـــذه السرية معنى مرادفا لمعنى الظلام وتدبيراً لا يؤمن على الذين يعتقدونه ولا يرونه ولا يعرفون كيف يكون تدبيره ومتى يكون وعلى أي وجه يكون : بقي الســاحر مخيفا غير مأمون ، وغار منه الكاهن على سلطانه فوقعت الجفوة بينهما ولعن الكاهن غريمه ولم يستطع غريمه أن يلعنه لأن الناس لا يصدقون لعنته ولا يرون اللعنة من حق السحر ، وان لم يكن سحرا من عمل الشيطان

وقد وجد الكهنة والمتنبئون ووجد معهم السحرة «وأصحاب الجان » جنبا الى جنب فى أخبار التوراة من أقدم أسفارها بعد موسى عليه السلام ، ولكن الرؤساء والولاة كانوا يخرجـــون الانبياء لانهم ينكرون انهم أنبياء ، ويخرجون السحرة وأصحاب الجان اذا عرفوا أنهم سحرة وأصحاب جان ، وكذلك فعـــل شاول قبـــل موت النبى صمويل ، فلما مات النبى بحث عن السحرة الذين تفاهم ليحضروا له روحه بعد موته ، وقصـــته مع النبى فى محضره ، ومع السحرة بعد غيبته نموذج للعقائد الاولى التى لم تفصل بعد كل الفصل بين الوظيفتين ، وان فصلت بينهما فى التجلة والتقديس .

ويقول الاصحاح الثامن والعشرون من كتـــاب صمويل : « .. ومات صمويل وندبه كل اسرآئيل ودفنوه فى الرامة فى مدينته . وكان شاول قد نفى أصــــحاب الجان والتوابع من الارض ، فاجتمع الفلسطينيون وجاءوا ونزلوا فى شـــونم ، وجمع شاول جموع اسرائيل ونزل فى جلبوع ، ولما رأى شاول جيش الفلسطينيين خاف واضطرب ، فسأل الرب فلم يجبـه الرب بالاحلام ولا بالاوريم ـ أى القرعة الكهنوتية ـ ولا بالانبياء فقال شاول لعبيده فتشوا لى عن امرأة صاحبة جان فأذهب اليها

وأسألها ، فقال له عبيده : هوذا امرأة صـــاحبة جان فى عين دور ، فتنكر شاول ولبس ثيابا أخرى وذهب هو ورجلان معه وجاءوا الى المرأة ليلا،وقال لها : اعرفى لى بالجان واصعدى لى من أقول لك ، فقالت له المرأة : هو ذا أنت تعلم ما فعل شاول كيف قطع أصحاب الجان والتوابع من الارض . فما بالك تضع شركا لنفسى تريد لها الموت ؟ فحلف لها شـــاول بالاله الحى لا يلحقنها اثم من هذا الامر ، فسألته المرأة : من أصعد لك ؟ فقال : اصعدى لى صمويل ، فلما رأت المرأة صمويل صرخت بصوت عظيم ، وقالت لشاول : لماذا خدعتنى وأنكرت نفسك؟ قال لها الملك : لا تخافى • ماذا رأيت ؟ فقالت المرأة : رأيت آلهة يصعدون من الارض ، ثم قالت : رجل شيخ صاعد مغطى بجبة • فعلم شاول انه صمويل فخر ساجدا على وجهه ، وقال صمويل لشاول : لماذا أقلقتنى باصعادك أياى ؟ قال شاول : قد ضاق بى الامر غاية الضيق • ان الفلسطينيين يحاربوننى والرب يتخلى عنى ولم يعد يجيبنى لا بالانبياء ولا بالاحــلام ، ودعوتك لتعلمنى ماذا أصنع ؟ فقال صمويل : ولماذا تسألنى وقد تخلى عنك الرب وعاداك ؟ لقد فعل الرب لنفسه ما أنبأنى به وتكلم به على يدى ، وقد شق الرب المملكة وأعطاها لقريبك داود لانك لم تسمع لصوت الرب ولم تنفذ غضبه فى عماليق، فهو صانع بك ما صنعه اليوم وغدا يدفع بك وباسرائيل الى أيدى الفلسطينيين ، وغدا تلحق بى أنت وبنوك ويدفع الرب الى الفلسطينيين جيش اسرائيل • فسقط شاول عــلى الارض وغشيه الوجل من قول صمويل ، ولم تكن له قوة لانه لم يذق طعاما نهاره كله وليله ، ثم جاءت المرأة الى شاول ورأته مرتاعا فقالت له : لقد صدعت جاريتك بأمرك ووضعت نفســـها فى

كفها تلبية لكلامك ، والآن تسمع أنت لصوت جاريتك وتأكل من هذا الخبز الذى أضعه أمامك. كل فتكون لك قوى على المسير فى الطريق . فأبى أن يأكل ، وألح عليه عبداه والمرأة فاستجاب لهم وقام من الارض وقعد على السرير ، وكان للمرأة عجل مسمن فى البيت فأسرعت وذبحته وأخذت دقيقا وعجنته وخبزت منه فطيرا وقدمته أمام شاول وعبديه ، فأكلوا وذهبوا .. »

هذه القصة كنز من كنوز البحث فى مقارنة الاديان يندر العثور على قصة مثلها فيما اختوته من شواهد المرحلة التى يبدأ فيها التمييز بين الخير والشر والثواب والعقاب والامامة الدينية والكهانة السحرية دون أن ينتهى التمييز الى حدوده الواضحة

فها هنا تمييز بين من يختاره الله ومن يغضب عليه كالتمييز بين مقام صمويل ومقام شاول ، ولكنه يجمع بين الاثنين فى مكان واحد بعد الموت فيذهب شاول الى حيث يلحق بصمويل

وها هنا تمييز بين الامامه الدينية وبين السحر ، ولكن السحر تنسب اليه القدرة على تحضير روح النبى بغير مشيئته

وها هنا تمييز بين السحر الصالح والسحر الخبيث أو السحر الاسود ، ولكن الساحر يستعين بالجان كما يستعين بأرواح الموتى ، ولا يقال عن الجان أنهم من أعوان الخير أو من أعوان الشر ، لانهم فى خدمة شاول وهو مغضوب عليه

وها هنا استطلاع للغيب يطلب من النبوة كما يطلب من القرعة أو يطلب من صاحبات الجان والارواح

غير ان العبريين لم يسبقوا غيرهم فى مراحل كثيرة من أطوار المسائل الغيبية والعبادات . فمن قبل هذه المرحلة تميز السحر فى الحضارة القديمة فانقسم الى السحر الابيض والسحر

الاسود، والى عمل الحكمة والمعرفة وعمل الخبث والدنس ، وجاء عصر السيد المسيح وقد عرف السحران بوظيفتين وقيمتين وأثرين مختلفين ، فتكلمت الاناجيل عن حكماء المجوس الذين رصدوا الكوكب وعرفوا منه مولد السيد المسيح فى مهده ، وظل هذا السحر وغيره من ضروب السحر الممنوع مختلفين بالاسم والعمل فيما نقله الغربيون من حكمة المشرق وثقافته وظلت بقاياه الى اليوم

فالسحر يسمى عندهم باسمين : أحدهما بسحر المجوس ويدل عليه اسمه « الماجى » « Magic » الذى بقى فى اللغات العربية بلفظه القديم

والسحر الآخر يسمى بصناعة الساحرة « Witchcraft » ويؤخذ من اسمه هذا انه كان مقصورا على المرأة منذ كانت المرأة فى العرف الشائع أداة الشيطان فى الغواية وعون الشيطان على كيده وعصيانه

فقد كان الاقدمون يخلطون بين فتنة المرأة بوحى الغريزة الجنسية وفتنتها بوسوسة الشيطان ، ويحسبونها من ثم حبالة شيطانية يسخرها الشيطان أو تستعين به هى على تسخير المفتونين لاغراضها ومشتهياتها ، ويقع فى أذهانهم أنها أقرب الى الخلسة والخداع لانها تعاشر الشيطان فى زواج غير مشروع ولا يحسبونه الا من قبيل السفاح الممنوع ، بل هم يحسبونه شرا من السفاح الممنوع ، لان السفاح الممنوع بين الرجل والمرأة من الانس لا يبلغ فى العصيان والمنكر مبلغ المعاشرة التى تجمع بين بنت من بنات حواء وبين عدو الله

وتتميز أدوات السحرين كما يتميز السحران فى المقصد والوسيلة ، فسحر الحكمة والمعرفة له أدواته من رصد الكواكب

ورياضة النفس ، والروائح الزكية من الطيب والبخور

وعلى نقيض ذلك سحر الخبث والأذى ، أو سحر الشيطان بعبارة أخرى ، فانه يتوسل الى مقاصده الخبيثة بكل دنس كريه من الادوات والآلات ، ويقال عن سحرته أنهم يلوثون كل طهر ويبتذلون كل قداسة ، وانهم يدنسون اللبن والكتب الشريفة ويتقربون الى الشيطان باحلال الدعوات والصلوات محل الحطة والهوان ، ويزعمون ان الوضوء الشيطاني أيسر للمرأة من الرجل لانها تستخدم فيه الدم المطرود ، ويتعمدون التبشيع والتنفير جهدهم من التخيل فيزعمون أن الساحرة تمسح قدميها بشحم منتزع من جثة طفل ذبيح وتخرج للطيران من مدخنة البيت وهي تمتطى المكنسه المتسخة،لانهم لايريدون أن يسلموا لها القدرة على الطيران الا أن تكون من طريق الحريق والسواد وعلى أداة من أدوات الاوساخ والارجاس



ومن أصول السحر ، في عصور الحضارة الاولى ، ما يسمى بعلم التنجيم ويطلق على علم الفلك وعلم الغيب في وقت واحد

كان التنجيم أصلا من أصول السحر يوم كان الكاهن يتولى وظيفة الامام ووظيفة العالم ووظيفة الساحر ، وكان الناس يؤمنون معه بربوبية الافلاك وسريان مشيئتها في الارضين ومن عليها ، فكان الكاهن اماما يصلي لها وعالما يعرف حسابها وساحرا يستطلع أسرارها ويتوخى التوفيق بينها وبين مطالب أتباعه ومقاديرهم التي يستنبيء عنها الغيب ويعلم كيف يتعجلها ويتقيها

وبقي التنجيم أصلا من أصول السحر بعد زوال عبادة الافلاك وبطلان القول بربوبيتها ، ولكن بطلان القول بهذه

الربوبية لم يبطل القول بسلطان الافلاك وتأثيرها بأمر الله فى العوالم السفلية ، واختلف المتدينون فى مدى هذا التأثير ، كما قال الكشناوى فى كتابه عن خلاصة السحر والطلاسم ، اذ ينقل آراء المختلفين فيقول : « ان الذى اختص به الصابئة وبعض الفلاسفة الذين وافقوهم على رأيهم انما هو القول بألوهية الكواكب واستحقاقها للعبادة واستقلالها بالتأثير والتدبير فى هذا العالم ، فهذا كفر مجمع عليه فى جميع الملل والاديان . لان الملل كلها مطابقة على أن المستحق للعبادة والذى بيده التأثير وتدبير الكائنات انما هو اله واحد واجب الوجود متصف بصفات الالوهية والربوبية ، وان كل ما عداه حادث مفتقر اليه على الدوام لا يستقل بنفسه فى شيء من الاشياء ولو لحظة واحدة . وأما القول بأنها مؤثرة بقوة أودعها الله فيها ثم تركها تؤثر بتلك القوة فى العالم باذنه تعالى بحيث لو لم يرد ذلك تبارك وتعالى لما أثرت أصلا ، ومثلوا ذلك بملك يولى شخصا بقطر من الاقطار فيفوض له الامر والحكم هناك فيصير ذلك الرجل يمضى الاحكام فى ذلك القطر باذن الملك بحيث لو لم يرد ذلك منه لعزله عن تلك الولاية — فهذا القول قد قاله جمع من المليين ومنهم امام الحرمين، ولم يرتضه السنوسى بل عده من البدع المنكرة وشنع على القائلين به ولم يصل بهم الى حد الكفر . وأما من يقول انها أسباب عادية أجرى الله عادته بوجود الحوادث عندها لا بها مع تجويز التخلف عن خرق تلك العادة كما هو الحكم فى سائر الاسباب العادية من الاكل والشرب والقطع والاحراق ، فهذا القول لا ينكره أحد ... »

الى أن يقول : « وثانى الشيئين المذكورين اثبات القوابل السفلية الارضية ، لانهم قالوا أن حصول الفاعل المؤثر لا يكفى

وحده فى حصول الاثر، بل لا بد معه من حصول القابل ولا يكفى أيضا حصول القابل وحده بل لابد مع وجوده من كون الشرائط المعتبرة للقبول حاصلة والموانع زآئلة . لانه ربما حدث فى العالم الاعلى شكل غريب صالح لافادة آثار غريبة فى مادة العالم الاسفل ، فلا تكون المادة السفلية متهيئة لقبول تلك الآثار لعدم الشرط أو لوجود المانع ·· فعلى هذا لو تيسرت لنا معرفة طبيعة ذلك الشكل ، ومعرفة طبيعة الامور المعتبرة فى كون المادة السفلية قابلة لذلك الاثر ، لكان يمكننا أن نهيىء تلك المادة لقبول ذلك الاثر .. »

وعلى هذا التأويل بقى سحر التنجيم بعيدا من شبهة الاتهام بطاعة الشيطان بين أهل المشرق والمغرب ، حتى ظهر فى كليهما من يلحقه بالوسائل الشيطانية ويعتبر السحرة تلاميذ للشيطان فى هذه الصناعة لقدرته على الصعود والهبوط بين الافلاك والعوالم السفلية وعرفانه بخفايا العوالم السفلية ونزعاتها وتهيؤ أحوالها للتأثر والانفعال بما فوقها

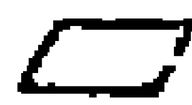
وقد أورد صاحب الكتاب المقدم أقوالا مختلفة فى التعريف بما سماه علم السحر فقال : « ·· اعلم أنهم اختلفوا فى تعريفه لاختلاف المذاهب فيه، فعرفه صاحب (ارشاد القاصد) بأنه علم يستفاد منه حصول ملكة نفسانية يقتدر بها على أفعال غريبة بأسباب خفية ، وعرفه ابن العربى الفقيه المالكى بأنه كلام مؤلف يعظم فيه غير الله عز وجل وتنسب اليه الكائنات والمقادير ، وبعضهم عرفه بأنه ما يغير الطبع ويقلب الشىء عن حقيقته ، ومنفعته عند الاسلاميين أن يعرف ليحذر منه لا ليعمل به ، ولا نزاع فى تحريم العمل به بتا ، وأما مجرد تعلمه ففيه خلاف بين الائمة ، فبعضهم منعوه وحرموه حسما للباب

كالمالكية ومن وافقهم ، وبعضهم أباحوه ، وأغرب بعض النظار حيث عدوه من فروض الكفايات لجواز ظهور ساحر يدعي النبوة فيكون في الامة من يكشفه ويقطعه ، وقد حكاه ابن صاعد في ارشاد القاصد . ولتعلمه فائدة أخرى وهي أن يعرف منه ما يقتل فيقتل فاعله به قصاصا عند من يقول بذلك »

ثم مضى المؤلف يذكر أقسامه فقال : « انه حقيقي وغير حقيقي وأن الطرق فيه اختلفت على اربعة مذاهب : أحدها طريقة تصفية النفس وتعليق الوهم وهي طريقة أهل الهند ، لانهم يعتقدون أن تلك الآثار السحرية انما تصدر عن النفس الناطقة ولذلك يلازمون الرياضات الشاقة حتى تصفو نفوسهم وتتجرد عن جميع الشواغل البدنية بحسب الطاقة البشرية . وهذا المذهب مبني على ثبوت التأثير لتوجيه النفس وتعليق الوهم . والمذهب الثاني من المذاهب الاربعة التي للسحر ، طريقة النبط وهي عمل أشياء مناسبة للغرض المطلوب مضافة الى رقية ودخنة بعزيمة نافذة في وقت مختار ، وتلك الاشياء تارة تكون تماثيل كالطلسمات وتارة تصاوير ونقوشا كالتعاويذ وتارة عقدا تعقد وينفث فيها وتارة كتبا تكتب وتدفن في الارض أو تطرح في الماء أو تعلق في الهواء أو تحرق بالنار ، وتلك الرقية التي يرقى بها تضرع الى الكوكب الفاعل للغرض المطلوب على زعمهم ، وتلك الدخنة منسوبة لتلك الكواكب لاعتقادهم ان هذه الآثار انما تصدر عن اجرام الكواكب ، وكتاب (سحر النبط) نقل ابن وحشية يشتمل على تفاصيل تلك الطريقة . والمذهب الثالث من المذاهب الاربعة السحرية مذهب اليونانيين المتقدمين وهو تسخير روحانية الكواكب والافلاك واستنزال قواها بالوقوف والتضرع اليها لاعتقادهم أن هذه الآثار انما تصدر

عن روحانية الافلاك والكواكب لا عن اجرامها ، وهذا هو الفرق بينهم وبين الصابئة أهل المذهب الثاني وأهل الطلسمات . والمذهب الرابع من المذاهب الاربعة السحرية مذهب العبرانيين والقبط والعرب وهو الاعتماد على ذكر أسماء مجهولة المعاني كأنها أقسام وعزائم بترتيب خاص كأنهم يخاطبون بها حاضرا لاعتقادهم ان هذه الآثار انما تصدر عن الجن ويدعون فى تلك الاقسام أنها تسخر ملائكة قاهرة للجن »

وقد اورد «الاوغنستاني» فى «رسالة اللؤلؤ والمرجان فى تسخير ملوك الجان » أمثلة في الآيات ، وجملة أعدادها بحروف الجمل وتقسيمات هذه الآيات والاعداد الى جداول مناسبة لدعوة الملائكة الذين يسخرون الجان ليعود هؤلاء فيسخروا الطبيعة والناس، فى زعم أصحاب هذه الارصاد



والمفهوم من مؤلفات الاوربيين فى السحر والطلاسم انهم نقلوا جميع هذه النفسيات واقتدوا بالشرقيين فى الحكم عليها من الوجهة الدينية ، واتخذوا من عطارد كوكبا راعيا للسحر كأنه خليط من الرب اليوناني القديم والشيطان ، وجعلوه وليا للشطار والخبثاء وأدعياء النظم وأصحاب الخداع باللسن والخطابة ، وانتهى بهم الامر الى تحريم هذه المعارف السحرية جميعا وتقسيم المعارف كافة الى قسمين : قسم حلال وهو ما يشتغل به رجال الدين برخصة من الرؤساء ، وقسم حرام وهو كل ما عداه بلا استثناء لمذاهب الفلسفة وتجارب العلوم الحديثة ، فدخل فى عداد المعارف الشيطانية والسحر الممنوع كل علم يتولاه أناس من غير رجال الدين ، ولم يستثن ـ كذلك ـ كل سحر يزعم أصحابه انه من العزائم التى يستعينون فيها

بالملائكة ، فقد شاع في تلك القرون أن الشيطان يتشكل بأشكال الملائكة والارواح العلوية كما قال بولس الرسول في رسالة كورنثوس الثانية « لان هؤلاء هم رسل كذبة فعلة ماكرون مغيرون شكلهم الى شبه رسل المسيح ، ولا عجب لان الشيطان نفسه يغير شكله الى شبه ملاك النور ، فليس عظيما ان كان خدامه يغيرون شكلهم كخدام للبر »

واحترز أحبار الكنيسة من دعوى كل مدع ينسب الى نفسه القدرة على مخاطبة الملائكة واستيحاء الغيب ، فعم التحريم كل عزيمة من عزائم السحر وما اليه ، وكان القانون يعاقب على جريمة السحر بالموت اذا ثبت أن الساحر استخدم طلاسم لاهلاك المسحور ، ثم صدر في انجلترا قانون معدل له (سنة ١٦٠٣) يقضى بالموت على كل من يثبت عليه تعاطى السحر ولو للعلاج وشفاء الامراض ، لانه محالفة مع الشيطان وكل محالفة مع الشيطان خيانة لله ، وكانت انجلترا مع هذا معدودة من البلاد التى لا تخضع كل الخضوع للسيطرة الكهنوتية ، ولم تعمل محاكم التفتيش فيها كما كانت تعمل فى القارة الاوربية حيث أحرقت النساء عقابا على السحر وأحرق الاطفال لانهم من ولد الشياطين ، وصدرت آخر هذه الاحكام فى منتصف القرن الثامن عشر ، وكان بعضها مما صدر فى الولايات المتحدة

وانتهى القرن الثامن عشر والرأى الغالب على أهل الغرب أن السحرة جميعا حلفاء الشيطان ، وأن من السحرة كل من يروض الطبيعة بعلم غير العلوم التى يقرها الدينيون

الفصل الخامس

* الشيطان والفنون
* شياطين الشعراء والكتاب
* فى الادب العربى
* فى الحضارة العصرية

الشيطان والفنون

قال أبو العلاء :

وقد كان أرباب الفصاحة كلما
رأوا حسنا عدوه من صنعة الجن

وربما كان أبو العلاء يخص العرب دون غيرهم بهذا القول ، ولكنه فى الواقع قول يعم جميع الاقوام ويعم جميع أنواع الاحسان فى الكلام وفى غير الكلام

فالعبقرية عند الاوربيين منسوبة الى الجن ، ومعنى العبقرى عندهم أنه صاحب الجنة أو الشبيه بالجنة فى القدرة والتفوق كائنا ما كان العمل الذى يتفوق فيه ، وكلمة « جينياس » « ginius » تطلق على كل صاحب قريحة خارقة للمألوف فى الابتكار والابتداع سواء كان ابتداعها فى الشعر والنثر،أو فى التصوير والنحت ، أو فى الانشاء والتلحين ، أو فى العلم،أو الصناعة ، أو تدبير المال وسياسة الشعوب

والعبقرية فى التعبير العربى الحديث مأخوذة من كلمة عبقر، موضع يقولون أن الجن تسكنه وأن الصناعات الفائقة كلها تنسب اليه ، ومنها صناعة السيوف كما قال امرؤ القيس :

كأن صليل المرو حين تطيره صليل سيوف ينتقدن بعبقرا

ويقولون ان سكانه أنفسهم موصوفون بالجمال كما قال الاعشى : « كهولا وشبانا كجنة عبقر »

ويرد بعضهم أن الكلمة مأخوذة من الكلمة الفارسية «آبكار» بمعنى الرونق ، وهو بعيد لان اقتباس كلمة الرونق لا يفسر القصص المنسوجة حول البلد المسمى بعبقر ولا يوجد في الاصل الفارسى ما يوحى بهذه القصة أو يوحى بأسباب اقتباس الكلمة على حسب العرف المأثور فى هذه المقتبسات

وتذكر كلمة «عبقرى» وصفا للنفاسة بغير نظر الى اشتقاقها من المكان المزعوم ، كما جاء فى سورة الرحمن من القرآن الكريم : « متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان »



ومن التعبيرات المتشابهة بين اللغات وصف الابداع بالاعجاز ووصف الاعجاز تارة بالدقة التى تخفى أسرارها على غير ذوى الفطنة ، وتارة بالفخامة التى تتعاظم العاملين من غير ذوى العزم والقدرة الخارقة

يقال ذلك فى البلاغة ومعانيها الخفية وفطنتها النافذة الى الخبايا والاعماق

ويقال ذلك فى المساعى الكبار التى يضطلع بها المردة الجبارون ، ولا يقوى على الاطلاع بها من دونهم من ذوى الاجسام المحسوسة

وحيث تسرى الخواطر الى تصور الخفاء والدقة والقدرة الخارقة لا جرم تنتهى بمسراها الى العوالم الخفية التى لا ترى بالعيون ولا تحد قدرتها بما يحد الايدى والاقدام من أجسام بنى آدم وحواء .

ولهذا الاستطراد الطبيعى فى تتابع الخواطر توافقت بداهة البشر على علاقة البلاغة بالجن بل على علاقة كل « بالغ » من الاقوال والاعمال بتلك الخلائق المستترة التى لا تحدها نقائص

اللحم والدم ، لانها متلبسة فى الاذهان بخلقة النـار والريح ومادة « الجو اللطيف » مما لا يحصر ولا يحال بينه وبين مسعاه

والعرب تزعم أن شعراءها تستوحي الجن وأن كل شـــاعر منهم يستعين بشيطان يصاحبه ويعرفه باسمه • فهبيد اسم شيطان عبيد ، ومسحل اسم شيطان الأعشى ، وجهنام اسم شيطان عمرو بن قطن ، وسنقناق اسم شيطان بشار ، ويزعم الفرزدق أن الشعر منقسم بين شيطانين أحدهمايسمى الهوجل وهو موكل بالجيد من الشعر والآخر يسمى الهوبر وهو موكل برديئه وسقطه ، وأنشده رجل من تميم بيتا يقول فيه :

ومنهم عمر المحمود نائله كأنما رأسه طين الخواتيم

فضحك وقال : « انهما قد اجتمعا لك فى هذا البيت فكان معك الهوجل فى أوله فأجدت وخالطت الهوبر فى آخـــره فأفسدت »

وكان أبو النجم الرجاز يفخـــر على الشـــعراء ويقول أن شياطينهم جميعا أناث ما خلا شيطانه فهو شيطان ذكر :

اني وكل شـاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

وكأنه نظر فى ذلك الى فحولة الكلام ، مما اشتهر بهالرجز ولم يشتهر به الشعر فى زمانه

ويكون مع الشـــيطان تابع أو « رئى » كأنه الراوية الذي يحفظ ما يلقيه الشيطان القائل عفو الخاطر

وفى كتاب «آكام المرجان فى أحكام الجان» نظم كثيرمنسوب الى الجن بغير واسطة الانس أو مشترك بين قائلين أحدهما من هؤلاء والآخر من هؤلاء ، ومن هذا الشعر المشترك

قال بعد عنعنة طويلة : « ••• خرجت مع نفر من قريش نريد الشام فنزلنا بواد يقال له وادي عوف فعرســـنا به

فاستيقظت في بعض الليل فاذا أنا بقائل يقول :

ألا هلك النسـاك غيث بنى فهر
وذو الباع والمجد التليد وذو الفخـر

فقلت في نفسي والله لأجيبنه فقلت :

ألا أيها الناعى أخا الجود والفخـر
من المرء تنعـاه لنـا من بنى فهـر

فقال :

نعيت ابن جدعان بن عمرو أخا النـدى
وذا الحسب القدموس والمنصب القهـر

فقلت :

لعمرى لقد نوهت بالسـيد الذى
له الفضـل معروفا على ولد النضر

فقال :

مررت بنسـوان يخمشن أوجهـا
صباحا عليـه بين زمزم والحجر

فقلت :

متى ؟ ان عهدى فيه منـذ عروبة
وتسـعة أيام لغـرة ذا الشهر

فقال :

ثوى منـذ أيام ثلاث كـوامل
مع الليل أخرى الليل أو وضح الفجر

فاستيقظت الرفقة فقالوا من تخاطب ؟ فقلت هـذا هاتف ينعى ابن جدعان ، فقالوا : والله لو بقى أحد بشرف أو عـزة أو كثرة مال لبقى عبد الله بن جدعان . فقال ذلك الهاتف :

أرى الايام لا تبقي عزيزا لعزته ولا تبقي ذليلا

فقلت :

ولا تبقى من الثقلين ثقــلا   ولا تبقى الحزون ولا السهولا

وكأنما نظر صاحب هذه القصة الى قول حسان بن ثابت فى المساجلة الشعرية حيث يقول عن صاحبه الجنى :

ولى صــاحب من بنى الشيصبا   نفطورا أقول وطورا هوه

وقد روى صاحب «آكام المرجان» أبياتا كثيرة من نظم الجن فى رثاء عظماء الصحابة وآل النبى ، منها ما نسب الى الجن منفردين به ، ومنها ما اشترك فيه قائلان كالابيات التى رويت فى رثاء ابن جدعان

وكانوا يقولون عن توارد الخواطر بين الشــاعرين أنهما يأخذان من شيطان واحد . فذكر صاحب مواســم الادب أن الفرزدق وجريرا ركبا ناقة الى الرصافة لاستمناح هشام بن عبد الملك فنزل جرير فى بعض الطريق ، فتلفتت نحوه الناقة فأنشد الفرزدق :

عــلام تلفتــين وأنت تحتى   وخير النــاس كلهم أمامى

متى تردى الرصافة تستريحى   من الادلاج والدبر الدوامى

ثم قال فى نفسه : الآن يجىء ابن المراغة فيسمع ما أنشدته فيه فيجيبنى بقوله :

تلفت انهــا تحت ابن قين   ابى الكيرين والفاس الـكهام

متى ترد الرصافة تخز فيها   كخزيك فى المواسم كل عام

ثم جاء جرير فأخبره الفرزدق بالقصة وأنشــده البيتين الاولين : فلم يلبث أن أنشده البيتين الاخـيرين ، فضــحك الفرزدق وقال : والله يا أبا حرزة لقد قلتهما قبل أن تأتى . قال جرير : أما علمت أن شيطاننا واحد ؟

وكل هذا ولا شك تلفيق يعلمه ملفقوه ، ولكن الأصل فيه

قائم على اعتقاد طبيعى شائع يخيل الى الناس فى شتى الامم أن المعانى الخفية لا تخلو من علاقة بالمخلوقات الخفية ، وأن أسرار الصناعات التى تدق عن نظر العيون ينبغى أن تطلع عليها العيون التي تعيش فى عالم الاسرار ولا يدق عن نظرها شيء فى حلكة الظلام

ويقال عن فن الغناء ما يقال عن فن القريض ، وبخاصة فى الزمن الذى كان فيه الغناء موقوفا على البيت أو الابيات يختارها المغنى من كلام الشاعر فى عصره أو فى غير عصره

روى صاحب الاغانى أن الغريض كان يقتبس بعض أصواته من عزيف الجن ويزعم ذلك مغالاة بصنعته، فأنكر عليه سامعوه ما يدعيه ، حتى كان ذات ليلة يغنى لجماعة من نساء مكة فسمعن عزيفا عجيبا ذعرن منه فقال لهن الغريض : ان فى هذه الاصوات صوتا اذا نمت سمعته وأصبحت فغنيت به ، وأصغين الى الصوت فاذا هو من نغمة ألحان الغريض

وادعى اسحق بن ابراهيم الموصلى أن الغناء الماحوزى الذى افتن به الناس من فن أبيه انما كان من صنع ابليس . قال عن أبيه : « استأذنت الرشيد أن يهب لى يوما من أيام الجمعة أنفرد فيه بجوارى واخوانى فأذن لى فى يوم السبت ... فأقمت بمنزلى وأخذت فى اصلاح طعامى وشرابى وأمرت البواب ألا يأذن لأحد فى الدخول على ، فبينما أنا فى مجلسى والحرم قد حففن بى اذا أنا بشيخ ذى هيئة وجمال عليه خفان قصيران وقميصان ناعمان وعلى رأسه قلنسوة وبيده عكازة مقمعة بفضة وروائح الطيب تفوح منه حتى ملأت الدار ... فدخلنى غيظ عظيم لدخوله وهممت بطرد بوابى .. فسلم على أحسن سلام فرددته عليه ودعوته الى الجلوس فجلس وأخذ فى أحاديث الناس

وأيام العرب وأشعارها حتى سكن ما بى من الغضب ، فظننت أن غلمانى تحروا مسرتى بادخال مثله على لأدبه وظـــرفه • فقلت : هل لك فى الطعام ؟ فقال : لا حاجة لى فيه • قلت : فالشراب ؟ قال : ذلك اليك • فشربت رطلا وسقيته مثله • فقال : يا أبا اسحق • هل لَك أن تغنينا شـــيئا فنسمع من صنعتك ما قد فقت به عند الخاص والعام ••• فغاظنى قوله ثم سهلت الامر على نفسى فأخذت العود فجسست ثم ضربت وغنيت ، فقال : أحسنت يا ابراهيم !•• فازددت غيظا وقلت ما رضى بما فعله فى دخوله بغير اذن وأقتراحه علىحتى سمانى باسمى ولم يجمل مخـــــاطبتى • ثم قال : هل لك أن تزيد ونكافئك ، فتعجبت فى نفسى وقلت : بم يكافئنى ؟ ثم أخذت العود فغنيت وتحفظت بما غنيته وقمت به قياما كافيا لقوله لى أكافئك • فطرب وقال : أحسنت يا سيدى ! ثم قال : أتأذن لعبدك فى الغناء ؟ فقلت : شأنك ! واستضعفت عقله أن يغنى بحضرتى بعد ما سمعه منى ،فأخذ العودوجسه فوالله لقد خلت أن العود ينطق بلسان عربى فصيح فى يده ، واندفع يغنى :

ولى كبد مقروحة من يبيعنى بها كبدا ليست بذات قروح

الى آخر الابيات •••

« فوالله لقد ظننت أن الحيطان والابواب والسقوف وكل ما فى البيت يجيبه ويغنى معه من حسن صوته ، حتى خلت والله أنى أسمع أعضائى وثيابى تجاوبه وبقيت مبهوتا لا أستطيع الكلام ولا الحـــركة لما خالط قلبى من اللذة آلتى غيبتنى عن الوجود ، فلما رآنى كذلك أخذ العود ثانية واندفع يغنى هذه الابيات :

ألا يا حمامات اللوي عدن عودة فاني الى أصـــواتكن حزين

الى آخر الابيات ...

فكاد عقلى أن يذهب طربا ، ثم غنى ليزيد بن الطثرية :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجـد
لقد زادني مسراك وجدا على وجـــد

الى آخرها ...

ثم قال : يا ابراهيم ! هذا الغناء الماخوزى خذه وانح نحوه فى غنائك ، وعلمه جواريك. فقلت : أعده على . فقال : لست بمحتاج . قد أخذته وفرغت منه ، ثم غاب من بين عينى . فارتعدت لذلك ، وقمت الى السيف فجردته وغدوت نحو أبواب الحرم فوجدتها مغلقة ، فقلت للجوارى : أى شىء سمعتن عندى؟ فقلن : سمعن أحسن غناء ، لم نسمع قط أحسن منه، فخرجت متحيرا الى باب الدار فوجدته مغلقا فسألت البواب عن الشيخ الذى خرج فقال : أى شيخ ؟ والله ما دخل عليك أحــد ... فرجعت لأتأمل أمرى فاذا هو قد هتف بى من بعض جـوانب البيت : لا بأس عليك يا أبا اسحق ! أنا أبو مرة ابليس ... وقد كنت نديمك اليوم فلا ترع ... فركبت الى الرشـيد وأخبرته بالحديث ، فقال : ويحك. أعد الاصوات التى أخذتها . فأخذت العود فاذا هى راسخة فى صدرى .. »

وقد كان عهد العرب بعزيف الجن فى الصحراء قديما جدا لم يتغير ظنهم به فيما نظمه الشعراء الاسلاميون ، كذى الرمة حيث يقول :

ورمل كعزف الجن فى عقداته   هرير كتضراب المغنين بالطبل

غير أنهم خصوا الشاعر بالشيطان الملازم ولم يجعلوا للمغنى شيطانا مثله لان فن الشعر كان أقدم عندهم من فن الغناء ، وانما كان غناؤهم حداء أو محاكاة للحداء ، وكان الحداء نغما

شائعا يغنيه كل سائق يحدو الابل ، فهى طريقة لا محل فيها للافتنان والتنويع ، وكان غناؤه على الاكثر فى قافلة لا ينفرد عنها بمكان يظن أنه يخلو فيه بالجن لتلقنه ويستمع منها. فلما ظهر المغنون آحادا منقطعين لعملهم منفردين بوضع ألحانهم ، أحبوا محاكاة الشعراء بالاخذ عن الجن فى صناعتهم مغالاة بها عن قدرة الانس في هذه الصناعة ولكنهم طرأوا بهذه الدعوى ولم يتاصلوا فيها كما تأصل الشعراء فسمعت من آحاد متفرقين ولم تكن اجماعا من وحى البديهة فى البيئة بأسرها



وقد روى عن الصناعات العلمية كالطب، ما روى عن صناعة الكلام وصناعة الغناء ، فأسند صاحب كتاب الهواتف الى النضر بن عمرو الحارثى قصة قال فيها :

« انا كنا فى الجاهلية الى جانبنا غدير فأرسلت ابنتى بصحفة لتأتينى بماء فأبطأت علينا وطلبناها فأعيتنا فيئسنا منها ... قال : والله انى جالس ذات ليلة بفناء مظلتى اذ طلع علينا شيخ فلما دنا منى اذا به ابنتى . قلت : ابنتى ؟ قالت: نعم ابنتك . قلت : أين كنت أى بنية ؟ قالت : أرأيت ليلة بعثتنى الى الغدير ؟ أخذنى جنى فاستطار بى فلم أزل عنده حتى وقع بينه وبين فريقين من الجن حرب فأعطى الله عهدا ان ظفر بهم أن يردنى عليك ، فظفر بهم فردنى عليك . فاذا هى قد شحب لونها وتمرط شعرها وذهب لحمها وأقامت عندنا فصلحت فخطبها بنو عمها فزوجناها ، وقد كان الجنى جعل بينه وبينها امارة اذا رابها ريب أن تدخن له ، وان ابن عمها ذاك عيب عليها وقال : جنية شيطانة . ما أنت بأنسية . فدخنت فناداه مناد : مالك ولهذه ؟ لو كنت تقدمت اليك لفقأت عينك ، رعيتها فى

الجاهلية بحسبى وفى الاسلام بدينى • فقال له الرجل : ألا تظهر لنا حتى نراك ؟ قال : ليس لنا ذاك • ان أبانا سأل لنا ثلاثا : أن نرى ولا نرى ، وأن نكون بين أطباق الثرى ، وأن يعمر أحدنا حتى تبلغ ركبتاه حنكه ثم يعود فتى . فقال ابن عمها : ألا تصف لى دواء حمى الربع ؟ قال : بلى • قال : مارأيت تلك الدويبة على الماء كأنها عنكبوت ؟ قال : بلى ! قال : فخذها ثم أشدد على بعض قوائمها خيطا من عهن فشده على عضدك اليسرى ففعل • قال : فكأنما نشط من عقال • فقال الرجل يا هذا الا تصف لنا دواء رجل يريد ما تريد النساء ؟ قال : هل ألمت به الرجال ؟ قال : نعم • قال : لو لم يفعل وصفت لك »

وجاء فى كتاب « آكام المرجان » بعد نقل هذه القصة جملة أخبار من قبيلها يتلقى فيها الانس عن الجن علما من علوم الطب لعلاج بعض الامراض ومنها أمراض لها فى عرف الاقدمين علاقة بالجن كالصرع والوهم والهزال، وبعض هذا العلاج دواء وبعضه من الرقى والتمائم التى تدخل فى طب السحر والكهانة

وما من صناعة بلغت مبلغ الاعجاز فى رأى قوم الا كان لها تفسير من معونة الجن أو المردة ، ويرجعون فى هذا التفسير الى الخبر المنقول كما يرجعون الى المجاز والتخييل • فمما نقله الشعراء من أخبار الرهبان ونساك البيع قبل الاسلام قول النابغة عن معابد بعلبك أو تدمر :

الا سليمان اذ قال الاله له
قم فى البرية فاحددها عن الفند
وخيس الجن أنى قد أذنت لهم
يبنون تدمر بالصفائح والعمد

وجاراه البعيث فى قوله :

بني زياد لذكر الله مصنعة من الحجارة لم يعمل بها الطين
كأنها غير أن الأنس ترفعها مما بنت لسليمان الشياطين

والبحتري يصف ايوان كسرى المهجور فيقول :

ليس يدرى أصنع أنس لجن سكنوه أم صنع جن لأنس

فهو هنا يرى بناء فخما مهجورا يصح أن يكون من صنعة الانس للجن لانه خراب موحش كمساكن الجان ، ويصح أن يكون من صنعة الجن للانس لانه فيما هاله من فخامته أكبر مما تبلغه طاقة الانسان

ولا يفهم القول بتسخير الجان لخدمة الفنون فهما صحيحا الا مع التفرقة الواجبة بين نوعين من التسخير ينبغى ألا يلتبس أحدهما بالآخر فى هذا المقام

فالتسخير الذى يشمل بنى آدم جميعا ويشمل القوى والعناصر جميعا غير التسخير الذى يأتى فلتة من حين الى حين بالحيلة التى يحتالها الشيطان أو يحتالها الانسان ، ولا تبلغ بحال من الاحوال أن تساق مساق التعميم فى الكلام على خلق الاحياء وخلق السموات والارضين

فمن التسخير الذى يجرى مجرى النواميس الكونية قوله تعالى فى القرآن الكريم « **وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الانهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه** »

وقوله تعالى : « **ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الارض والفلك تجرى فى البحر بأمره** »

وقوله تعالى : « **ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الارض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة** »

وقوله تعالى عن داود وسليمان : « **وكلا آتينا حكما وعلما**

وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ، وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ، ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره »

ولم يرد فى القرآن الكريم ذكر لتسخير الجن والانس والحيوان الا بهذا المعنى ، ومنه ماجاء عن تسخيرها لسليمان « **وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون** »

ومنه : « **والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين فى الاصفاد** »

فهذا التسخير الذى يفهم منه أن الانسان قد أوتى علما يسيطر به على القوى والعناصر وما فى الارض ، انما يجرى مجرى النواميس الكونية على عمومها ، ولا يخص به انسان من الناس الا كما يخص بعلم بناء السفن وصوغ الحديد واستخدام الريح بأمر من الله فى غير احتيال من الشيطان أو اختلاس من الانسان

وليس من قبيل هذا التسخير ما يقال عن أسرار السحر والطلاسم وأغراض التحالف والمخادنة بين الاناسى والشياطين

فذاك تسخير تجرى فيه ارادة الله وقدرة الانسان وأحكام القوى والعناصر كيفما سميناها ، مجرى العموم المطرد فى النواميس الكونية التى يعلمها من يقدر على علمها

أما التسخير المقصود بالسحر وما اليه فهو الى خرق النّواميس اقرب منه الى مجاراتها والعمل بارادة الله فيها ، وانما تخرق فيه هذه النواميس بثمن يبذله الساحر من روحه أو جسده ، كأنه محاباة الرشوة وجزاء المخالفة والمروق عن مجرى الامور

ونعود الى عمل الشيطان فى الفنون فنلاحظ أن ملكة الخيال تتقارب فى رواياته وأقاصيصه بين المشرق والمغرب كأنها تصدر من انسان واحد ، يتخيل الشيء الواحد فى أوقات مختلفات

فالعرب يتحدثون عن شياطين الشعراء ، واليونان ـ ومن نقل عنهم ـ يتحدثون عن جنيات الفنون التى اصطلحنا على تسميتها بالعرائس ولم نسلبها بذلك نسبتها الى الجان · وقد قيل عن سقراط أنه كان يستمع وحى الحكمة من جنى أو شيطان كأنه يستمع الى صوت صديق من الانس يحاوره ويناجيه

وقصة الموصلى مع ابليس لها نظير من قصة الموسيقى الايطالى جيوسبى ترتيانى فى أوائل القرن الثامن عشر (١٧١٣) حيث كان نزيلا بأحد الاديرة فجاءه الشيطان فى المنام وتناول قيثارته وعزف عليها لحنا أذهله ، ولكنه لم يذكره كله حين أيقظه ابليس وتحداه أن يعيده كما سمعه ، فقنع منه بما وعاه وسماه هزة الشيطان

والمردة الذين كانوا يقيمون الصروح فى الشرق يضارعهم فى اليونان جماعة المردة المشهورين باسم « التيتان »

والاطباء فى القرون الوسطى كانوا ينافسون الكهنة فى صلواتهم ودعواتهم للمرضى فيتعلمون من الشيطان تلك الرقى والتمائم التى يزيفونها باسم الطب ويشترون بها أرواح المصابين ثمنا لما يخدعونهم به من ظاهر الشفاء وباطن الهلاك والبوار

والحكم على شياطين الفنون من الوجهة الدينية متقارب فى المشرق والمغرب

فالغالب على شياطين الفنون أنها شياطين قدرة وابداع

وليست بشياطين غواية وافساد

ولكن الفنون قد تستخدم للغواية والفتنة كما تستخدم للزينة وابراز معانى الجمال ، كان جرير يفخر بشعره فيقول أنه من رقى الشيطان ويمدح الرجل الصالح فيقول ما معناه أن الله عصمه من رقاه :

رأيت رقى الشيطان لاتستفزه
وقد كان شيطانى من الجن راقيا

فاذا كان الفن من آلات الاصلاح والفطنة فشيطانه من شياطين القدرة والجمال ، واذا كان من آلات الفتنة والغواية فشيطانه من جند ابليس . وقد قال الامام ابن الجوزى فى فصل من كتابه « تلبيس ابليس » وحرم فى نهايته غناء التطريب واللهو قال فى أوله : « وفصل الخطاب أن نقول ينبغى أن ينظر فى ماهية الشيء ثم يطلق عليه التحريم أو الكراهة أو غير ذلك ، والغناء اسم يطلق على أشياء منها غناء الحجيج فى الطرقات فان أقواما من الاعاجم يقدمون للحج فينشدون فى الطرقات أشعارا يصفون فيها الكعبة وزمزم والمقام وربما ضربوا مع انشادهم بطبل فسماع تلك الاشعار مباح وليس انشادهم اياها مما يطرب ويخرج عن الاعتدال ، وفى معنى هؤلاء الغزاة فانهم ينشدون أشعارا يحرضون بها على الغزو ، وفى معنى هذا انشاد المبارزين للقتال اشعار التفاخر عند النزال ، وفى معنى هذا اشعار الحداة . . . وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم مال ذات ليلة بطريق مكة الى حاد مع قوم فسلم عليهم فقال : ان حادينا نام فسمعنا حاديكم فملت اليكم . . . وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم حاد يقال له أنجشة يحدو فتعنق الابل ، فقال رسول الله : يا أنجشة رويدك ! رفقا بالقوارير . وفى حديث

سلمة بن الاكوع قال : خرجنا مع رسول الله الى خيبر فسرنا ليلا فقال رجل من القوم لعامر بن الاكوع : ألا تسمعنا من هنياتك ؟ وكان عامر رجلا شاعرا فنزل يحدو بالقوم يقول :

لاهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فألقين سكينة علينا وثبت الاقدام اذ لاقينا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هذا السائق ؟ قالوا عامر بن الاكوع ، فقال : « يرحمه الله »

ولنذكر مع كلام الامام ابن الجوزى أنه ألف كتابه للكشف عن تلبيس ابليس فلم يدع طائفة الا كشف منها لونا من ألوان هذا التلبيس،ولم يستثن الحكماءوالفلاسفةوالمتصوفةوالنساك، فما بالك بأصحاب الفنون وقالة الشعر ، ومنشدى الغناء



شياطين الشعراء والكتاب

يغلب أن يكون شيطان الشعر من خلق الشعراء أنفسهم ، وأن يكون الكلام عنه لاحقا لظهور الشعر وانتشاره ، فان لم يكن هذا الشيطان مخلوقا شعريا فهو مخلوق خيالى أبدعه كاهن قديم أو مفكر من مفكرى الجاهليات الغابرة له خيال كخيال الشاعر ، وقد تشابه أسلوب السحرة والكهان فى نبوءاتهم المزعومة باللغات المعروفة بين أهل المشرق والمغرب ، فكلها تتوخى السجع والقافية وتخالف كلام الساحر أو الكاهن فى سائر أقواله ، ليصح القول فيها أنها من وحي غير وحيه ومصدر باطن غير مصدر تفكيره الظاهر ، فاذا نسب الشعر الى مصدر كمصدر السحر فالخطوة قريبة والقياس معقول • ولم يزل بين الشعر والسحر نسب قديم

على أن خيال الشعراء يعمل فى تصوير كل كائن غير منظور ولو لم يكن من خلق الشاعر • وشيطان الاديان لم يخلقه الشعراء ولكنهم صوروه فى الصور التى تتمثل للعين، والصور التى يدركها الفكر وتلم بها أحلام اليقظة • وندر من الشعراء ، خاصة ، من سمع بالشيطان ولم يصوره لنفسه على صورة قابلة للتمثيل فى العيان أو للتجسيم على يد الفنان، وقد صنع له المثالون الغربيون تماثيل على صورة الانسان ذات ذنب وقرنين وظلف كأظلاف الجداء ، وجاء فى الشعر العربى ما يصلح أن ينقل منه تمثال محسوس كما قال بعض الاعراب فى رواية الخليل بن احمد :

وحافر العير فى ساق خدلجة وجفن عين خلاف الانس فى الطول

ويوشك كل من تصوره من العرب أن يجعله على مثال آنسانى منحرف بعض الانحراف أو مشوه فى أصل الخلقة لمجرد المخالفة بينه وبين الملامح الانسانية ، ومن ذاك وضع العين بالطول وتخيله بعين واحدة في وسط جبهته، آلى أشباه ذلك من التشويه المقصود لمجاراة الخيال فى استلزام المخالفة بين منظر الانسان ومنظر الشيطان . وعلى نقيض ذلك كان تصوير شاعر الفرس ـ السعدى الشيرازى ـ للشيطان الذى رآه فى الحلم . فقد رآه « بقامة كفرع البانة وعينين كأعين الحور وطلعة كأنها تضىء بأشعة النعيم» .. ولما علم أنه الشيطان أدهشه أن يكون الرجيم البغيض بهذه الوسامة المحبوبة ، وسأله فلاحت على طلعته كبرياؤها وقال : « لاتصدق يا صاح أنه مثالى ذاك الذى رأيتهم يمثلونه . فان الريشة التى ترسمنى تجرى بهايد عدو حسود . سلبتهم السماء فسلبونى الجمال »

ولا يعنينا فى هذا الفصل نقل الصور « الحسية » التى اخترعها الشعراء والفنانون لذلك الكائن المحتجب عن النظر، ولكننا نجمع هنا بعض أوصافه التى تقع فى روع المتخيل أو تعرض للفهم عن تفكير واستنباط ، وليست هذه الاوصاف بالكثيرة ولا بالمتباعدة فى جوهرها ، وليس فيها من ابتداع الا والمنطق يوحى به لزاما فى أوصاف الشياطين على اجمالها وانما الجديد فيها قدرة الشاعر على ابراز «الشخصيات» وتلوينها بألوانها الخلقية ، وكل هذه الشياطين التى جاءت «مشخصة» فى أقوال شعراء الغرب قريب من قريب

وليس أشهر فى «الشخصيات» الشيطانية المسرحية من شياطين مارلو وجيتى وملتون وبليك وكاردوتشى ، من شعراء

القرن السادس عشر فما بعده • فانهم هم الشعراء الذين خلعوا على الشيطان مسحة مسرحية من فنهم ، ولم يكن تصويرهم للشيطان كله نسخة منقولة من الشيطان كما صورته كتب اللاهوت ، ولم يرد شيطان كاردوتشى فى قصة مسرحية ولكنه مثله على مثال الشخصيات السياسية التى تقوم ببعض الادوار على مسرح الحوادث

ولد كريستفور مارلو « Christopher Marlowe » الشاعر الانجليزى فى سنة ١٥٦٤ وظهرت فى حياته قصة الساحر فوستوس بالالمانية ثم ترجمت الى اللغة الانجليزية ، ومدارها على رجل ساحر متعطش الى المتعة والسطوة لم يجد بغيته منهما فى العلم والفقه فأقبل على كتب السحر الاسود يلتمس منه القدرة على تسخير الشيطان لما يهواه ، وتعاقد مع الشيطان على قضاء أربع وعشرين سنة فى المتعة التى يهواها ، ثم يسلمه روحه ليهبط بها الى الجحيم

ويجرى الحوار بين فوستوس والشيطان عند التعاقد بينهما كما يأتى :

مفستوفليس : فوستوس ! أقسم بالجحيم وليوسيفر أن أنجز جميع الوعود التى اتفقنا عليها

فوستوس : اذن دعنى أقرأها على الشرائط التالية :

أن يكون فوستوس روحا فى الصورة والهيولى

وأن يكون مفستوفليس خادمه وطوع أمره

وأن مفستوفليس يجيبه الى كل طلب ويحضر له كل مطلوب

وأن يكون فى بيته أو مكتبه غير منظور

وأن يظهر لجون فوستوس فى كل وقت كما يجب

وأنا الدكتور جون فوستوس من ويرتنبرج ، بهذا الجزاء ،

أضع جسدى وروحى بين يدى ليوسيفر أمير المشرق ووزيره مفستوفليس ، وأفوض لهم بعد أربع وعشرين سنة كل التفويض بناء على هذا العقد المسجل غير منقوص ولا منقوض ، أن يبحثوا عن هذا المدعو جون فوستوس حيث كان وأن يحملوه جسدا وروحا ولحما ودما ومتاعا الى حيث يقيمون

ويتسلم مفستوفليس هذا العقد موقعا بدم الساحر بدلا من المداد

ويظهر مفسوفليس فى الرواية باسم ملك السوء حينا وباسم الشيطان أو باسمه المشهور فى أكثر الاحيان ، وهو رئيس لزمرة من الشيطان مرءوس لابليس المسمى هنا باسم ليوسيفر زميل بعلزبول ، ومن مرءوسيه سبعة شياطين متآمرين هم شيطان الكبرياء وشيطان الطمع وشيطان الغضب وشيطان الحسد وشيطان الشهوة وشيطان الكسل وشيطان الدعارة

ويقضى الدكتورفوستوس أيامه مع الشياطين مستمتعا بما يهواه من حسان الدنيا وحسان التاريخ ، ومنهن «هيلينا» التى فتنت اليونان الاقدمين ، وباريس ، والتى نالت الجائزة قديما فى مباراة الجمال .

ويغلب على ليوسيفر ــ كما صوره مارلو ــ أنه يضع الامور فى مواضعها ويطلب حقوق الشر كما يدعيها ويعطى الخير حقوقه كما تجب ، فهو ييئس الساحر العالم من سعى السيد المسيح فى خلاصه وينبئه أنه عاجز عن انقاذ روحه ، ولكنه لا يرد هذا العجز الى غلبته ورجحان الشر على الخير فى حوله وحيلته ، بل يرده الى عدل المسيح وأنه ليس من العدل أن ينجو من لم يكن أهلا للنجاة ، ولا ينكر الشيطان جدوى الندم والبكاء واستجابة

الصلاة والدعاء ، ولكن الشيطان يستخدم حقه ـ على حكم العهد ـ فى تقييد يدى الساحر فلا يقدر على رفعها الى السماء، ونزف دموعه فلا يقدر على البكاء ، وعقد لسانه فلا ينطق بالصلاة والدعاء



ويأتى ملتون (١٦٠٨ ـ ١٦٧٤) بعد مارلو بفترة وجيزة فى التاريخ الزمنى ، ولكن الشيطان الذى صوره ملتون أهم من الشياطين «الشعرية» التى صورها من سبقوه ولحقوه فى هذا الموضوع بين شعراء الغرب . ومن الدراسات التى تناولته دراسة الشاعر من الوجهة النفسية ، ودراسة الادب والبلاغة. ودراسة العقائد وعلاقتها بالعصر والاحداث السياسية ، ودراسة الاطوار التى تتمثل فيها التقوى حيث تتراءى أحيانا على نحو يوافقها كما تتراءى على نحو يناقض مظهرها وغايتها

فالشاعر ملتون كان من المتدينين المتطهرين ، وكان أمين السر اللاتينى فى حكومة الثورة ، وكان وثيق الصلة بالقائد كرومويل الذى قاد الثورة على الملك شارل الاول ، وقد عمى فى أواخر أيامه وشمت به شارل الثانى فقال له : ألا ترى يا مستر ملتون أن الله عاقبك بفقد بصرك على ما كتبته فى أبى ؟ وكان ملتون مشهورا بسرعة الجواب ، وأجوبته فى قصيدة الفردوس المفقود تعرض لقارئها أمثلة كثيرة على هذه القدرة فى حوار الشيطان والملائكة ، فأسرع الى الجواب قائلا : وعلى أى ذنب عوقب أبوك بفقد رأسه ؟

وملتون لم يبدع قصيدته كل الابداع ، بل استعار من جليوم دى بارتاس « Bartas » (١٥٧٨) فى قصيدته أسبوع الخليقة واستعار من افيتوس « Avitus » فى قصيدته عن

الخليقة والسقوط والنفى من الفردوس ، واستعار من القصص الشعبى الذى كان يدور حول مأساة آدم وحواء ، ولكن هذه القصص جميعا نسيت أو كادت وبقيت قصته لبلاغتها ودلالة صورها وتشبيهاتها واتساعها لتلك الدراسات المنوعة التى أشرنا اليها

يقول الشاعر دريدن أن الشيطان هو بطل ملحمة «الفردوس المفقود» دون من فيها من الشخصيات العلوية والسفلية ، ويرى النقاد الادبيون رأى دريدن فى هذه الملاحظة، فان ملتون قد حول التفات القراء الى الشيطان بما ألقاه على لسانه وما شرحه من مزاعمه ومواقفه . وهو لايعفيه من الذم واللعن والاستنكار ، ولكن عباراته التى يذمه بها ويستنكر بها فعاله انما تأتى مجاراة للعرف الشائع الذى يتشابه فيه كل قائل ، على حين تبرز الاعمال والاقوال التى ينسبها اليه أو يضعها على لسانه بروزا قويا موفور النصيب من عناية الشاعر واعجابه ، وسر ذلك ــ مع تشيع ملتون للمتطهرين الدينيين ــ أنه كان ثائرا ووجد فى تمرد الشيطان فرصة للافصاح عن حجج الثورة ودواعيها ، وربما ظهر من دراسة الشيطان فى قصيدة ملتون أنه يمثل شارل الاول فى بعض الخلال كما يمثل كرومويل فى حالات أخرى • غير أنه كان يمثل شارل الاول فى الخلال التى يعيبها الشاعر ويضيفها الى خبائث الشيطان ومساوئه ، ويمثل كرومويل فى الصلابة والجرأة والاعتزاز بالنفس ، وفى مجموعة تلك الخلائق التى جعلته يطلب المكان الاول فى جهنم ولا يقنع بالمكان الثانى فى السماء

ويلقى ملتون على لسان الشيطان أنه يرثى للملائكة الذين

يحاربونه في صف الاله وهو الذى غضب لهم وأنف من المهانة التى تلحقهم بتفضيل بنى آدم عليهم ، وأنه لولا صواعق السماء لما طمعت جنود السماء فى الغلبة عليه . وتخيل ملتون شيطانه فى بعض مواقفه كأنه سلطان شرقى يستوى على ديوانه ويحيط عرشه بوزرائه وأعوانه ، وتخيله فى أكثر المواقف على هيئة المغلوب الذى يؤسف على هزيمته ولا تراد له الا لأنه قضاء لا مرد له من الله . وقد تضطرب صور الشيطان بين موقف وموقف الا صورة واحدة تثبت له فى جميع مواقفه ، وهى الصورة التى ترضى الشاعر حين يتخذه لسانا ناطقا بحجج المتمردين وحين يتخذه شبحا يحمله أوزار الطغاة وذوى الجبروت فان ملتون هو ملتون فى الحالتين ، وان بدا الشيطان فى صورة مضطربة كلما سامه أن يمثل الحالتين ، ولا يندر أن تتقابلا مقابلة النقيضين

ولعل القول الاصح ان الاختلاف بينهما انما هو اختلاف دورين لا اختلاف شخصيتين . فقد كان الفرق بين كرومويل وشارل الاول فرق الطرفين المتقابلين والعدوين المتقاتلين ، ولكنهما فى الطبائع الشخصية لا يتقابلان هذا التقابل على طرفى الميدان ، بل يتقاربان تقارب الاشياء والنظراء



وفى هذه الاسطر محل لاديب من معاصرى ملتون يقتحمه اقتحاما بحكم المعاصرة والاشتراك فى الحرب الاهلية والكلام عن الشيطان ، ولا محل له الى جوار ملتون بغير هذه المعاصرة وهذه المناسبة ، ونعنى بهذا الاديب جون بنيام « Bunyam » مؤلف رحلة الحاج والحرب التى شنها شداى على ابليس . وابليسه غاصب محتل لمدينة الروح الانسانية يحاصره عمانويل ابن بانى

المدينة شداى ـ اسم من أسماء الله عند العبريين ـ ثم يستولى عمانويل على المدينة ويتغلغل فيهـا ابليس وجنوده بالمكر والدسيسة ويستردها جميعا ما عدا قلعتها المحصنة وهى ضمير الانسان المؤمن بكفارة الخلاص



اما الشيطان الذى يلى شخصية ابليس فى الفردوس المفقود فهو شيطان رواية فاوست التى الفها شاعر الالمان الاكبر جيتى (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) وجعل فيها للشيطان مفستو فليس دورا بين الارض والسماء وبين الخالق والمخلوقات غير الدور الذى تقدم فى رواية مارلو، فان مفستوفليس فى رواية جيتى هو بعلزبوب نفسه وليس زميلا أو تلميذا من تلاميذه، ودوره فى هذه الرواية يعم ظواهر الوجود كله ولا تحده المهمة التى يندبه لها فاوست وأمثاله

وهو يصف نفسه مرة بأنه « جزء من القوة التى امتزجت بالسوء قديما ولكنها لاتفتأ تصنع الخير »

ويصف نفسه مرة أخرى بأنه القوة النافية التى تقول «لا» أمام كل ايجاب

ويوصف فى جميع الاحوال كأنه المفسد الذى يتخلل مفاتيح المعزف بالزوائد والعوائق كلما انتظمت عليها نغمة من نغمات النظام

ويقول مفستو فليس للدكتور فاوست أن الوجود كله عبث وانه كان من الخير الا يوجد . فيقول فاوست : والآن علمت ماتريد . . انك لم تستطع أن تعدمه جملة فأنت تشيع العدم فيه بالتجزئة أو تبيعه بالمفرق !

وقد وضعت قصة فاوست على غرار قصة أيوب فى العهد

القديم ، وظهر الشيطان فى أولها يقول لله انك خلقت العقل للانسان لتميزه على البهائم ، ولكنه يستخدمه ليصبح دونها فى الشر والجهالة ، واننى لا أبالى أن أشقى بنى آدم فانهم متكفلون دونى باشقاء أنفسهم . ثم يقع الرهان على روح العالم فاوست الذى يئس من البحث والعلم وآب الى البؤسى التى لم يستطعم معها مذاقا للحياة ، فيتفق الشيطان والعالم على شروط كالشروط التى تقدمت فى رواية مارلو ، ويأخذه الشيطان الى وكر الساحرة لتعيده باشرافه ـ أى اشراف الشيطان ـ الى الشباب . فيعاف العالم ذلك الوكر ويسأل مفستو فليس : أما من وسيلة غير هذا السحر القبيح لتجديد الشباب ؟ فيجيبه مفستوفليس : بلى ! هناك وسيلة أهديك اليها . تذهب الى الغيط وتحرث وتكرث وتأكل اللقمة التى تجدها وتحصر الحياة فى أضيق حدودها ، وتأتى عليك الثمانون وانت فى غرارة الشباب

قال فاوست : لست بهذا ... قال مفستوفليس : اذن لامناص من السحر والساحرة ، وسأله فاوست : ولم الساحرة ؟ فأجابه الشيطان : انها صناعة صبر طويل لا أطيقه ، ولابد لكل صناعة من أحكام

وتبدأ الغواية برؤية الفتاة مرجريت عائدة من كرسى الاعتراف فيشتهيها فاوست ويروضها له الشيطان ويتواعدان على اللقاء بعد أن تنام أمها بجرعة مخدرة ، فتموت الام بالجرعة وتحمل مرجريت ثم تلد فتقتل وليدها ، وفى خلال ذلك يأتى أخوها الجندى فيطلع على سر هذه الفاجعة ويذهب الى فاوست ليقتله فيقتله فاوست فى مبارزة بينهما ، ثم يغلبه الحنين فيعود الى مرجريت ويعلم أنها سجينة وييسر لها وسائل الخلاص من

السجن فتأبى وتتقبل العقوبة المنتظرة للتكفير عن جريمتها ، ثم تصعد روحها الى السماء فيقول القائلون : لقد هلكت . وتهتف الملائكة : لقد نجت باذن الله !

ويمضي فاوست فى تجـــربة أخرى غير تجربة العشـــق والغواية ، فيرتفع فى عيني الملك وينال مايرضيه من السلطان بالحظوة لديه ، وبطمعـه الشـيطان فى المزيد من الجاه والملك فيماوده الحنين الى العشق وغواياته ، ويسوم شيطانه هذه المرة أن يبعث له الفاتنة «هيلينا» من الاموات فيبعثها ويأتى بها اليه ، ولكنها تراوغه اذ يضمها الى ذراعيه ، فلا يجد منهـا غير جلبابها فى يديه !

وكان فاوست بعد مصرع مرجريت قد آلى على نفسه ليذوقن كل الم يبتلى به بنو آدم لينسى جنايته على الفتاة البريئة وعلى أمها وأخيها ، ويخشى الشيطان عاقبة هذا الندم فيشغله عنه بدسائس القصر وضجته ، ويوشك أن ينسيه الندم لولا سآمة ترين على صدر العالم الحكيم فيزهد فى كل ما احتواه ويربأ بعقله وحكمته عن هذه الصغائر التى تلهيه . ويسأل : أين هى السعادة ؟ فيعلم أنه لم يجدها قط فى لهوه الاول ولا فى لهوه الاخير ، ثم يلوح له أن يستخدم علمه فى تعمير الخراب واصلاح البوار ومعونة الضعفاء ، وانه لكذلك اذ تحين ساعته وتخرج روحه ، فيهم الشيطان بقبضها للهبوط بها الى الجحيم ، وتتنزل الملائكة من السماء فتنازعه عليها وتقول له انه قد خسر الرهان . لان فاوست على ما اقترف من جريمة ورذيلة ، قد عاش وهو يتجه بعينيه الى النور ومات وهو متجه اليه



واغرب الشياطين الشعرية كافة ذلك الشيطان الذى ابتدعه

خيال وليام بليك بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وليس هو على هذا بأغرب من خيال الشاعر الذي ابتدعه . فانه شاعر فى العصر الحديث يدين جدا وصدقا بالمذهب الثنوى ومذهب المعرفيين « Gnostics » الذى ذهب معتقدوه بذهاب القرون الوسطى

كان بليك من أتباع المتنبىء السويدى سويدنبرج ، وكان سويدنبرج من أصحاب الرؤى المصدقين لما يعتريهم من حالات الوجد والنشوة الدينية ، ووقر فى خلده بعد أن جاوز الخمسين فى منتصف القرن الثامن عشر أنه يتلقى الوحى من عالم الغيب فاعتزل وظائف الدولة وأعلن خروجه على المذاهب المتبعة وبشر برسالته التى سماها المسيحية الحقة ، وفسر الكتب المسيحية تفسيرا يخالف التفسيرات التى اعتمدتها الكنائس الكبرى ، ثم هجر وطنه وأقام بالعاصمة الانجليزية حتى مات بها (سنة ١٧٧٢)

ودرج بليك فى حجر اسرة انجليزية تدين بمذهب سويدنبرج ولكنه انقلب عليه ولم يرجع الى مذهب من مذاهب الكنائس المعروفة ، بل راح يستقل بتفسيراته وتأويلاته على حسب ما يستوحيه من تفكيره والهامه ، ولم يكن على علم بشىء من اللاهوت ولا من معارف عصره ، لانه لم يدخل مدرسة منتظمة فى صباه

وشيطانه يصح أن يكون فكرة مجردة كما يصح أن يكون روحا انسانيا أو ملكا من الملائكة المغضوب عليهم ، بل يصح أن يكون عنوانا يضعه الشاعر على كل «شخصية» مفروضة تنتمى الى الشر والخباثة ، وعنده ان الشر كل الشر هو الصرامة فى الاوامر والنواهى والتشدد فى المحللات والمحرمات . فكل رب جاء عنه فى الاساطير الغابرة والديانات الاولى وصف العبوس

والجهامة واتسم فى ضمائر عباده بالقسوة والصرامة فهوشيطان يترقى فى الشيطانية على حسب قسوته وصرامته الى منازل الآلهة الوثنيين المنحوتين بآلهة الشر أو آلهة الظلام . ومن أوهامه التى لايدرى أحد أهى أوهام شعر أم اوهام اعتقاد ثابت ـ ان روح الشاعر ملتون حلت فيه لتكفر عن خطيئتها فى تصوير السيد المسيح وتصوير ابليس ، وان الكتب القديمة أدخلت فى اذهان الناس أن الانسان ذو حقيقتين جسدية وروحية ، وأن نشاط الجسد من الشيطان ونشاط العقل من الروح ، وأن الله يعذب الانسان عذاب الابد لمطاوعته بواعث جسده ، ولكنه من الحق الذى يناقض هذا أن جسد الانسان غير منعزل عن روحه لان حواس الجسد هى منافذ الروح الى المعرفة ، وان النشاط كله من الجسد دون غيره وليس العقل الا الحدود التى تحيط بذلك النشاط ، وأن النشاط هو الفرح الابدى وماعداه كسل واحجام عن الحياة

ولم ينشر بليك مؤلفاته لانه كان يمقت الطباعة ويناظرها بأدوات من اختراعه للنقش والرسم والكتابة يرى أنهـا أليق بالوحى الروحانى من تلك المطبوعات الصناعية . وقد جمعت آثاره بعد موته من قصاصات مشعثة كان يدون فيها خواطره ويتم بعضها ويترك بعضها مبتورا فى نهايته أو مبتورا فى أوله ووسطه ، وهذه شذرة منها تعود أن يدونها بعنوان «خطرة مذكورة» وفى الخطرة التالية عن الشيطان والملك يقول :

«رايت يوما شيطانا فى لهيب النار يرفع هامته الى ملك جالس على سحابة ، ويصيح به : اسمع ياهذا . ان عبادة الله هى تمجيد هباته لغيرك على قدر هذه الهبات ، واختصاص أعظم الناس بأعظم المحبة ، وما الذين يحسدون العظيم أو يفترون

عليه الا أعداء لله • فلا اله غير ذاك »

وسمع الملك مقاله فازرق ثم ملك جأشه فاصفر ثم سكن فابيض وعلته حمرة وابتسامة، وقال : «ياعابدالصنم ! اليس الله بالاله الأحد ؟ أليس الله قد تجلى فى عيسى المسيح ؟ أليس المسيح قد بسط بركته على الوصايا العشر ؟ أليس سائرالناس حمقى وخطاة وعدما ونكرات ؟ »

ثم يلقى بليك على لسان الشيطان ردا يقول فيه : «اذا كان المسيح أعظم انسان فأحببه حبك للانسان الاعظم» .. ثم يحكى له الشواهد من اعمال المسيح ناقضا ما يفهمه الاكثرون من الوصايا العشر ، ويختم هذه الشواهد قائلا : «لقد كان عيسى فضيلة كله ، لانه كان يعمل بباعث عطفه ولا يتقيد بالقيود»

وكل ما القاه بليك على السنة الشياطين فهو من قبيل ماتقدم، مع التناقض الذى لايثبت فيه غير معنى واحد وهو التبرم بالاوامر الصارمة والفضائل الجافية ، والتفكير المنتظم ، وقد قال عن الملائكة أنها تحسب أنها دون غيرها تتحدث بالحكمة ، وكل من يفكر على قياس مطرد خليق أن يغتر هذا الغرور ، وأكثر النتف التى تركها تحمل عنوان الخطرة المذكورة وتجتمع فيها هذه الخطرات بعنوان القران بين السماء والجحيم ، وينعقد قران السماء والجحيم ولقاء الملك والشيطان فى رأيه بالعمل الذى يصدر من الحب ونشاط الجسد منبعثا بوحى الفطرة الصادقة

فالشيطان على هذا الاعتبار جيوش من الشياطين يجسمها القارىء أو ينظر اليها كأنها معانى الشاعر فى قريحته مطلقةبغير تجسيم وبغير شخصية مرتسمة فى الحس أو الخيال

وبعد شيطان بليك ــ او شياطينه ــ لاتحفظ تواريخ الادب

الغربى صورة لشيطان شعرى عمل فيها الفن وبواعث النفس وحوادث العصر غير شيطان كردوتشى شاعر الثورة الايطالية (١٨٧٠ ـ ١٩٠٧) وصاحب جائزة نوبل قبل وفاته بسنة

وتكاد قصيدة الشيطان من نظم كردوتشى أن تكون نشيد صلاة وقد سماها هو نشيدا ونظمها على وزن التراتيل التى تنشد فى الصلوات ، وقال فيها انه لايحفل بالتاريخ القديم تاريخ حرب الشيطان مع الملك ميكائيل ، وأنه يحيى ابليس لانه قاهر الكهان ورافع علم الثورة ، ويناديه : لاتهرب منى حين اناجيك . فاننى أود أن انطلق اليك بروحى ولا يكفينى أن التقى بك فى الشعر والخيال ، ويختم النشيد قبل المقطوعة الاخيرة قائلا :

« انك ايها الشيطان العظيم . انك تعبر البحار وتطوى الارضين . انك تنفث الدخان كالبركان وتجوس خلال الديار ، وتمضى حيث تشاء كما تشاء »

وانطلاق الشيطان ، مع سخريته بالكهان ، هما آية الحرية عند كردوتشى الثائر على طغاة الدنيا والدين ، ولا يبعد أن يكون الشاعر ـ كما قال ابن وطنه جيوفانى بابينى ـ متأثرا بأستاذه ليوباردى فى قصيدته عن اله الشر أهريمان صاحب القضاء النافذ فى الوجود كله ، منفردا ـ فى رأى ليوباردى ـ بغير شريك من أرباب الخير أو ملائكته فى الزمن القديم أو الزمن الحديث

ونحن فى هذه العجالة يجزئنا ماتقدم فى باب شياطين الشعراء التى عمل فيها الفن واصطبغت بصبغة البواعث النفسية والحوادث السياسية ، ولم يستوعب هؤلاء الشعراء الذين ذكرناهم كل مايقال عن ابليس أو عن الشياطين كما يعتقدها اتباع المذاهب منذ القرون الوسطى ، فقد كان أكثر الشعراء

يجربون قرائحهم فى مأساة آدم والشيطان ، ولعلنا نحيط بهذا العيلم الزاخر اذا عرفنا ان رجلا مثـــل هوجو جروتيوس (١٥٨٣ ـ ١٦٤٥) الملقب بأبى القانون الدولى قد جرب قلمه وقريحته فى هذه المأساة ، وكان معاصرا للشاعر ملتون فانتشرت قصائده الى جانب القصائد الخالدة التى نظمها ذلك الشـــاعر المعدود اليوم فى الذروة بين اشعر شعراء العصور

وبعد زهاء قرنين أوحى اسم هوجو الى سميه الفرنسى الكبير فكتور هوجو (١٨٠٢ ـ ١٨٨٥) أن يجرب قلمه وقريحته على نمطه ، فنظم قصائده فى خاتمة الشيطان ونادى بموته ولحاقه بابليس جاحد ربه بين عقول كالخفاش الذى يخاف النور أو البومة التى تستهدى الظلام والغراب الذى يُسلم الفضاء للنسر والعقاب والعنقاء ومن فوقها مرمى السهام التى لاتبلغ الهدف الا من وراء قناع الموت ! ودون ذلك كله وتنحسر أشواط الابالسة والشياطين

الا أن هذا المحصول الزاخر لايزيدنا لونا من ألوان الصورة فى ضمير المؤمن او فى قريحة الشاعر ، وهذا الذى تحريناه فى اهمال ما اهملناه والالمام بما أشرنا اليه . بيد أننا لانستطيع أن نهمل هنا صورة شيطانية تقترن باسم الشاعر الفرنسى بودلير صاحب ديوان « أزهار الشر » وناظم القصائد فى الابتهال الى الشيطان « احكم الملائكة الذى سرق منه القضاء ثناءه والذى سجل عليه الطرد والحرمان من لايزال يخطىء ويغلط » . فان هذا الشيطان عارض نفسانى يصـور الانعكاس فى السريرة المشوهة فتتعمد التوجه اليه على سبيل النقمة والنكاية وتصلى اليه ليشفق عليها كأنها تستجدى الشفقة الالهية ـ عكسا ـ بلسان اليأس والكبرياء

وفيما عدا شيطان بودلير لانرى فى هذا الفصل موضعا للشياطين التى تخيلها الشعراء ولم تدخل فى عداد الصور الخلقية وخوالج الوجدان فى الانسان منفردا او جزءا من أجزاء الجماعة . فالشاعر الروسى لرمنتوف خلق فى احدى قصصه شيطانا لايعدو ان يكون انسانا متنكرا يزاحم الناس على العشق والشهوة ، والشاعر الانجليزى بيرون خلق شيطانا فى قصيدته « رحلة الشيطان » لا يعدو أن يكون مخبر صحيفة يروى للقراء مايروى فى المجالس النيابية ومجالس السمر ، وغيره من الشعراء قد اختار اسم الشيطان ليجرى على لسانه كلاما يجريه بعض الشعراء الآخرين على ألسنة الطير والحيوان أو على ألسنة الشجر والجماد

أما الشيطان الذى نعرض هنا ذكره فهو الشيطان الذى يحوم فى النفس الانسانية وبين الجماعات البشرية فى تقاليدها وموروثاتها ومقاييسها لخيراتها وشرورها ، وهو الشيطان الذى يطيف به خيال الشاعر معبرا عن شعوره ، وان لم يكن من عقائد دينه ، كالشياطين التى سميت بأسمائها فى الادب العربى . هبيد ومسحل والهوجل وجهنام ، أو كالشياطين التى يعتقدها المتدين ويفتن الشاعر فى تصويرها لامتيازه بملكة الخيال وملكة الرمز والتشخيص ، فهذه الشياطين قوى مشتركة فى طبائع الناس وقيم نفسية يقومها الناظرون فى الاخلاق والطباع ، ولو رفعناها منها بأسمائها لبقى مكانها متطلبا منا ان نسميها بغير تلك الاسماء ، لانها لاتقبل السكوت عنها ولا تغفلها الحياة ان اغفلها اللسان (١)

---

(١) اهملنا فى هذا الفصل ما كتب على سبيل الهزل فى قصص الفكاهة : كقصة رابيليه الفرنسى ، وبن جونسون الانجليزى ، فانهما صورا الشيطان غرا مخدوعا ليبالغا فى دهاء الفلاحين اوالمرابين ، ولم يقصدا الجد فى تصوير شيطان معلوم ، او تصوير الخلائق الشيطانية على العموم

فى الادب العــربى

يندر فى الادب العربى تمثيل الشياطين الشعرية من قبيل تلك الشــياطين التى حفلت بهــا ملاحم الشــعراء الغربيين وقصائدهم ، لان شعراء العرب لم ينظموا الملاحم التى يتمثل فيها ابطالها بملامحهم الظاهرة وملامحهم الخفية . ونحسبهم لو نظموا هذه الملاحم لما كان للشيطان فيها هذا الشأن الذى أصابه فى أدب الغرب شعرا ونثرا . لان الادب العربى لاينسب الى الشيطان دورا فى قصة الخليقة والخلاص كالدور الذى ينسب اليه فى عقائد الادباء الغربيين ، فاذا نظم الشاعر العربى ملحمة عن الخليقة لم يكد يفعل فيها الشيطان فعلة غير ذلك الوسواس الذى يطرأ على كل سريرة آدمية فى ساعته كما طرأ على سريرة آدم أو سريرة حواء

واذا تخيل المتخيل صفة للشيطان فى كلام شاعر عربى فلا نظنه يخرج منه بصفة غير تلك الصفة التى لخصها أبو نواس فى خليط من الخبث والحماقة ، لانه

تاه على آدم فى ســـــجدة

وصــــــار قوادا لذريته

وربما تكرر من الشعراء الذين يشخصونه لانفسهم ذلك الحوار الذى دار بينه وبين ابى نواس : حوار من يستعين بابليس على شهواته ويتوعد ابليس ان يتوب عن المعاصى ان لم ييسر

له ما يشتهيه ، وقد كان ابليس على هـذه الصفة عند الشاعر الذى قال فيه :

ابليس أكرم من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الاشرار
النار عنصره وآدم طينـة والطين لايسمو سمو النار

وذلك هو بشار بن برد الذى كان يتظرف بأمثال هذه البدوات ولا يأتى فيها بجديد من عنده ، لان المفاضلة بين العنصرين أقدم من بشار وأقدم من كل ماقاله الشعراء المسلمون عن ابليس ، ولم تخطر صفة ابليس على بال احد من المتقدمين فى الاسلام الا كان يعلم أن ابليس من عنصر النار

على أن موضع ابليس من رسالة الغفران لابى العلاء يشبه بعض الشبه مواضعه من ملاحم الشعراء الغربيين . فقد ذهب فيهـا الى اودية ليست كأودية الجنة فسأل صـاحبه بعض الملائكة : ماهذه ياعبد الله ؟ فقال له : هذه جنة العفاريت الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وذكروا فى الاحقاف وفى سورة الجن وهم عدد كثير .. ويسأل احد العفاريت عن اشعار المردة فيقول له : لقد أصبت العالم بحقيقة الامر · وهل يعرف الانس من النظيم الا كما تعرف البقر من علم الهيئة ؟ ثم يسأله عن اسمه فيقول انه يدعى الخيثعور وانهم من غير ولد ابليس ، وانهم من الجن الذين سكنوا الارض قبل آدم عليه السلام

ويلقى فى جنة العفاريت شاعرا يسمى ابا الهدرس فيسمعه من نظمه قصيدة يقول فيها عن ايام طاعته لابليس :

نحارب الله جنـودا لأبلـ يس أخى الرأى الغبين البخيس
نسـلم الحكم اليه اذا قاس فنرضى بالضلال المقيس
نزين للشـارخ والشيخ أن يفرغ كيسا فى الخنا بعد كيس
ونقترى جن سـليمان كى نطلق منها كل غاو حبيس

ونخرج الحسناء مطرودة من بيتها عن سوء ظن حديس
ونخدع القسيس فى فصحه من بعد ما منى بالانقليس
ونعجل السعلاة عن قوتها فى يدها كشسح مهاة نهيس
نادمت قابيل وشيثا وها بيل على العاتقة الخندريس

وفى أقصى الجنة يلقون الحطيئة والخنساء ، ويسألون الخنساء عن شأنها فتقول : احببت أن أنظر الى صخر فاطلعت فرأيته كالجبل الشامخ والنار تضطرم فى رأسه فقال لى : لقد صح مزعمك فى :

وان صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم فى راسه نار

قال ابو العلاء عن صاحبه : « فيطلع فيرى ابليس لعنة الله وهو يضطرب فى الاغلال والسلاسل ، ومقامع الحديد تأخذه من أيدى الزبانية ، فيقول : الحمد لله الذى أمكن منك ياعدو الله وعدو أوليائه ، لقد اهلكت من بنى آدم طوائف لايعلم عددها الا الله ، فيقول : من الرجل ؟ فيقول : أنا فلان بن فلان من أهل حلب كانت صناعتى الادب اتقرب به الى الملوك . فيقول : بئس الصناعة ، انها تهب غفة ــ أى بلغة من العيش ــ لايتسع بها العيال ، وانها لمزلة بالقدم . وكم أهلكت مثلك ! فهنيئا لك اذ نجوت ، فأولى لك ثم أولى . ان لى اليك حاجة فان قضيتها شكرتها لك يد المنون . فيقول : انى لا أقدر لك على نفع ، فان الآية سبقت فى أهل النار ، أعنى قوله تعالى : «**ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله . قالوا ان الله حرمهما على الكافرين** »

« فيقول ابليس : انى لا أسألك فى شىء من ذلك ، ولكنى أسألك عن خبر تخبرنيه . ان الخمر حرمت عليكم فى الدنيا واحلت لكم فى الآخرة ، فهل يفعل اهل الجنة بالولدان المخلدين

فمل اهل القريات ؟ فيقول : عليك البهلة . أما شغلك ما انت فيه ؟ أما سمعت قوله تعالى : **((ولهم فيها ازواج مطهرة، وهم فيها خالدون))** فيقول : وان فى الجنة لأشربة كثيرة غيرالخمر ، فما فعل بشار بن برد ، فان له عندى يدا ليست لغيره من ولد آدم . كان يفضلنى دون الشعراء وهو القائل :

ابليس افضل من ابيكم آدم فتبينوا يا معشر الاشرار

النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار

لقد قال الحق ، ولم يزل قائله من الممقوتين

فلا يسكت من كلامه الا ورجل من أصناف العذاب يغمض عينيه حتى لا ينظر الى ما نزل به من النقم ، فيفتحهما الزبانية بكلاليب من نار ، واذا بشار بن برد قد أعطى عينين بعد الكمه لينظر الى مانزل به من النكال »

وكل ماجد بعد المعرى من كلام يدخل فى باب القصة من الادب ويذكر فيه الشيطان ــ فهو تلك القصص التى جمعت باسم الف ليلة وليلة واقتبس رواتها ماتداولته الالسنة من أخبار السحرة وتسخير المردة وقيام الجان على ارصاد الطلاسم أو حبسها فى الاغوار والقماقم ، وهى لاتأتى بابتداع أو اختلاف او زيادة على مااعتقده الناس ونظمه الشعراء

ولم يطرأ على الادب العربى جديد فى هذا الباب حتى مطلع القرن العشرين . ثم نجمت فى أوائل القرن العشرين نوازع شتى للتوسع فى الاطلاع على آداب الامم والبحث فى موضوعات الشعر وتعبيراته عند تلك الامم ، ومن موضوعاته الملاحم المطولة ، ومن تعبيراته تجسيم المعانى المجردة والعناصر الطبيعية وأرواح الغيب وكائناته المشبهة بتماثيل الاحياء

ونحن فى هذا الباب خاصة لانبحث بحث المؤرخين أو النقاد

الاوربيين ، وانما نراجع ما أحسسناه واختبرناه ، ونفهم بواعث النظم والتأليف فى هذه الاغراض مما عالجناه وانبعثنا اليه بوحى الاطلاع وعدوى الخواطر التى يوحيها

أول ماخطر لنا ان نقارن بين التشبيهات والمعانى المجسمة فى اللغات الاوربية واللغة العربية ، وكتبنا فى هذه المقارنة عن الكائنات الخفية وعن عجائب المخلوقات وعن الاساطير ، مما يطلع عليه القارىء فى كتاب « الفصول » ومجمع الاحياء ، وأحسسنا الحاجة الى تصوير بعض العواطف بصورتها الشعرية التمثيلية ، فأخذنا فى وقت واحد فى نظم قصيدة عن سباق الشياطين وتأليف كتاب نسميه « مذكرات ابليس » ونخصص كل فصل منه لغواية من الغوايات كالعشق الاثيم والسرقة والبغى والطمع وسائر هذه الآثام التى تذكر كلما ذكر الشيطان ، وكان ذلك حوالى سنة (١٩١٢) وبعد الاطلاع على طائفة من ملاحم الغرب وأساطيره . فأما سباق الشياطين فقد تمت القصيدة التى نظمناها فى موضوعه ، وأما مذكرات ابليس فلم يتم منها غير فصل واحد من فصول الاعور بن ابليس الموكل بالعشق الاثيم ، ثم بقيت النية مترددة حول هذا المطلب حتى تحولنا عنه بعد الحرب العالمية الاولى الى موضوع القصيدة التى سميناها « ترجمة شيطان » ونشرت فى الجزء الثالث من الديوان

وحوالى هذا الوقت ألف صديقنا الشاعر العبقرى الاستاذ عبد الرحمن شكرى كتابه النثرى الذى سماه « حديث ابليس » وقال فى مقدمته : « قد بدأ يكثر فى آداب اللغة العربية البحث النفسى والتساؤل والتفكير والتعبير عن حركات النفس وبواعثها ، ولكن كل ذلك لم يزل بعد قطرة لانعرف ان كان

وراءها سيل أتى . وهذا الكتاب فيه شيء كثير من البحث النفسي والتساؤل والشك والسخر الذى هو محرك يحرك النفوس ويوقظها فهو يعبر عن تلك الدنيا التى فى كل نفس ، ففى فصل نصيحة ابليس مثلا ترى تحت السخر المودع فى هذا الباب ما أرمى اليه من معائب النفوس الجامدة القبيحة التى تشبه مباول الطرق ، وقد جعلت ابليس ينصح بما ينبغى الانتهاء عنه »

وقد أطلعنا بعد الحرب العالمية الاولى على محاولات منوعة فى هذه الاغراض لم يكن منها مابلغ فى جودته مبلغ العمل الفنى خلال ثلاثين سنة أو تزيد ، ومنها مانظم فى مصر وما نظم فى غيرها من البلاد العربية ، حتى ظهر ديوان « عبقر » للشاعر السورى الاستاذ شفيق معلوف من صفوة أدباء المهجر بالبرازيل ، وكان ظهوره فى الطبعة الاولى سنة ١٩٣٦ وأعيد طبعه فى سنة ١٩٤٩ ثم ظهرت قصة «الشهيد» لزميلنا الكاتب الموهوب الاستاذ توفيق الحكيم ، وهى قصة صغيرة من مجموعة قصصية صدرت سنة ١٩٥٣ وتعد على صغرها من أجود ماكتب فى هذا الغرض فى جميع اللغات

اما قصيدة « سباق الشياطين » فخلاصتها ان ابليس جعل لتلاميذه جائزة ينالها من يعرض أعماله ويثبت للملأ من الشياطين قدرته على السبق فى التضليل والاغواء . فانبرى سبعة من الشياطين يتنافسون عليها وهم : شيطان الكبرياء وشيطان الحسد وشيطان اليأس وشيطان الندم وشيطان الحب وشيطان الكسل وشيطان الرياء ، فاستحقها هذا الشيطان الاخير ــ شيطان الرياء ــ ولكنه جرى على عادته فاظهر الزهد فيها وتنحى عن تناولها بعد اشتراكه فى المنافسة

عليها فخاطبه ابليس :

قال تأباهـــا ولولاك انجلى غيهب الارض فكانت كالنعيم
دونك الدنيا اتخـــذها منزلا وتول اليوم أبواب الجحيم



وقصيدة « ترجمة شيطان » هى قصة شيطان ناشىء سئم حياة الشياطين وتاب عن صناعة الاغواء لهوان النـــاس عليه وتشابه الصالحين والطالحين منهم عنده ، فقبل الله منه هذه التوبة وأدخله الجنة وحفه فيها بالحور والعين والملائكة المقربين. غير أنه سئم عيشة النعيم ومل العبـــادة والتسبيح وتطلع الى مقام الالهية لانه لايستطيع أن يرى الكمال الالهى ولا يطلبه ثم لايستطيع أن يطلبه ويصـــبر على الحرمان منه . فجهـــر بالعصيان فى الجنة ومسخه الله حجرا فهو مايبرح يفتن العقول بجمال التماثيل وآيات الفنون ، واستضحك ابليس بين جنده يوم انتهى المطاف بتلميذه آلى هذه الخاتمة ، فقال :

ما أرى هـــــذا الفتى من دمنـــــا
ومتى استغوى الشياطين الشرك
اترى شــــيطانة من قومنـــــا
اغوت الاملاك فهـــــــو ابن ملك

.. .. ..

فتلاحى القـــوم ثم اســـتضحكوا
ودعا مازحهـــــــــــــــم شر دعاء
قال : فلتسلـــكه فيمن ســـلـــكوا
أيهــــا المولى ســـبيل الشـــهداء



والسمة التي يتسم بها ابليس فى رسالة الاستاذ عبد الرحمن

شكرى هى سمة النقد الساخر تسرى فى الحديث من أوله الى ختامه ، ويدل بعضها عليها كقول ابليس عن أخلاق الانسان والحيوان : « اننى أرى فى الحيوانات العجم خصالا هى فى الانسان ضئيلة خافية . فللكلب من الوفاء والامانة ما ليس للانسان ، وللخيل من الود والولاء ما لا يبلغ بعضه الانسان ، وللبغال والحمير من الصبر والحزم ما ليس له ، وللقرود من الذكاء والفطنة وحب التقليد ما ليس له ، ولو فطنتم يا بنى آدم لرأيتم ان تزوجوا بناتكم من البغال والحمير والكلاب والقرود لكى يكتسب نسلهن بالوراثة من حميد صفات هذه الحيوانات .. ولا تحسب أن النساء ينزعجن من هذا الزواج فانهن قد الهمن فضائل الحيوانات وهذا تفسير ميلهن الى صغار الكلاب والقرود ... »

أو كقول أحد الشياطين : « .. فالتفت ابليس الى وقال : سمعت أحد الملائكة يقول لحافظ من الحافظين وهو الملك الذى يحصى ذنوب الناس : مالى أراك منتوف الجناحين ؟ قال الملك : عافاك الله من الناس ، فانى استخدم ريش جناحى كما تعلم فى كتابة ذنوبهم ، وقد تكاثرت على ذنوبهم حتى برت ريش جناحى وأتلفته وأنا كلما تلفت ريشة من كثرة الكتابة نتفت من جناحى ريشة أخرى حتى نفد ريشى ولم تنفد ذنوب الناس »

وختم الكاتب الرسالة بكلمة عن عظم الوجود وغرور الانسان ، ونصيحة من روح الابد يقول فيها للانسان الذى يخاطبه : « اذهب الى مكانك من الارض ولا تنس الوجود فان احساسك بعظمته فيه معانى العبادة كلها »



ونظم شاعر المهجر البرازيلى الاستاذ معلوف ديوان عبقر

مقسما الى قصائد يروى فى كل قصيدة منها نبأ عن ولد من اولاد ابليس أو بعض الشياطين ، فيقول مثلا عن الشيطان « داسم » ابليس النقائص :

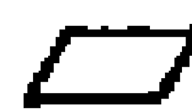
وجاءنا ثانى ، ابناء عزريل
سحنة شيطان ، فى منكبى غول
وقال فى دهاء ، ويك أنا الكاسى
بالخبث والرياء ، نقائص الناس



لما أممت الارض فى زورة
استعرض النقائص العارية
ألفيتها والناس قد مزقوا
اجسادها فى فتنة دامية
فرحت أكسو بيدى عريها
بحلل براقة زاهية



فاندست الكبرياء ، تحت حجاب الحسب
وتحت ستر الاباء ، غلغل وجه الغضب
وانقلب العناد ، بين الورى حزما
وصار الاستبداد ، فى عرفهم عزما



ويقول عن الاعور أبليس الشهوة :
وذاك أعور ، اطل ينظر ، من ظاهر الهوة
وقال انى انا ، حامى ذمار الخنا ، والعهر والشهوة
شرارتى فى العيون ، حريقة فى الدم
أنا مثير الجنون ، والفم لصق الفم

ما اتكأ العاشقون ، الا على معصمى
كم ذاق خمرى عاشق فالتوى
معربدا فى سـكرات الهوى
مهـدما ببعضـه بعضـه
وهو على الانقاض يبنى السوى

وختم الديوان بقصيدة عن العبقريين قال فيها عن أهل الخلود من أبناء عبقر :

وثمة استجليت صوتا دوى
ولم أجده لذهولى سوى
جماجم أرواحها غلغلت
تصخب فيها من خلال الكوى
فصاحت العظام ، أعطى الذى أخذ
لم تظفر الايام ، منا بغير الفلذ
فكن عش الفرام ، وصرن مأوى الجرذ
لكنما احلامنا لم تزل
ترقص سكرى فوق غلف المقل
حاملة للناس خمر الهوى
مشعة خلف كؤوس الامل

والغالب على ديوان عبقر روح غنائية يسعدها خيال موفق فى كثير من تشخيصاته وما ينطق به لسان الحـال من تلك الشخوص المخيلة



وهذه الجوانب المتعددة من صور الشيطان فى الادب العربى الحديث تتم من جانبها الفنى بقصة « الشهيد » للاستاذ توفيق الحكيم ، لانه أعطى الشيطان دوره المحتوم فى مسرح الكون ،

وجعله كما هو فى الواقع دورا لا حيلة فيه له ، ولا لأصحاب الاديان الذين يلعنونه ويستنكرونه . ولكنه يلجأ اليهم ليتوب على أيديهم فلا يدرون كيف يقبلون توبته ، فان الحبر المسيحى لايملك أن يتصرف فى عقيدة الخطيئة والخلاص ، والربانى اليهودي لايملك أن يتصرف فى مكان شعب الله المختار بين الامم التى أضلها الشيطان على اعتقاده ، والامام المسلم لايملك ان يتصرف فى التعوذ من الشيطان الرجيم ، ويصيح ابليس يائسا : « وجودى ضرورى لوجود الخير ذاته ... نفسى المعتمة يجب ان تظل هكذا لتعكس نور الله » ويبكى ابليس فتتساقط دموعه كالنيازك على رؤوس عباد الله ، فينهاه جبريل عن البكاء ويحيق به اليأس من كل جانب ، فيهبط الى الارض مستسلما « ولكن زفرة مكتومة انطلقت من صدره وهو يخترق الفضاء ... رددت صداها النجوم والاجرام فى عين الوقت كأنها اجتمعت كلها معه لتلفظ تلك الصرخة الدامية : أنا الشهيد . أنا الشهيد»

ومن الحق أن نلحق بما تقدم لونا آخر من ألوان الحديث عن الشيطان في الشعر العربى ، لم نثبته مع الصور السابقة لأنه من ألوان الرأى لا من ألوان التخيل والتصوير ، ولكنه لا يهمل كل الاهمال فيهذا المطلب لأنه رأى بيديه صاحبه فى حقيقة الشيطان

ذلك هو رأى الاديب العراقى الكبير جميل صدقى الزهاوى ومجمله أن الشيطان هو الانسان الذى يخدع غيره لغاية من غاياته :

لا يخدع المرء انسانا لغايته الا اذا كان ذاك المرء شيطانا

وأما الشياطين والعفاريت فقد حدث الكتاب الكريم فى ذكرها ، وأخطأ المفسرون كما قال فى حساب الملكين :

غير أنى أرتاب من كل ما قد عجز العقـــل عنه والتفكير
لم يكن فى الكتاب من خطأ كلا ولكن قـد أخطأ التفســـير

فهذا المطلب على حداثته فى الادب العربى قد أحيـــط من جوانب متعددة. وهو ـ ولا شك ـ لايساوى نظائره الاوربية فى استفاضتها ولكنه يساويها فى طبقتهـا اذا أسـقطنا من أدب الغرب ما استعاره من قصة الخليقة وما كان لهذه القصـة من القداسة الدينية التى لم يخلقها ابتكار الشعراء والادباء



فى العصر الحاضر

اذا أخذنا باحصاء الكلمات والتعبيرات للحكم على مقدار انتشار الافكار والعقائد ـ جاز لنا أن نقول أن الحضارة العصرية أكثر الحضارات ايمانا بوجود الشيطان وعمله الدائم فى النفس البشرية والبيئات الاجتماعية • فان كلمة الشيطان والشيطانية والشيطنة من أشيع الكلمات فى كتابة الاوربيين العصريين ، ومنها ما يشتق من كلمة الشيطان بنطقها الشرقى ، أو يشتق من الكلمات اليونانية والسكسونية بلفظها القديم ولفظها المتداول فى العصر الحاضر

ولكننا سنرى مسألة الشيطان هذه من أقوى المكذبات لطريقة الاحصاء الآلية : طريقة الحكم على الافكار والعقائد بعدد الكلمات والعبارات • فان كلمة الشيطان كانت علما على « شخصية » الكائن الشرير فأصبحت على ألسنة القوم معنى لغويا لا تؤديه كلمة أخرى فى مدلوله • لأنه يؤلف فى كلمة واحدة بين الاعمال الشيطانية بجملتها ، ويفهم منه الكيد والخبث والمهارة والنفاق وحب الأذى وكل معنى يناقض الاستقامة والصلاح ، وأكثر ما تستخدم الكلمة ومشتقاتها فانما تستخدم بمعناها هذا الذى آنتقل من ألفاظ الاعلام الى ألفاظ المعانى والصفات

وقد أصبح استخدام هذه الكلمة كاستخدام السيد المسيح لكلمة « مامون » حين عبر بها عن سيادة المال والجشع ، فقد

كانت الكلمة فى اللغة السريانية علما على رب يزعمون أنه رب المطامع الدنيوية ، فكان السيد المسيح يقول لتلاميذه انكم لا تستطيعون أن تخدموا سيدين ، ولا تستطيعون أن تنالوا رضى الله ورضى مأمون ، ولم يكن عليه السلام يصدق عقيدة السريان فى مأمون ، ولكنه كان يقولها ويعلم أن سامعيه يفهمون عنه ما أراد ، وهو التعبير عن الجشع ومطامع الاشرار

وبهذا المعنى المجازى تشيع كلمة « الشيطنة » فيما يكتبه أبناء الحضارة الاوربية الحاضرة ، وقد يكتبها الملحدون الذين ينكرون وجود الكائنات الغيبية كما يكتبها المتدينون الذين يؤمنون بوجود الشيطان ويختلفون فى عمله وفى مدى قدرته، وكلهم فى العصر الحاضر يسمعون باسم الشيطان فلا يتخيلونه على الصورة التى كانت تسبق الى خيال السامع فى القرن الرابع عشر وما قبله أو بعده بقليل

وقد ظهر فى باريس عند أواخر القرن الرابع عشر كتاب عن وصايا الشيطان التى يقابل بها وصايا الله ، فجمعها فى ست وصايا خلاصتها العناية بالنفس دون غيرها ، وألا يعطى المرء شيئا بغير جزاء ، وأن يتناول طعامه منفردا ولا يدعو أحدا اليه، وأن يقتر على أهله وأن يحتفظ بالفتات من مائدته والاسمال من كسائه وأن يقنطر المال عنده طبقة فوق طبقة ... وهذه رذائل القرن الرابع عشر كما أحصاها بنوه بين الجد والسخرية، وانها اليوم لفضائل العصر الذى يسمى بعصر التدبير والاقتصاد والانانية الفردية ، ومن أجلها تسمى الحضارة العصرية بالحضارة الشيطانية !

ومن البديه أن المتحدثين عن الشيطان فى حضارة العصر لا يقصدون جميعا هذا المعنى المجازى ولا يقصرونه جميعا على

الصفات دون الاعلام والاسماء • فان أكثرهم متدينون يؤمنون بوجود الشيطان وعقيدة المسيحية فيه ، ولكنهم ـ كما أسلفنا ـ يسمعون باسمه فلا يتخيلونه على الصورة التي كانت تسبق الى خيال السامع قبل بضعة قرون

فهم يذهبون اليوم بصرعى الجنون الى الطبيب ولا يعالجونهم عند الكاهن أو رجل الدين ، وهم يفرقون اليوم بين وساوس نفوسهم وما ينسبونه الى الشيطان من ايحاء وتلقين ، وليس للشيطان عندهم تلك المملكة الواسعة التي كانت له في القرون الوسطى،فانها انحسرت شيئا فشيئا حتى كادت تخرج من عالم الطبيعة الى ما بعدها ، وكادت دولة الشيطان تؤول الى حالة كالحالة التي حصره فيها الاسلام : قرين سوء ليس له على قرينه سلطان



ويئول الشيطان على هذا في القرن العشرين الى مصيرين : مصيره في مجال العقيدة الدينية وهو الى النقصان ، ومصيره في مجال العبارة المجازية وهو الى الزيادة ، وعلى الناظر في العبارات والأساليب أن يطيل النظر في هذا المصير الاخير • أليس فيه الحجة الدامغة لبلاغة الوجدان على بلاغة العقل واللسان ؟ أليست هذه اللفظة الواحدة : لفظة الشيطان بلاغة وجدانية تتقاصر عن مداها في التعبير كل عبارة تجريها اللغة مجرى الفكر و « اللفظ المركب المفيد »



من الذين زادوا في عدد الشياطين المجازية من كتاب العصر الحاضر تولستوى حكيم الروس الكبير • فقد أضاف الى عددهم شيطان الكبرياء العنصرية ، وشيطان التعصب الديني، وشيطان

الاستعمار ، وشيطان الحرب والاستبداد

ومن الذين زادوا فى عددهم الى الملايين برتراند رسل فيلسوف الرياضة المعروف ··· فان شيطانه الذى أقامه فى الضواحى رجل كان طفلا يتيما تركه أبوه لزوجة سكيرة ، تحبسه فى الدار يهلك جوعا وعريا وتذهب لتسكر وتعربد فى الطريق ، فاذا شكا اليها الطفل اليتيم اذ ترجع الى المنزل آخر الليل ضربته حتى يصيح ثم ضربته حتى يسكت عن الصياح · فكبر فى الدنيا وهو يجهل أباه ويحقد على أمه أولى الناس بعطفه عليها لو استقامت الدنيا على السواء ، وقل ما شئت فيمن يحقد عليهم غير أمه من خلق الله ··· فهم كل خلق الله ! وفيهم الملايين من أمثاله الحاقدين على كل مخلوق

ومن الذين زادوا عددهم الكاتبة الانجليزية المعروفة مارى كوريللى ، والشيطان عندها فى قصة أحزان الشيطان يشبه أن يكون صورة الخير منظورا من قفاه لا من وجهه ، وسائرا الى الوراء بدلا من مسيره الى الامام

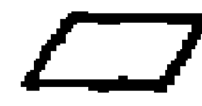
ومن الذين زادوا فى عددهم سليل بيت العلم بين الانجليز الدوس هكسلى كاتب القصة والمقال وأديب العلماء وعالم الأدباء ، فانه أخذ « اسيدى » شيطان القرون الاولى فنسخ منه ألوف النسخ بين الآدميين وجعل هذا العصر أحق به من عصور النساك والرهبان الذين رهبوه فى وضح النهار ··· اذ كان من بلواه أنه لا يغشاهم مع الظلام بل يطرق عليهم قلوبهم فى وهج الظهيرة ، ومع شمس الصحراء التى يهرب منها الانس والجان

كان « أسيدى » هذا شيطان الحلم فى اليقظة الذى سلطه ابليس على رهبان الصعيد فى عصور المسيحية الاولى ، وكان

من دأبه أن يلهيهم عن العبادة بما يزخرفه لهم من الاحلام والرؤى وهم مفتوحو العيون مستسلمون للسكون فى ظلال الصوامع بين نيران القيظ فى الصحراء . فاذا حلموا كسلوا ، واذا كسلوا شكوا ، واذا شكوا آل بهم الشك الى السآمة والملل وكراهة الدنيا والآخرة واليأس من الصحيح والباطل على السواء

وينقله الكاتب من القرون الاولى الى القرن التاسع عشر ثم الى القرن العشرين ، ويقول فى تفسير نقلته «اننا لانزعم أن (أسيدى) من مخترعات القرن التاسع عشر . فان السآمة والخيبة واليأس وجدت قديما ولم تنقطع عن الوجود ، وابتلى الناس بآلامها فيما مضى كما نبتلى بها الآن ... غير أنهـــا فى العصر الحديث قد طرأ عليها ما يجعلها موقرة مرعية ولا يجعلها كما كانت خطيئة محظورة أو يجعلها مجرد عرض من أعراض السقم ... وهذا الذى طرأ عليها انما هو التاريخ كله منذ سنة ١٧٨٩ .. انما هو اخفاق الثورة الفرنسية وذلك الاخفاق الذى يربى عليه فى الضجيج والابهة وهو سقوط نابليون . فقد غرس كلاهما (اسيدى) فى قلب كل فتى من الفرنسيين وغير الفرنسيين ، صدق دعوة الحرية وطمح الى أحلام المجد والعبقرية ، ثم جاءت الصناعة الكبرى بما تراكم معها من القذر والبؤس والمال الحرام ، وكان مسخ الطبائع على يد هـــذه الصناعة حسب القلب الكريم من محنة الحزن والاسى ، واطلع الناس فرأوا أن الحرية الدستورية التى طالما كافحوا من أجلها عبث لا يغنى شيئا مع طغيان الآلات واستعبادها للنفوس ، فكان ذلك رعبا آخر من ضروب الرعب التى خيبت الآمال فى القـرن العشرين ، وزيد عليها من دواعى السآمة داع أدق وأغلب مما عداه وهو تعاظم المدن وراء كل مقدار معقول . فتعود الناس المقام بها وأحسوا

فى البعد عنها تفاهة لاتطاق ، وأطبقت البلوى عليهم فأحسوا من ضوضاء المدينة حنينا الى سآمة الريف ... وكأنما كانت هذه المضجرات فى انتظار تاج يعلوها فتوجتها الحرب العالمية الاولى»



ويعنى بالكتابة عن شيطان العقيدة الدينية أناس من طبقة هؤلاء الكتاب الذين اتخذوا من اسم الشيطان تعبيرا مجازيا عن مساوىء العصر وشروره وأدناسه ، وربما كتب المؤلف الواحد عن هذا الشيطان وذاك الشيطان كما فعل هكسلى فيما المنا به من كتاباته آنفا وفى كتابه الذى الفه عن شياطين لودن « The Devils of Loudun » ... ومن قرأ هذا الكتاب علم أن هكسلى قد أراد أن يكشف عن خبيثة من السوء فى هذا الانسان الذى يلعن الشيطان لم يهبط الى ما دونها أخبث الشياطين

فالقصة التى حققها الكاتب من مراجعها التاريخية احدى المبكيات المضحكات من مآسى التاريخ التى حفلت بها صفحاته فى القرون الوسطى ، وكان فيها مظلومان مكذوب عليهما كذبا لايخفى على أحد فى الزمن الحديث ، وهما الشيطان ورجل من رجال الدين مغضوب عليه

وقد بدأت القصة باصابة بعض الراهبـــات فى بلدة لودن بالصرع واتهامهن بالتجديف والبذاء والتفوه فى نوبات المرض بكلام يخجلن منه كلما أعيد عليهن بشىء من التلميح وهن مفيقات، ولو حدثت هذه الاصابة فى العصر الحاضر لاستطاع رجل الدين كما يستطيع رجل الدنيا أن يفهم أنهن مصابات «بالهستيريا» أو بالفصام الذى تنقسم فيه شخصية المريض ، ولكن الرئيس الذى تولى البحث فى أمرهن لم يستطع أن يفهم من بذائهن فى خلال النوبة وخجلهن بعد الافاقة منها الا أن المتكلم بالبذاء أحد

غيرهن يهمه أن يعبث ببراءة الراهبات انتقاما من الله وعابداته وعابديه ، ومن يكون هذا المنتقم القادر على صرع فرائسه غير الشيطان

وسنحت الفرصة لاتهام الرجل المظلوم مع الشيطان وهو الاسقف «جرانديه» عدو الكردينال ريشليه ذى الحول والطول فى بلاط باريس ، فاتهم بالفسوق وتسليط الشيطان على الراهبات للتغرير بهن ، وصدقت احداهن أنها فريسة للشيطان باغراء الاسقف الساحر ، فرمته بالتهمة كما أوحى اليها، وقرر المحققون أنهم سمعوا اعتراف الشيطان وهو يتكلم بلسان تلك الفريسة ، فتقررت ادانة الاسقف بشهادة الشيطان ! وحكم عليه بالاحراق وهو بقيد الحياة

ولما قيل لهم أن الشيطان أبو الاكاذيب لم يعسر عليهم ان يبطلوا هذه الشبهة باضطرار الشيطان الى الصدق بين يدى أصحاب العزيمة والبرهان من المحققين الصالحين

وتمشي السخرية مع الفجيعة جنبا الى جنب فى هذه المهزلة الشيطانية ، فيحدث فى بعض محاضر التحقيق أن يقول الشيطان أن السيد لوبردمان رئيس لجنة التحقيق ديوث تخونه امرأته مع الاسقف وغيره ، ويكون لوبردمان غائبا عن الجلسة ولا يلتفت الى قراءته عند توقيعه فيضع عليه اسمه بعد السطر المعهود الذى يقرر فيه اعتماد الصدق فى كل ما جاء فيه ، ويضحك ولاة الامر ملء أفواههم ساعة يعرض المحضر عليهم ، ولكن رئيس اللجنة يعود الى التحقيق لتسخير ذلك الشيطان نفسه فى تمليق الكاردينال ، ويفتتح المحضر المحفوظ بتاريخه (٢٠ مايو سنة ١٦٣٤) سائلا : ما قولك فى الكاردينال العظيم حامى حمى الديار الفرنسية ؟ فيجيبه

الشيطان مقسما باسم الله : انه سوط عذاب على أصدقائى أجمعين • ويعود الرئيس سائلا : ومن هم أصدقاؤك ؟ فيقول له الشيطان : انهم زمرة الهراطقة • ويسأله الرئيس : وماهى مآربه الاخرى ؟ فيجيبه الشيطان أنها هى انقاذه للشعب وقدرته على الحكم هبة من الله وحرصه على سلام المسيحية وولاؤه للملك لويس •••

وبعد العناء المضنى فى جمع هذه الاوراق والمضاهاة بين التحقيقات يخرج الكاتب منها الى سحرة العصر الحاضر الذين يسخرون أعنف شياطينه وهو شيطان الجماعة المستفزة الى الشر والعدوان باسم المذاهب أو الاوطان ، فما تصنعه النازية حين تثور على أعداء الجنس الآرى المطهر ، وما تصنعه الفاشية حين تثور على أعداء المجد الرومانى العريق ، وما تصنعه الشيوعية حين تثور على أصحاب الاموال الاوغاد ــ كل أولئك ثورة لا تتورع عن اتهام الابرياء واحراق الاحياء ، والهبوط الى الهاوية فى أهبة الصعود الى السماء



ومن المفكرين الذين لهم خطر فى كل بحث يدور على العقيدة والتفكير العصرى كاتبان عالميان هما الدكتور لويس صاحب كتاب المعجزات وكتاب مسألة الشر وكتاب ما وراء الشخصية وغيرها من الكتب فى موضوعات الفلسفة الدينية ، ويعتبرونه فيلسوف المذهب البروتستانتى فى العصر الحاضر ، والكاتب الآخر جيوفانى بابينى صاحب كتاب حياة المسيح وأديب المذهب الكاثوليكى المرضى عنه بين المجددين وبين فريق غير صغير من المحافظين

ألف الدكتور لويس رسائل الشيطان وجعلها على لسان

أستاذ من الشياطين يعلم تلميذه أساليب الفتنة والدسيسة واقصاء بنى آدم عن حظيرة الرضوان ، ومعظم هذه الاساليب نفسية يرى العلماء النفسانيون مع المؤلف أنهما بواعث شر وجهل فى الطبيعة الانسانية ، ويرى العلماء الدينيون معه أنها مداخل الشيطان الى سريرة الانسان فيقول الشيطان الاستاذ ـ مثلا ـ لتلميذه أنه خليق أن يتنبه الى خطأ جسيم يقع فيه ناشئة الشياطين وهو اعتقادهم أن السرور حبالة الشيطان. اذ الحقيقة ان الانسان باق فى الحظيرة الالهية ما بقى فى نفسه موضع للسرور ، وعلى الشيطان أن يفرق بين السرور على أنواعه وبين السرور المصطنع الذى يلحق باللغو والتهريج، وينبه الاستاذ تلميذه الى الاقلال من العناية بأغوائه المتدينين الذين تساورهم الشكوك من جراء الحروب والنكبات فان المتدين الذى لا تصمد عقيدته لهذه الشدائد غنى عن الاغواء ولا حاجة بالشيطان الى فرط العناية باغوائه ، وعلى الشيطان التلميذ ألا ييأس من أصحاب الفضائل الذين يعلمون بفضائلهم ويفخرون بها مع أنفسهم ومع غيرهم ، فانها فضائل على مقربة من الرذائل الشيطانية قد تعمل على الرذيلة وهى فى عنفوانها ، وليس من عمل الشيطان أن ينشر الالحاد لان الذى ينكر وجود الله ينكر وجود الشيطان ، وانما عمله أن يصرف المؤمن بالله عن الامل والعبادة ورؤية المحاسن والمعجزات فى خلائقه ومقاديره ، وأقوى الحبائل فى رأى الاستاذ الشيطان أن ينفصل الانسان من حاضره ويقبل على المستقبل بجملته فان المقبل على المستقبل منقطع عن الحاضر والماضى متعلق بالاباطيل ودواعى القنوط والكراهية ، وعلى الشيطان الناشىء أن يذكر أن الكراهية هى المهمة فى المذاهب « المستقبلية » دون عناوينها ودعاويها ، فلا

فرق بين الشيوعية والفاشية والاباحية على اختلافها ما بقيت نفس الانسان خلوا من الحب مفعمة بالنقمة والبغضساء ، وآفة الآفات الكبرى على الدوام أن يصبح الكون فى نظر الانسان صفرا من العجائب وشتيتا متشابها من المألوفات والمتكررات

ولولا ضيق نظر يساور عقل المؤلف أحيانا كلما نظر الى عقيدة غير عقيدته لكان تفكيره فى هذه الامور مطابقا لتفكير المتدين فى كل دين

والكاتب الكاثوليكى جيوفانى بابينى يؤلف الكتاب عن الشيطان ويريد أن يطبق فضيلة السماحة على هذا العدو المبين فى جملة الاعداء الذين تشملهم رحمة الله، ويرى أن الله لا يرضيه دوام الشر ولا دوام السقوط على كائن من الكائنات العاقلة ، فلا بد فى نهاية التجربة الكونية من حياة لا شر فيها ولا شيطان . وزوال الشيطان انما يكون بزوال شره وارتداده عنه الى الخير والصلاح

ورأيه هذا مخالف لآراء الاكثرين من أقطاب المذهب ، ولكنه لم يبلغ من المخالفة أن يعرضه للطرد والحرمان ، فان آراءه الاخرى فى الكتاب تحسب له اذا حسب هذا الرأى عليه، وفيها شرح للعقائد الدينية وتقبيح للمنازع الشيطانية يحمده له المعتقدون ويقنعون به من الكاتب فى زمن يقل فيه أمثاله من الكتاب العالميين الذين يعلنون عقائدهم فى غير مبالاة بسخرية المنكرين والملحدين

تلك زبدة مفيدة لما يسمى (بالديمنولوجى) « Demonology » أو مباحث الباحثين عن الشيطان فى العقيدة الدينية وفى التعبيرات المجازية فى القرن العشرين

فالمتدينون يؤمنون بوجود الشخصية الشيطانية فعلا

ويحصرونها في أضيق حدودها ولا يبوئونها من السلطان على النفس البشرية تلك المنزلة آلتي كانت لها في عقائد الاولين

والمعبرون المجازيون فريقان : فريق يلغي الشخصية الشيطانية ألبتة ، ويحل محلها عوامل الوعي الباطن التي يسميها الغريزة أو الكبت أو العقد النفسية أو علل الشخصية السقيمة وما شاكل هذه الاسماء .. وهذا الفريق مسبوق الى رأيه في جملته دون تفصيله ، فقد ذهبت هذآ المذهب فئة من المعتزلة ترى أن الشيطان هو وساوس النفس ودوافع الشهوة والطمع والغضب والخديعة ، وتستند في رأيها الى قول النبي عليه السلام أن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق، وليس هذا التأويل عند جمهرة المحدثين بالتأويل المقبول

والفريق الآخر على رأى هكسلى الذي تقدم ذكره ، وهو أن العقل والعلم لا يمنعان وجود الشيطان كما جاء في الفصل السابع من كتابه عن شياطين لودن حيث يقول : « هل توجد الشياطين ؟ وان كانت توجد فهل كانت حاضرة في جسد الأخت جين وزميلاتها الراهبات ؟ فأما المس الشيطاني فلست أرى في القول به سخفا أصيلا ، ولا أجد شيئا من التناقض في فكرة ترى امكان وجود الارواح غير الانسانية طيبها وخبيثها أو لا طيبة ولا خبث فيها ، وليس ثمة ما يضطرنا الى القول بأن الملكة الفاهمة ممتنعة فيما عدا أجسام الانسان والحيوان ، واذا قبلنا الشواهد على الكشف والنظر البعيد ـ وهي شواهد يكاد القول برفضها أن يتعذر علينا ـ فلا بد من الايمان بعوامل مفكرة مستقلة على الاغلب الاعم عن المكان والزمان والمادة

وهذه هي زبدة «الديمنولوجى» في صفحتها الاخيرة من آراء المتدينين والمفكرين في القرن العشرين

خاتمة

خاتمـــة

تمت فى هذه الصفحات رســالة موجزة فى موضــوع من موضوعات المقارنة بين الاديان والعقائد يدور حــول تصوير « قوة الشر » من عهــد القبائل البــدائية الى منتصف القــرن العشرين

والمقارنة بين الاديان والعقائد علم حــديث من علوم القرن التاسع عشر ، بدأ البحث فيه قبيل ختــامه ، وانتصف القرن العشرون ولا تزال الكشوف الاخيرة فيه تتوالى وينسخ بعضها بعضا أو يشير بانتظار النهاية بعد خطوات لم تبرح أوائل الطريق ، وكلما تعجل الباحث الفراغ من دور الجمع والتبويب والنتائج المعلقة على البقية المنتظرة بادرته الكشوف الحديثة بما ينقض حكمه أو يضطره الى تعديله على ترقب وتؤدة واستعداد

ونحن نختم هذه الرسالة ، والاجزاء الاخــيرة من موسوعة أرنولد توينبى « Arnold Toynbee » تصــدرها المطبعة من المجلد السابع الى المجلد العاشر ، وفى نهاية الجزء السابع منها تعقيب على الظاهرة الغامضة التى كشفت عن التشــابه القــريب بين عقائد القبائل البدائية فى القارات الخمس وانقســام المفسرين لهذه الظاهرة الى فريقين : فريق يرى أن الانسان تلقى الهاما بالوحدانية قبل التاريخ وقبل افتراق الاجنــاس والقارات ، وفريق يرى أن الطبيعة الانسانية تتقارب فى وحى البديهــة

وتستلهم شعورا واحدا بما وراء المادة المشهودة ، وسيمضى زمن طويل قبل أن تتحد النتائج بين الفريقين ، لأن الأرض واسعة والقبائل البدائية مبعثرة على أرجائها ، ومسائل العقيدة عندها من أسرارها التى تخفيها ، وما تجلوه منها اضطرارا أو اختيارا يتيه فيه الباحثون بين غرابة اللغة وغرابة الرموز

فمن الغرارة البالغة أن يقول قائل عن موضوع من موضوعات المقارنة بين الاديان أنه شيء عتيق مضى أوانه ، على حين اتفاق الاقوال بين علماء المقارنة وقرائها على ابتدائها فى خطواتها الاولى وانتهائها فيما انتهت اليه الى نتائج معلقة بين الترجيح والتردد والانتظار

ولا نخال أن السريرة الانسانية تكشف عن أعماقها بعلم من العلوم كهذا العلم وعلم الدراسات النفسية ، وهو كذلك فى خطواته الاولى أو على أبواب النتائج التى لا تفتح الا بين التردد والانتظار

لكن الفائدة المبكرة التى خلصت للعقل الانسانى من بواكير البحث فى العلمين أن مقاييس الحقائق تختلف وتتعدد ، وأن الحقائق كلها لا تقاس بأرقام الحساب وأنابيق المعامل وتجارب الطبيعيين ومناظر الفلكيين

فهاهنا حشد من العقائد والأخيلة تمتلىء به سيرة النوع الانسانى فى نحو مائة قرن يدركها التاريخ

ما هى فى أرقام الحساب أو أنابيق المعامل أو تجارب الطبيعة أو مناظر الفلكيين ؟

سهل على أدعياء العلم أن يصرفوها بكلمتين : حديث خرافة!
وحديث الخرافة يجب أن يلغى ، فتعالوا نلغه ونعهد بأدعياء

العلم جميعا أن يبدأوا بالنوع الانسانى فى تعلم الخير والشر والقداسة واللعنة على برنامج غير هذا البرنامج وتربية غير هذه التربية

وليتسلم أدعياء العلم هذا النوع الانسانى قبل مائة قرن، وليأخذوا فى تعليمه الابجدية من هذه الدروس

ولنفرض أولا فرضا مستحيلا وهو أنهم سيكونون قبل مائة قرن على معرفة بما يسمونه اليوم خرافة وما يسمونه تحقيقا وما يسمونه دراسة منطقية أو علمية

وليبدأ النوع الانسانى فى هذه المدرسة بفلسفات الاخلاق على مذاهبها وفروضها واحتمالاتها وردودها ومناقشاتها

وليحفظ فلسفات الاكاديمية كلها ويتخرج عليها

ولقد حفظها ولقد تخرج منها بما شاء له أدعياء العلم من آراء

ولقد وصلنا بعد الرحلة الطويلة الى القرن العشرين فماذا نقول ؟

نقول ان هذا فى الحق هو حديث الخرافة الذى لا يعدو الالفاظ والعناوين وأسماء المدارس والمريدين

لكن النوع الانسانى ترك هذه الاكاديمية قبل مائة قرن وأمعن فى طريقه الذى هداه اليه القدر ، وأعدته له الفطرة

ونتيجة هذا الطريق أنه أعطى الحياة النابضة لكل خلق من أخلاق الخير والشر والقداسة واللعنة ، وأن أعلم العلماء اليوم لايستطيع أن يقيم من الفوارق الحية المحسوسة بين خلق وخلق فارقا واحدا كالفارق الذى نفهمه ونحسه ونحياه حين نتكلم عن الخلائق الالهية والخلائق الملكية والخلائق الشيطانية أو عما يجملها من الخلائق السماوية والخلائق الارضية والخلائق الجهنمية

ان العلماء الذين يستعيرون تعبيراتهم المجازية من هذه الفوارق لا يفعلون ذلك لعبا بالالفاظ أو تظرفا بالتمثيل والتشبيه ، ولكنهم يستعيرون ذلك التعبير لأنه أدل وأوضح وأقوى من كل تعبير يستعيرنه من المدرسة النفعية والمدرسة السلوكية والمدرسة الانفعالية ومدارس روح الجماعة وتضامن الهيئات والبيئات ، وما اليها من ألفاظ ناصلة ومعان حائلة وأسماء لم تخلق من مسمياتها شيئا وهيهات أن تخلقه ولو تسمت بها مئات القرون وغاية ما تبلغه أنها تأتى الى محصول القرون بعد زرعه ونمائه واستوائه وحصده، فتكتب العناوين على غلاته وبيادره ولا تأمن بعد ذلك أن تضل بين تلك العناوين التى كتبتها بيديها !

فهذه الحقائق الوجدانية والقيم الروحية لا تقاس بمقياس الارقام وأنابيق المعامل ، ومن أراد أن يقيسها بهذا المقياس فهو الذى سيخطىء لا محالة ، كما يخطىء كل واضع لأمر من الامور فى غير موضعه ، وكل من يقيس شيئا وهو يجهل كيف يقاس

على أننا قد نفقه تعدد المقاييس وتعدد القيم دون أن نضطر الى التوسع فى هذا الموضوع الشاسع المسير ، موضوع المقارنة بين الاديان

فالغريزة فى كل رجل وامرأة وفى كل ذكر وأنثى من الحيوان تسفه كل من يعتسف طرق البحث ويسبر أغوار الطباع بغير مسبارها

وهذا حنان الآباء والامهات لغو وباطل بكل شهادة من شهادات الحس والعقل وتجارب المعامل وأرقام الحساب ، لأن حنان الآباء والامهات يقول لهم ان طفلهم دون غيره يساوى كل

من عداه ويفوقهم فى حق البقـاء ويجب أن يزولوا جميعا اذا وجب أن يزولوا من الدنيا أو يزول هو منها

وليضرب صاحب القياس الحسابى على هـذا الحنان بالخط الاحمر ليخرجه من حيز الحقائق ، ولينظر بعد ذلك أين الحق وأين الباطل بين الرأى فى رأسه وبين الحنان فى صـدر كل والد ووالدة ، من الانسان والحيوان

أصواب هذا الحنان أو خطأ ؟

أحق ذلك الدين أو باطل ؟

انما الخطأ أو الباطل هو الذى نسقطه ونلغيه ، فهاهنا خطأ واحد وباطل واحد ، وهما الخطأ والباطل فى مقياس صـاحب الحساب وصاحب الانبيق

وندع الغرائز المحجبة ونقترب من المحسوسات الواضـحة المفتوحة للسمع والبصر ، فنفرض أن مخلوقا يرى الاشياء كما تكون فى جو الاثير على بعد من الارض والجاذبيـة الارضـية ، وتتحدث أمامه عن اللون الاحمر واللون الاخضر وعن العناصر الثقيلة والعناصر الخفيفـة وعن المقاطع والـكلمات والاصـداء والنغمات ، فماذا عليـه لو صـاح بنا : على رسـلكم يا هؤلاء اللاغطين • ان ما تهذرون به لحديث خرافة وأضغاث أحلام

انه لا يكون قد خرج بذلك على سنة العلم وأدعيائه ، واننا مع هذا لم نبتعد من المحسوسات التى يحيـط بهـا العيـان وتسمعها الآذان فاذا كانت الطبيعة الانسانية لا تدرك هـذه المحسوسات الا بهذه الالوان والاشكال فكيف نطلب من الاديان أن تخاطب الطبيعة الانسانية بأسـلوب غير أسـلوبها وهى تتحـدث عن الغيوب الخفية وعمـا وراء المـادة ووراء الزمـان والمكان

من رام أن يعيب القيم الوجدانية التى دان بها الانسان منذ جهالته الاولى فهو ـ لا ريب ـ واجد فيها كثيرا مما يعاب ويفرط فى المعابة . لكن السؤال الفصل هنا لا يكون : هل تعاب القيم الوجدانية أو لا تعاب ؟ بل يكون : هل توجد هذه القيم الوجدانية لانسان ناقص ينمو ويكبر ، أوتوجد لانسان كامل معصوم من نشأته الاولى ؟ ان عقيدة تصلحها عقيدة بعدها كالمعرفة تصلحها معرفة تليها وتقوم عليها ، لا هذه تسقط العلم ولا تلك

اننا فرضنا فى مستهل هذه الخاتمة أن أدعياء العلم تسلموا النوع الانسانى منذ مائة قرن ليرشدوه الى طريق غير الطريق الذى اتبعه فى التمييز بين الخير والشر والقداسة واللعنة ، فلندع هذا الفرض البعيد ولنستغن عنه بما بين أيدينا من «الديانات العلمية » التى ارتضاها « الانبياء العلميون » فى القرنين الاخيرين بعد اختبار العقائد والمذاهب والفراغ من أوهام الخرافات والاساطير ، ولننظر فى الديانة التى سموها الديانة المادية الاقتصادية وقرروا فيها أن احتكار الفلوس هو الذى يخلق الاديان والافكار ويقوم القيم ويرفع الطبقات، وأنه اذا جاء الوقت الذى ينقضي فيه احتكار الفلوس زالت الطبقات وخلا المجتمع من السادة أبدا سرمدا بغير انتهاء

ولم يمض على قيام هذه الديانة جيل واحد حتى سمعنا علما من أعلامها يأسف ويأسى ثم ينعى على زملائه أنهم يختارون لادارة المعامل وتنظيم الحكومة أذنابا من المقربين اليهم ويقصون عنها ذوى الكفاية والغناء فى العلم والعمل والسابقة المذهبية ويبقى فى نفوسهم بعد الغاء الاحتكار باعث يرفع ويضع بغير مقدار الا ان يكون مقدار الاثرة والايثار

وهؤلاء المتدينون « العلميون » هم الذين يصدقون مع هذا أنهم حكموا على المستقبل ورسموا للنوع الانسانى طريقه فى نظام المجتمع وبواعث الاخلاق أبد الآبدين ودهر الداهرين ألوفا من السنين ، لا بل ملايين من القرون بعد ملايين

وكل ما صدقه عجائز الخرافة من عهد الكهوف الى اليوم يطير هباء أمام هذه الخرافة التى آستقر عليها أدعياء العلم والنبوءات العلمية وكفى بهذه المقارنة تعجيزا لمن يتطاول به الغرور فيخال أنه يصحح العقائد بمقاييسه ومقاييس علمه المزعوم

وسيبقى أناس يتعوذون من ابليس يوم يضحكون من خرافة « المادية الاقتصادية » كيف كانت وكيف جازت على العقول ، ونحن نقول فى أول هذه الرسالة أن ظهور ابليس فى عقائد الناس كان علامة خير لأنه علامة التمييز بين الشر ونقيضه ، فنقول فى ختامها ان بقاءه بعد المادية الاقتصادية علامة خير أخرى ، لأن الكون الذى يبقى فيه ابليس ملعونا أشرف من الكون الذى لا يميز بين القداسة واللعنة ولا يعرف شيئا يلعنه ، اذ كان لا يؤمن باله غير الفلوس ، وساء ذلك من اله ، وتعالى الله عما يشركون

عباس محمود العقاد

محتويات الكتاب

صفحة

كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية بثمن زهيد

هي خطوة ثقافية كبيرة قامت بها دار الهلال لتيسير القراءة المفيدة للجميع .. ففي الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لاحد كبار الكتاب في الشرق والغرب ، في اخراج أنيق وطباعة متقنة ثمن الكتاب الواحد ٨٠ مليما ـ ما عدا كتابي زينب ومع الله في السماء وابتداء من كتاب « قال الرئيس » (العدد ٧١) ١٠٠ مليم ـ بخلاف مصاريف البريد المسجل وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

١ ـ عبقرية محمد (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد

٢ ـ ماجلان قاهر البحار
تأليف ستيفان زفايج

٣ ـ هرون الرشيد (نفد)
تأليف المرحوم الدكتور أحمد أمين

٤ ـ ابو الشهداء (اعيد طبعه)
تأليف عباس محمود العقاد

٥ ـ جنكيز خان
سفاح الشعوب (نفد)
تأليف ف . بان

٦ ـ قلب النسر
تأليف أوكتاف أوبرى

٧ ـ السيد عمر مكرم
تأليف محمد فريد أبو حديد

٨ ـ غاندى : القديس الثائر
تأليف لويس فيشر

٩ ـ زعيم الثورة سعد زغلول
تأليف عباس محمود العقاد

١٠ ـ الزعيم احمد عرابى (نفد)
تأليف عبد الرحمن الرافعى

١١ ـ بطلة كربلاء (نفد)
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

١٢ ـ اشعب امير الطفيليين (نفد)
تأليف توفيق الحكيم

١٣ ـ نفرتيتى ربة الجمال والتاج
تأليف صوفى عبد الله

١٤ ـ حديث رمضان (نفد)
تأليف الامام محمد مصطفى المراغى

١٥ ـ عبقرية خالد (أعيد طبعه)
تأليف عباس محمود العقاد

١٦ ـ الذئب الاغبر مصطفى كمال
تأليف الكابتن هـ ·س· ارمسترونج

١٧ ـ كليوباترة فى خان الخليلي
تأليف محمود تيمور

١٨ ـ الاسلام دين الفطرة
تأليف الشيخ عبد العزيز جاويش

١٩ ـ لا تخف (نفد)
تأليف ادوارد سبنسر كولز

٢٠ ـ مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية (نفد)
تأليف عبد الرحمن الرافعى

٢١ ـ القائد الاعظم محمد على جناح
تأليف عباس محمود العقاد

٢٢ ـ زينب
تأليف الدكتور محمد حسين هيكل (نفد)

٢٣ ـ مذكرات عرابى
جزء أول (نفد)
تأليف الزعيم أحمد عرابى

٢٤ ـ مذكرات عرابى
جزء ثان (نفد)
تأليف الزعيم أحمد عرابى

٢٥ ـ عبقرية عمر (اعيد طبعه)
تأليف عباس محمود العقاد

٢٦ ـ آمنة بنت وهب
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

٢٧ ـ فاطمة الزهراء والفاطميون (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد

٢٨ ـ عصا الحكيم فى الدنيا والآخرة
تأليف توفيق الحكيم

٢٩ ـ ابو نواس
تأليف عبد الرحمن صدقى

٣٠ البؤساء
تأليف فيكتور هيجو

٣١ ـ علمتنى الحياة (نفد)
لنخبة من علماء الشرق والغرب

٣٢ ـ فى الطريق
تأليف ابراهيم عبد القادر المازنى

٣٣ ـ مدرسة المغفلين (نفد)
تأليف توفيق الحكيم

٣٤ ـ لا تقتل نفسك
تأليف بيترشتاينكرون

٣٥ ـ عصاميون من الشرق والغرب
لنخبة من كبار الكتاب
(اعيد طبعه)

٣٦ ـ الارواح المتمردة ـ الاجنحة المتكسرة ـ الموسيقى
تأليف جبران خليل جبران

٣٧ ـ ذو النورين عثمان بن عفان (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد

٣٨ ـ محمد الثائر الاعظم
تأليف فتحى رضوان

٣٩ ـ عش مائة عام
تأليف جايلورد هاوزر

٤٠ ـ الحرية الحمراء
تاليف حبيب جماتى

٤١ ـ اهل الكهف
تاليف توفيق الحكيم

٤٢ ـ الله (أعيد طبعه)
تاليف عباس محمود العقاد

٤٣ ـ عش شابا طول حياتك
تاليف فيكتور بوجومولتز

٤٤ ـ علم الفراسة الحديث
تأليف جرجى زيدان

٤٥ ـ نساء النبى (اعيد طبعه)
تاليف الدكتورة بنت الشاطىء

٤٦ ـ ثائرون
تأليف محمود تيمور

٤٧ ـ زهرة العمر
تأليف توفيق الحكيم

٤٨ ـ هذا مذهبى
باقلام نخبة من الشرق والغرب

٤٩ ـ غادة النيل
تاليف اميل لودفيج

٥٠ ـ مطلع النور
تاليف عباس محمود العقاد

٥١ ـ يوميات نائب فى الارياف
تاليف توفيق الحكيم

٥٢ ـ طريق السعادة
تاليف فيكتور بوشيه

٥٣ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الاول)

٥٤ ـ عبقرية الصديق
تاليف عباس محمود العقاد

٥٥ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الثانى)

٥٦ ـ مدرسة الشيطان
تاليف توفق الحكيم

٥٧ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الثالث)

٥٨ ـ معاوية بن ابى سفيان
تأليف عباس محمود العقاد

٥٩ ـ ألف ليلة وليلة
(الجزء الرابع)

٦٠ ـ اعرف نفسك
تاليف ادوارد سبنسر كولز

٦١ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الخامس)

٦٢ ـ مع الله .. فى السماء
تاليف الدكتور أحمد زكى

٦٣ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء السادس)

٦٤ ـ قصة الثورة كاملة (نفد)
تاليف أنور السادات

٦٥ ـ جحا الضاحك المضحك
تأليف عباس محمود العقاد

٦٦ ـ بنات النبى
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

٦٧ ـ عبقرية الامام على
تأليف عباس محمود العقاد

٦٨ ـ شاعرة الطليعة : عائشة تيمور
تأليف الآنسة مى
٦٩ ـ الصديقة بنت الصديق
تأليف عباس محمود العقاد
٧٠ ـ بطل الكفاح : الشهيد محمد فريد (نفذ)
تأليف عبد الرحمن الرافعى
٧١ ـ قال الرئيس
للرئيس جمال عبد الناصر
٧٢ ـ بناة النهضة العربية
تأليف جرجى زيدان
٧٣ ـ محمد الرسول البشر (نفذ)
تأليف توفيق الحكيم
٧٤ ـ القصر المسحور
تأليف طه حسين ـ توفيق الحكيم
٧٥ ـ قصة الثورة كاملة طبعة جديدة (نفذ)
تأليف أنور السادات
٧٦ ـ أسرار الثورة المصرية
تأليف أنور السادات
٧٧ عصفور من الشرق
تأليف توفيق الحكيم

٧٨ ـ البؤساء طبعة جديدة
تأليف فيكتور هيجو
تعريب محمد حافظ ابراهيم
٧٩ ـ أخلاق للبيع
تأليف فتحى رضوان
٨٠ ـ لا شيوعية ولا استعمار
تأليف عباس محمود العقاد
٨١ ـ قصة الوحدة العربية
تأليف أنور السادات (نفذ)
٨٢ ـ حياة المسيح
تأليف عباس محمود العقاد
٨٣ ـ الفكاهة فى مصر
تأليف الدكتور شوقى ضيف
٨٤ ـ عش سليما بغير مرض
تأليف الدكتور ابراهيم فهيم
٨٥ ـ شهر رمضان
بقلم خليل طاهر
٨٦ ـ سارة
بقلم عباس محمود العقاد
٨٧ ـ صلاح الدين الايوبى
تأليف محمد فريد أبو حديد
٨٨ ـ ياولدى .. هذا عمك جمال
بقلم أنور السادات

ويمكنك الحصول على ماينقص مجموعتك من هذه الكتب من قسم الاشتراكات بدار الهلال شارع محمد بك عز العرب « المبتديان » بالقاهرة ، وشركة الصحافة المصرية بشارع النبى دانيال بالاسكندرية ، ومن شركة الصحافة المصرية بميدان المحطة بطنطا، ومن السيد محمود حلمى صاحب المكتبة العصرية ببغداد ، ومن شركة فرج الله للمطبوعات بشارع بيكو طريق المالكى ببيروت ، ومن المكتب العام لتوزيع المطبوعات لصاحبه السيد على نظام ببناية العابد بدمشق ومن جميع المكتبات الشهيرة ، وأكشاك الصحف ، ما عدا الكتب التى نفدت نسخها كماترى فى هذا الكشف

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسي بطريق الملكي المتفرع من شارع بيكو في بيروت صندوق بريد ١٠١٢ (الاعداد ترسل بالطائرة)

العراق : السيد محمود حلمي ـ المكتبة العصرية ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن علي نحاس ـ ص . ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد

البرازيل : Dr. Michel H. Thomé,
Pateo Do Colegio N° 3,
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL

غانا : Mr. Joseph Hassan,
The Cine Travel Co,
P.O.Box 1883,
ACCRA, GHANA

هذا الكتاب

يوم عرف الانسان الشيطان كانت فاتحة خير !
كان العالم ظلاما لاتمييز فيه بين طيب وخبيث ، ولا بين حسن وقبيح . . . ثم عرف الانسان الشيطان، فكانت معرفة الشيطان فاتحة التمييز بين الخير والشر : عرف الخير فاتبعه ، وعرف الشر فنبذه وابتعد عنه !

وفى هذا الكتاب القيم ، الذى تفخر سلسلة ((كتاب الهلال)) بتقديمه اليوم ، يقدم لنا الاستاذ الكبير عباس محمود العقاد بحثا مستفيضا قيما عن الشيطان وقصته ، بعنوان ((ابليس)) . ويصور قلمه القوى المعبر ((شخصية)) الشيطان ، واسمائه . . . وضروب شيطنته ! . . . وهو بحث طريف طرافة الشيطان نفسه ، غريب غرابته . وينتقل بك عبر القرون الى الارواح الشريرة التى روعت الانسان الاول فحاول فهمها والابتعاد عن أذاها ، الى أن فهم الشيطان المتمرد المحرض على الرذائل والشهوات ، وحين تم له هذا الفهم أدرك معنى الخير ومعنى الشر . وهكذا نجد أن قصة الشيطان فى صميمها هى قصة الاخلاق الانسانيه وصراعها فى سبيل الخير

هذا هو كتاب ((ابليس)) الذى نقدمه الى القارىء اليوم ، فى طبعة ، أنيقة ، منقحة